

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190604

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب
علم الآداب

الجزء الثاني

في

علم الخطابة

تأليف

الاب لويس شيخو اليسوعي



طبعة ثالثة مصححة مكملّة

في مطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت

سنة ١٩٢٦

حقوق طبعه محفوظة للمطبعة

نُوطَةٌ

للطبعة الثالثة من علم الادب

الحمد لله الذي جعل اللسان ترجماً عن خفايا الجنان. وضمَّ
بنطقه نشر المجتمع البشري حتى اقاصي البلدان . ووكل اليه
اثبات الحق وازهاق الباطل بقوة البرهان

وبعد فنقول هذه طبعة جديدة للقسم الثاني من كتابنا
علم الادب الذي خصصناه باصول صناعة قلماً خاض في اجائها
كتبة العرب زريد بها علم الخطابة . ولسنا نقصد بذلك انهم
جهلوا هذا الفن الجليل مع ما نرى في تأليفهم من آثاره الطيبة
التي دفعت ببعضهم الى القول بان العرب اخطب الأمم . كلاً
ولكنهم قد تبعوا في ذلك فطرتهم الصالحة وذوقهم السليم اكثر
منهم القوانين الوضعية التي هي خلاصة درس الادباء ونتيجة
مراقبتهم لأئمة الخطباء . ولا شك انهم لو عرفوها لأتوا من فنونها
بالمجانب مع ما عرفوا به من ثقب الاذهان وذلاقة اللسان
والبلاغة في الكلام

وقد كنّا سابقاً نشرنا لأول مرة اصول فن الخطابة فراج

الكتاب رواجاً لم يكن في الحسبان حتى نفذ طبعه منذ عدة سنين والاشغال لم تسمح لنا باعادة النظر في مضامينه لإصلاحها وتحسين ابوابها . حتى استعناً بالله سنة ١٩١٣ واجهدنا النفس في هذا العمل لخير المدارس التي كانت تلح علينا تترى بانجازه فتم بحولهِ تعالى منقحاً مع عدة زيادات على الطبعة الاولى

وها نحن مطالبون بتكرار تلك الطبعة نالته لنفود الطبعة الثانية . فلم نتأخر ولنا الأمل ان الطلبة يتلقوها بالاستحسان ويتخذونها قاعدة لاتقان فن الخطابة الذي اصبح اليوم بعد تأليف المجالس النيابية والشورية من اكبر الوسائل لتوطيد الواجبات والحقوق والدفاع عن حياض الآداب العمومية وحاجات الوطن العزيز

وفي الختام نكرر شكرنا لكل من ساعدنا في هذا العمل إماً بمشورته وإماً باصلاحات ما وجدته فيه من الخلل



كتاب
علم الادب
في

علمي الخطابة والشعر

قال الرئيس ابن سينا : ان الحكماء قد ادخلوا الخطابة
والشعر في اقسام المنطق لأن المقصود من المنطق ان يوصل
الى التصديق . فان أوقع التصديق يقيناً فهو البرهان (والبحث
عنه في القياس والجدل وآداب البحث) . وان أوقع ظناً او
محمولاً على التصديق فهو الخطابة . اما الشعر فلا يوقع تصديقاً
لكنه لإفادة التخيل الجاري مجرى التصديق ومن حيث
انه يؤثر في النفس بسطاً او قبضاً عدّ في الموصل الى التصديق
﴿ فوائد ﴾ فائدة أولى . حدّ ابن سينا التصديق في كتابه الشفاء
بقوله : التصديق إذعان لقبول الشيء على ما قيل فيه . وحدّ التخيل :
إذعان للتعجب والالتذاذ بنفس القول المخيل . وزاد ان هذا التخيل
تفعله صورة الكلام . اما المخيل فقد عرفه قائلنا انه الكلام الذي تدعن

لَهُ النَّفْسُ فَتَنْبَسِطُ عَنْ أَمْرٍ أَوْ تَنْقَبِضُ عَنْ أَمْرٍ مِنْ غَيْرِ رُوْيَةٍ وَفَكْرٍ وَاجْتِبَارٍ
وَبِالْجُمْلَةِ تَنْفَعُلُ مِنْهُ أَنْفَعَالًا نَفْسَانِيًّا غَيْرَ فِكْرِيٍّ سِوَاهُ كَانَ الْقَوْلُ مُصَدِّقًا
بِهِ أَوْ غَيْرَ مُصَدِّقٍ بِهِ

فائدة ثانية . قال ابن سينا في الفرق بين الشعر والخطابة : أنَّ الشعر
يُقَالُ لِلتَّعْجُبِ وَحْدَهُ . أَوْ يُقَالُ لِلْأَغْرَاضِ الْمَدْنِيَّةِ أَيِ فِي أَحَدِ أَجْنَاسِ
الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ أَعْنِي التَّثْبِيثِيَّةَ (فِي الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ) وَالْمَشُورِيَّةَ (فِي النَّفْعِ أَوْ
الضَّرِّ) وَالْمَشَاجِرِيَّةَ (فِي الْعَدْلِ أَوْ الْجَوْرِ) . وَتَشْتَرِكُ الْخُطَابَةُ وَالشَّعْرُ فِي
هَذِهِ الْأَغْرَاضِ . لَكِنَّ الْخُطَابَةَ تَسْتَعْمَلُ التَّصْدِيقَ وَالشَّعْرُ يَسْتَعْمَلُ التَّخْيِيلَ

فائدة ثالثة . قول ابن سينا أنَّ الْخُطَابَةَ تَوْقِعُ التَّصْدِيقَ ظَنًّا فَلَا تُنْهَى
كَثِيرًا مَا تَتَعَرَّضُ لِتَرْجِيحِ أَحَدِ أَمْرَيْنِ عَلَى حَسَبِ مَقْتَضَى الْأَحْوَالِ كَتَقْدِيمِ
الْحَرْبِ عَلَى السَّلَامِ أَوْ السَّلَامِ عَلَى الْحَرْبِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فُنُونِ الْكَلَامِ
كَمَا سَتَرَى . غَيْرَ أَنَّهَا فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ تَوْقِعُ التَّصْدِيقَ يَقِينًا لَكِنَّا نَرَاهَا
حَسَنَ الْكَلَامِ وَتَمْتَازُ بِذَلِكَ عَنِ الْمُنَاطِقِ



القسم الأول

في علم الخطابة

مقدمة

في حقيقة الخطابة وتقسيمها ومرتبها

س ما هي الخطابة ؟

ج الخطابة في اللغة كالخطاب وهي الكلام النفسي
الموجّه به نحو الغير للإفهام (١٠١) وفي اصطلاح الحكماء هي
صناعة تتكلّف الإقناع الممكن في كل مقولة من المقولات (٢)
س ما معنى قولك إنّ الخطابة صناعة ؟

ج اي أنّها مجموع قوانين متعلّقة بكيفية العمل فترشد
الانسان الى طرائق الإقناع وتتولّى ترغيب الجمهور وحملهم على
المراد منهم

س لماذا قلت إنّ الخطابة تتكلّف الإقناع الممكن ؟

ج لأنها تتحرى في كل مسألة ما يفيد الاقناع وان لم
تتمكن دائماً من ادراك غايتها لأسباب

(فائدة) . ان شأن الخطابة كشأن باقي الصناعات التي تُعدُّ النفس
لعمل خاص بموجب قوانين محدودة وإن لم تبلغ تلك الصناعات غايتها في
بعض الاحيان لأسباب . كالطب الذي غايته الشفاء لانَّ اصوله ترشد الى
معالجة الامراض فيبرئها ما لم تعترض دون فعلها العوارض

س ما المقصود من قولك « في كل مقولة من المقولات » ؟

ج المقصود منه ان الخطابة لا تختص بكباقي الصناعات
بقولة من المقولات العشر ويجنس خاص لكنها تشمل كل
المقولات وكل الاجناس فتتكلف الاقناع فيها جميعاً

(فائدة) . المقولات العشر هي الاقوال التي تعرف الشيء في ذاته او
احواله وهي جوهر الشيء وكميته وكيفيته ونسبته الى غيره وفعله وانفعاله
وزمانه ومكانه وهيئته ووضعه . فالخطابة تعيها كلها بخلاف بقية
الصناعات التي تختص بواحد منها كالطب الذي ينظر في كيفية بدن
الانسان لمعالجته وكالخط الذي ينظر في رسم الحروف وهيئتها وهلم جرا
(فائدة اخرى) . من تعريف الخطابة يتضح لك الفرق بينها وبين

النصاحة والبلاغة فان النصاحة والبلاغة تمكنان الانسان من تركيب
المفردات وحسن التعبير ليزد ما يكنه القواد من المعاني والعواطف . اما
الخطابة فتريد على تلك القوة قوة أخرى بان تلقنه طرق الاقناع وتمكّنه
من استمالة الخواطر وتوجيهها الى امر من الامور فلا غنى لها عن قوانين
تدرك بها هذه الغاية

س. ما هو موضوع الخطابة ؟

ج. ليس للخطابة كما روى ابن رشد نقلاً عن ارسطو (١) موضوع خاص تبحث عنه بمعزلٍ عن غيره فأنها لا تنجم عن النظر في كل العلوم والفنون ولا شيءٍ حقيراً كان او جليلاً معقولاً او محسوساً الا يدخل تحت حكمها وينخضع لسلطان لسانها . ومن ثم يترتب على الخطيب ان يكون له إمام بكل صنف من المعارف بل ينبغي له ان يوسع ايضاً كل يوم نطاق مداركه

(شرح وايضاح) . كل قضية او مسألة يمكن الحكم فيها تكون موضوعاً للخطابة سواء كانت تلك المسائل « عامة مطلقة » كتفضيل الشدة على اللين او اللين على الشدة في السياسة اجمالاً . او تكون « خاصة مقيدة » بزمان او مكان او اشخاص كتفضيل الشدة في واقعة خاصة او ظروفٍ مقررة ومع شخص معلوم . وسواء كانت ايضاً « نظرية » كحب الوطن عموماً وسبب حدوث الفتن او « عملية » كاتخاذ الوسائل لرد كيد عدو انتهك حرمة الاوطان او لاستدراك مضار الفتن المتوقعة . وتكون ايضاً تلك المسائل « جوهرية اساسية » عليها يدور محور الخطابة « او « عرضية ثانوية » تتعلق بالاولى لا يُبحث فيها الا لاثبات القضية الاولى كالكلام في الحرب والسلام او في ظروف كليهما والوسائل بلوغها . فالخطابة تشمل كل ذلك دون استثناء

(١) راجع كتابه تعريب خطابة ارسطو (اطلب مقالات علم الادب الطبعة الثانية ج ٢ ص ٣-٨)

س ما هي غاية الخطابة ؟

ج غاية الخطابة ان تلتمس اقناع السامع في اي امر
كان (١)

(فائدة) . هذا في موضوع الخطابة وغايتها على حسب معناها الاصيلي .
اماً اذا اعتبرت في معناها الثانوي من حيث هي صناعة او مجموع قوانين
فانها تساعد الدارس على اكتساب قوة الكلام وحسن الخطاب فوضعها
درس الاساليب الحريّة بالاقتناع وغايتها الحصول على القوة التي تمكن منه

س ما هو الإقناع ؟

ج الإقناع حمل السامع على التسليم بصحة مقال او
على العمل بموجب امر او تركه
س كم نوعاً الاقناع ؟

ج الاقناع نوعان منطقي وخطابي . فالمنطقي غايته
اذعان العقل لنتيجة مبنية على مقدمات ثبتت له صحتها .
كقولك ان العالم محدث لأن العالم مركّب وكل مركّب محدث
اماً الخطابي فانه يتوخى اذعان العقل لصحة القول بأقضية مركبة
من المشهورات او المظنونات مع تحريك عواطف القلب
اعجاباً به واستماله الارادة اليه حباً به (١) كتعريفك للعلم ومقامه
وفوائده وحض السامعين على تحصيله

س. ما شرف الخطابة ؟

ج شرفها أنّها تكمل الذات البشرية فتؤيد صاحبها بالسلطة على تنفيذ غاياته في عقول الجمهور فيدفعهم الى تحقيقها. قال ابن سينا في الشفاء: إنّ الخطيب يرشد السامع الى ما يحتاج اليه من امور دينه وديناه ويقم له مراسيم لتقويم عيشه والاستعداد الى معاده

س ما هي فوائد الخطابة ؟

ج فوائد الخطابة أكثر من ان تُحصى لأنّها تعرف صاحبها طرق استمطاف الخواطر وتمكنه من مقاليد القلوب . بنبراسها تستضيء موارد الدليل وتتضح مصادر البرهان لانفاذ كل امر جليل وادراك كل غاية نافعة . فضلاً عن انّ قوانينها توقف الطالب على شعب السهو والمزلة فيقوى على دحض اقاويل المناظر وترتيف سفسطة المكابر

س ما اصل الخطابة ؟

ج اصلها النظر والاختبار وذلك انّ بعض الناس حصلوا طبعاً على ملكة البلاغة فاقتدروا بها على حمل غيرهم الى ما ارادوا منهم . فلحظ الامر غيرهم ممّن لم ينالوا ملكتهم وجعلوا

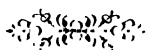
يبحثون عن الطرق التي أدت بأولئك الخطباء بالغريزة الى انارة
الاذهان واستعطاف القلوب فدوّنوا نتيجة أبحاثهم ووسّعوها
حتى جاء ارسطو الحكيم فضمّ شارد هذا الفنّ وجمع شتاتة في
كتاب ضمّنه قواعد هذه الصناعة وسماه الخطابة وهو الكتاب
الذي عربيّه بشر بن متى في القرن العاشر للمسيح ولخصّه ابن
رشد واخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرها
كثيرين

س ما الطريقة لتحصيل الخطابة ؟

ج يُحصل عليها أولاً بقوى النفس الغريزيّة او الطبع
وذلك هو الاساس . ثانياً بمعرفة الاصول التي وضعها الحكماء . ثالثاً
بمطالعة تأليف البلغاء ومصايق الخطباء . رابعاً بالارتياض
والاحتذاء بمشاهير ارباب الخطابة (راجع الجزء الاول في اركان
علم الادب ص ١٣)

س الى كم تُقسم قوانين الخطابة ؟

ج الى فصلين : اصولها وفنونها



الفصل الاول

في

أصول علم الخطابة

س كم هي اصول علم الخطابة

ج ثلاثة : الاول الایجاد . الثاني التنسيق . الثالث
التعبير

قال ابن المعتز والشيباني : انّ البلاغة بثلاثة امور ان تغوص لحظة القلب في اعماق الفكر وتتأمل لوجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر (وهو الایجاد) . ثم يعود القلب على ما اُعمل به الفكر فيحكم سياق المعاني والادلة ويحسن تنزيدها (وهو التنسيق) . ثم يُبديهِ بالفاظ وشيقة مع تزيين معارضها واستكمال محاسنها (وهو التعبير) . قال بعض الحكماء : العلوم الادبية مطالعها من ثلاثة اوجه : قلب مفكر . وبيان مصوّز . ولسان معبر



الاصل الاول

الاجاد

س ما هو الاجاد ؟

ج الاجاد او الاختراع عبارة عن اعمال الفكر في استنباط الوسائل الحقيقة باقناع السامع واستمالة خاطره وتحريك عواطفه

س على كم بحث مدار الاجاد ؟

ج على ثلاثة ابحاث : وضع الادلة . ومراعاة الآداب الخطابية . ومعرفة الاهواء .

وذلك ان غاية الخطيب في كلامه اولاً اثارة الازهان وحملها على الإذعان وهو امر لا يتم الا بالادلة . ثانياً استعطاف الخواطر وذلك مما يترتب على مداراة الاخلاق ورغبة الآداب ومراقبة الاحوال من زمان ومكان واشخاص . ثالثاً استمالة ارادة السامعين الى ما يطلب منهم بإثارة عواطفهم . وهو يقوم بمعرفة الاهواء وطرق تهيجها او تسكينها

الباب الاول

في الادلة

س ما هو الدليل ؟

ج الدليل في اللغة المرشد . وفي اصطلاح الحكماء هو

الذي يَلْزَمُ من العلم به علمٌ بشيْءٍ آخر (١). اي ما يُتَوَصَّلُ به
الى بيان صحّة الشّيْءِ ايجاباً او نفياً . كما لو علمتَ بانّ كلّ فضيلة
محبوبةٌ لزم من ذلك كون العدل محبوباً لدخول العدل في سلك الفضائل .

س كم نوعاً الدليل ؟

ج الدليل اما الزامي او قطعي واما ظني . فالالزامي هو
الموجب للتصديق اليقيني ويُدعى برهاناً . كقول ابن العربي مثبتاً
استحالة وجود إلهين :

لو كان إلهان لأمكن انّ واحداً يريد ان تصير البرية والآخر لم يشأ ذلك
او كلاهما يتفق في الارادة جميعاً او تكمل فقط ارادةً احدهما خصوصاً ولا تكمل
ارادة الآخر . والقول الاول مُحال اذ يكون في ارادتهما تضادٌ فينفي الواحد ما
اثبت الآخر . والثاني ايضاً مُحال لأنّ ارادة الواحد مقيّدةٌ بارادة الآخر . والثالث
باطل ايضاً لأنّ الذي بطلت ارادته ليس هو إلهاً . واما الآخر فيكون هو وحدهُ
الإله وليس إلهاً سواهُ

وامّا الدليل الظنيّ فهو ما كان محمولاً على الظنّ والترجيح
فقط ويغاب عليه اسم الحجّة . كقول العرب : المقرّ بالجريرة مُستعقٌّ
للعفيرة

فهذا الدليل ظنيّ لأنّ الاقرار بالذنب كثيراً ما يصحبه الأسف على
العجز عن سوء العمل دون قصدٍ على اتقائه واقراء كهذا لا يستحقّ غفيرةً .
ومثله قول ارسطو للاسكندر :

انّ الناس اذا قدروا ان يقولوا قدروا ان يفعلوا فاحترس من ان يقولوا تسلم
من ان يفعلوا

ففي هذا القول حجتان محمولتان على الامور الظنيّة الجارية غالباً :
الاولى أنّ القادر على القول ربّما كان عاجزاً عن الفعل . والثانية ان السلامة
من اقوال الناس لا تُنجي دائماً من افعالهم

(فائدة) . اعلم أنّ الخطيب لا يمكنه دائماً اثبات مقاله بالبراهين
القطعيّة وان فعل لا يعرضها بالطريقة المنطقيّة المجردة لكنّه يزين تلك
الادلة بمحاسن الكلام الذي يأخذ بمجامع القلوب . وكثيراً ما يتوخّى
الحجج الشبيهة بالقطعيّة لاسيما في الادبيّات والامور القضائيّة والمشاجرات
س أئني تؤخذ أدلة الخطابة ؟

ج تؤخذ من التأمل في موضوع البحث ومن النظر في
احواله . فتسهيلاً لاستخراج هذه الادلة قد وضعوا جدولاً لما
يمكن استعماله منها واطلقوا عليه اسم المواضع
(فائدة) . قال ابن سينا : إنّ الحجج في الجدل والخطابة تُكتسب
من المواضع . فمن طلب الاقتناع وهو لا يعلمها كان كحاطب ليل يسعى
على غير هداية لا لبخل من الموجود بل لنقصان في الاستعداد

س ماهي المواضع (١) ؟

ج المواضع ضروبٌ من الادلة العامّة التي يمكن الخطيب
استعمالها في كل مقام لاثبات قوله . مثاله موضع التحديد فأنّه
موضعٌ خطابي يحتاج اليه الخطيب في تعريف كل امر يريد اثباته . وكذا
يُقال عن الظروف وبقية المواضع كما سيأتي

(١) هذه اللفظة قد نقلها العرب عن اليونان (τοπικά) يريدون بها مصادر

س كم قسماً المواضع ؟

ج المواضع قسمان : ذاتية وعرضية . فالذاتية تستفاد من نفس الموضوع والعرضية من مصادر خارجة عنه . فمثال المواضع الذاتية ان تحض على طلب العلم لشرفه وفوائده فتنتعه بحياة القلوب ومصباح الأبصار وتثبت انه دليل الرشاد والطريق الى المعاد وتشبهه بكثرة لا ينقد وبسراج لا يُطفأ وحلّة لا تبلى الى غير ذلك من الاوصاف التي تعرف العلم في ذاته او غايته او منافعه ومثال المواضع العرضية ان ترغب في العلم بامثال الامم القديمة واعتبارها للمعارف وان تشهد باقاويل بعض الحكماء او الكتب المأثرة التي عظمت العلم وخذلت الجهل

س كم عملاً للمواضع في الخطابة ؟

ج للمواضع عملان : الاول وهو الاصيل إثبات الخطيب لمقاله بالبرهان . والثاني توسيع المعاني بحسن البيان

البحث الاول

في المواضع الجدية الذاتية

س كم هي المواضع الجدلية الذاتية ؟

ج ثمانية وتقسم الى ثلاثة اقسام فمنها ما يبين الموضوع في نفسه وهي : الحدة . والتجزئة . ومنها ما يبينه في متعلقاته وهي : العلة والمعلول . والمقدمات والتوالي . والظروف .

ومنها ما يبينه بعرضه على سواء وذلك في المقابلة والمشابهة
(اطلب الجزء الأول ص ١٠٣ - ١١٨)

١ الحدّ

س ما هو الحدّ ؟

ج الحدّ في اللغة المنع . وفي الاصطلاح هو قول دالّ
على ماهية الشيء (١) . وقيل في تحديده انه القول الجامع المانع
اي تعريف الشيء بما يحيط بمعناه ويميزه عن كل ما سواه
كقولك في تحديد الله عز وجل انه الكائن القائم بذاته (اطلب الجزء
الأول ص ١٠٤)

س كم نوعاً الحدّ ؟

ج الحدّ نوعان حقيقي ورسمي

س ما هو الحدّ الحقيقي ؟

ج الحدّ الحقيقي ويُدعى ايضاً المنطقي هو عبارة عن
تعريف الشيء بجنسه وفصله القريبين (٢) كقولك في الانسان انه
« حيوان ناطق » . فالحيوان جنسٌ ينطوي تحته الانسان والبهيمة . والناطق
فصل يميّز نوع الانسان عن نوع البهيمة . والجنس والفصل قريبان اذ ليس
بينهما والانسان جنس وفصل آخران كما لو قلت ان الانسان جسمٌ حي لانّ

(١) تحديدات ابن سينا

(٢) تعريفات الجرجاني وكشّاف التهانوي

الجسم يتناول جنس الحيوان و جنس الجداد . والحى يتناول فصل الحيوان
وفضل النبات

(فائدة) . ان هذا التعريف الحقيقى اكثر استعماله فى المنطق وقلما
يُستعمل فى الخطابة

س ما هو الحدّ الرسمي

ج الحدّ الرسميّ هو تعريف الشئ بأوصافٍ تميزه عما
سواه . ولذلك يدعوهُ ايضاً بالقول الشارح كقول بعض القدماء
فى تعريف الانسان :

ليس لله تعالى خلق احسن من الانسان . فان الله تعالى ابدعه فى احسن تقويم
وهو اعتداله وتسوية اعضائه . لانه خلق كل شئ منكباً على وجهه وخلق الانسان
سويّاً . وله لسان ذلق ينطق به ويد واصابع يقبض بها . فهو اعدل الحيوان مزاجاً
واكملهُ فعلاً والطفهُ حساً وأنفذه رأياً . مؤدّب بالامر مهذب بالتمييز . فهو كالملك
المسلّط الفاهر لساثر الخليفة والامر لها . وذلك بما وهبه الله من العقل الذي به يتميّز
عن كل الحيوان البهيمى . فان الله كونه حياً عالماً قادراً متكلاً سميعاً بصيراً
مدبراً حكيماً وهذه صفات الربّ جلّ وعلا . فالانسان هو بالحقيقة ملك العالم
والذلك ساء قوم من الاقدمين العالم الاصف

س ما هي اساليب الحدّ الرسميّ ؟

ج اساليبه متعدّدة . فيعرّف المحدود أولاً بمفاعيله
ومعاولاته كقول احد الأدباء فى حدّ العقل :

العقل وزير يرشد وظهرير يُسعد . من اطاعه نجاهُ ومن عصاهُ ارداهُ . ان
انكسر صاحبه جبرهُ وان انصرع انسهُ . وان ذلّ اعزّه وان خاف امّهُ . وان
حزن افرحه وان تكلم صدقه . وان اقام بين ظهري قوم اغتبطوا به وان غاب
عنهم اسفوا عليه . وان بسط يده قالوا : جواد . وان قبضها قالوا : مقتصد

وثانياً بتعداد اقسامه وبيان انواعه كقول الحكمي في تعريف

الاخوان :

الاخوان ثلاثة : أخٌ يُخلص لك ودهُ . ويبذل لك رفتهُ . ويستفرغ في
مُهِمَّتِكَ جُهدهُ . واخٌ ذو نيَّةٍ يَقْتَصِرُ بك على حُسْنِ نِيَّتِهِ دون رفته ومعوته .
واخٌ يَتَمَلَّقُ لك بلسانه ويتشاغل عنك بشأنه ويُوسِعُك من كذبه وأمانه

وكقول الحسن بن عبدالله في تعريف الشاهين بوصف اتسام جسمه :
الشاهين طائر من الجوارح اجودهُ اسود الظهر غائر المينين حادَ النظر قصير
الظهر طويل الخوافي لطيف الذنب دقيقهُ بسيط الكفّ

وثالثاً بالكشف عن خواص الشيء او تعريف ظرفه

كقول ابن عمرو بن الشهيد في البعوضة :

البعوضة مالكة لا حسَّ لها سواها . تحقرها عين من رآها . تمثني الى الملك
بندجا . وتضرب في مجوحة داره بطلها . تؤذيه بإقبالها . وتعرفه باراقة دمها .
فتمجز كفه وترغم انفه وتضرج خدهُ تفري لحمه . زمجرها تسليمها . وريحها
خرطومها . تذلّل صمك ان كنت ذا قوّة وعزم . وتسفك دمك ان كنت ذا
حلقه وعسكري ضخم . تنقض الغزائم وهي منقوضة . وتُعجز القوي وهي بعوضة .
ليرينا الله عجائب قدرته . وضعفتنا عن ضعف خليقته

وكقول الآخر في تعريف الصداقة :

انّ الصداقة أولها السلامُ ومن بعد السلام طمأنٌ ثمّ ترحيبٌ
وبعد ذلك كلامٌ في ملاطفةٍ وضحكٌ ثمّ غفرٌ واحسانٌ وتقريبٌ

ورابعاً بالسلب والایجاب وذلك ان تنفي عن المحدود ما

لا يوافقهُ وتثبت بعد هذا النفي حقيقة كقول ابن الوردي :

ليس من يقطع طرفاً بطلاً انما من يتقي الله البطل

وكقول الآخر :

وليس اخوك الدائم العهد بالذي يذمك ان وتى وُبرضيك مُقبلا
ولكن اخوك النائي ما دمت آمناً وصاحبك الأدنى اذا الامرُ أَعْضلاً

وخامساً بالتشابه والامثال والاستعارات كقول ابن العربي
في تحديد الكتاب :

الكتاب ستانٌ يُحمَل في ردين وروضة تُنْقَل في حجرٍ ينطق عن الموتى
ويترجم عن الاحياء هو مسامرٌ مساعد ومحدث مطاوع وندمٌ صديق .

كتابي فيه ستاني وراحي ومنه سببرٌ نفسي والندمُ
يُساني وكلُّ الناس حربٌ ويسليني اذا عرتِ الصمومُ
ويُحيي لي تصفحُ صفحتيه كرامَ الناس ان فُقِدَ الكرمُ
اذا اعوجت علي طريق امري فلي فيه طريق مستقيم

اطلب ايضاً تعريف الدنيا بالتشابه لاحد الادباء في مجاني الادب
(ج ٢ ص ١٨) وراجع الجزء الاول من علم الادب (ص ١٠٤)

س ما هي مواطن الاستدلال بالحد ؟

ج يُستدلُّ بالحدّ كلما احتاج الخطيب الى اثبات قضية
انكرها الخصم او الى ايضاح حقيقة اشكلت على السامعين
او الى تقرير امر في اذهانهم بتعريف خواصه وبيان صفاته .
وذلك باحدى الطرق المذكورة سابقاً

(تنبيه) من شأن الخطيب اذا اراد تعريف الشيء ان يختار من
اوصافه ما يلائم غرضه ويوافق مقتضى الحال . فان اراد مثلاً ان ينتخب
سامعيه عن حرب مشؤمة وصف الحرب بأفاتها وبما تجلبه من الشرور على
الاطوان والاهلين . وبالعكس اذا اراد ان يسوقهم اليها عرفها بما يرغبهم

في مباشرتها كقولهِ بانها مدرسة الشجاعة ومظهرة التفاني والسبيل الوحيد الى قهر العدو والدفاع عن حوزة الوطن . . . الخ

ولك شواهد حسنة على ذلك في باب المناظرات في الجزء بن الخامس (ص ٩١) ^١ والسادس (ص ٦٢) من مجاني الادب وفي الفن الثالث من فنون الانشاء من الجزء الاول من علم الادب (ص ٢٤٠) فهناك عدّة امثال في تعريف امور متباينة بمصانها وسيئاتها كالسيف والقلم . والغربة والاقامة . والبرّ والبحر (اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٠)

٢ التجزئة

س ما التجزئة ؟

ج التجزئة تقسيم احد الكلّيات الى اجزائه . ويُحدّد الكلّي ما جمع في حكمه اجزاء شتّى (١) كالاجسام مثلاً تُقسم الى جماد ونبات وحيوان . والحياة تقسم الى طفولية وشبّية وكهولة وشيخوخة وكقول بعضهم :

العلوم اربعة : الفقه للاديان . والطبّ للابدان . والنجوم للازمان . والبلاغة لللسان

(راجع في الجزء الاول (ص ١٠٦) ما قيل عن البيان بالتجزئة

س كيف يُقنع الخطيب بالتجزئة ؟

ج يُقنع اوّلاً بان يثبت للكلّي ما قرّره لاجزائه كقول ابي العتاهية وهو يثبت ان الموت يُعمّ البشر ولا يردّ غارته احد :
ما يدفع الموت ارجاء ولا حرسُ ما يظلبُ الموت لاجنُّ ولا آنسُ

(١) اطلب رسالة الحدّ لابن سينا وتعريفات الجرجاني

ما ان دعا الموت املاكاً ولا سوقاً إِلَّا ثناهم اليه الصرعُ والحلَسُ
للموت ما تَلِدُ الاقوامُ كلهمُ وللبلِ كلُّ ما بنوا وما غرسوا

ثانياً بان ينفي عن الكلّي ما نفاهُ عن الاجزاء كما لو اراد ان
ينفي السعادة عموماً في الدنيا قسم مجموع الاشياء التي تفتن قلوب البشر اي
المال والجاه واللذات فنفي وجود السعادة في كل منها واستنتج ان لا
سعادة في الدنيا البتّة

ومثله قول القديس بولس اذ انكر وجود شيء من امور العالم
يستطيع ان يفصل الرجل البار عن محبة الله (رومية ٨: ٣٥):

من يفصلنا عن محبة الله أشدة ام ضيق ام جوع ام غري ام خطر ام اضطهاد ام
سيف . . . فاني كواثق بانه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوآت
ولا اشياء حاضرة ولا مستقبله ولا علو ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن
محبة الله

ثالثاً بان يقرّر لواحد او اكثر ما انكره لبقية اجزاء الكل.
مثاله ان تثبت لزيد جناية القتل بعد ان نفيتها عن غيره من المتهمين بها

رابعاً بان يقرّر لاجزاء الكل ما نفاهُ عن واحد او اكثر
كما لو بينت ان خطيئة آدم شملت كل نسله مطلقاً ألا البتول العذراء
وكقول سليمان النبي في سفر الجامعة ان كل شيء باطل ما خلا خدمة
الله فعُدّ كل اصناف اللذات وبين بطلانها مستثياً خدمة الله فقال :
باطل الاباطيل كل شيء باطل . . . اتق الله واحفظ وصاياه فان هذا هو الانسان
بكله

ومثله قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

(اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٧)

(افادة) . ربما اعتاص على الخطيب ان يستوفي كل اقسام الجزئي فيكفيه وقتنذ ذكر اهمّ الاجزاء التي عليها يُقاس الباقي منها
(افادة اخرى) اعلم انّ الخطيب كثيراً ما يقصد من التجزئة توسيع المعاني وحسن البيان والزيادة في الايضاح

٣ الجنس والنوع

س ما هو الجنس وما النوع ؟

ج الجنس كلي يدلّ على كثرة مختلفين بالانواع والنوع كلي يدلّ على كثرة مختلفين بالاشخاص (١) . مثاله الحيّ فانه جنس يدلّ على ثلاثة انواع اي النبات والحيوان والانسان . ويطلق عليها بمعنى واحد من حيث مبدأ حياتها . اما الانواع الثلاثة فان بعضها يختلف عن بعض بحقيقته وانما يدخل تحت حكم كل منها افراد وضروب متعددة مشتركة بجماعتها . فان اشكال النبات مثلاً على كثرتها لا تختلف في الماهية فالاشجار والبقول والمزروعات كلها اجسام حيّة نامية . وكذا ضروب البهائم من مواشي وسباع واسماك وطيور كلها اجسام حيّة نامية ذات حسّ وحركة لكنها تختلف نوعاً عن النبات بحسّها . ومثله قل عن الانسان الذي يُطلق على اشخاص متعددين لكن ماهيتهم واحدة فكل منهم جسم حيّ نامٍ ذو حسّ وحركة ناطق

(فائدة) هذا التعريف للجنس والنوع جاء في اصطلاح الفلاسفة الا انّ الخطباء يطلقون اسم الجنس على الامر العام سواء كان جنساً عند الفلاسفة او نوعاً فيقولون مثلاً ان الحرّ والعبد نوعان يشتركان في جنس

الانسانية . وان العدل والقناعة والمروءة تنطوي تحت جنس الفضيلة . مثال ذلك قول الخوارزمي يصف المحسنين اجمالاً كالجنس العام ثم ينتقل الى صنائع ابي نصر الميكالي شاكرًا له نعمه كالنوع الخاص :

المحسن الى الناس كلهم حبيبٌ . ومن القلوب كلها قريبٌ . يمدحونه وان لم يكن يحسن اليهم . ويشكرونه وان لم يفضل عليهم . كما ان السيئ في النفوس صغير . وان كثر مالا وحالا . وقبيح وان حسن زينا وجمالا . على هذا أسست البنية . وعليه وضعت الفطرة . وفيه اتفقت الخاصة والعامة . . . والشيخ على سبيل الكرام نهج . وعلى منوالهم نسج . فصنائه في قوالب الحمد والشكر . وعلى طريق الاجر والذخر . بلغني ما صنعه الشيخ مع فلان فما استكثرته قياساً على قدره العظيم . وبره الجسيم

س كم طريقة للاستدلال بالجنس والنوع في الخطابة ؟

ج لذلك طريقتان :

الاولى ان تُطلق حكماً على الجنس ثم تثبته للنوع كما لو اردت ان تبين ان القناعة محمودة فأثبت كون الفضيلة محمودة لان الفضيلة جنس يشمل نوع القناعة . ومثله قول ابن خلدون يصف فوائد العلوم العقلية اجمالاً ثم علم المنطق خصوصاً

ان العلوم العقلية كثيرة الفوائد بها يقف الانسان على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ويقتنص المطالب المجهولة ويستخرج المباحث الشريفة . ومن أجل هذه العلوم واجدها بالدراسة علم المنطق وهو يصمم عن الخطأ ويبين الصحيح من الفاسد في الحدود المرصدة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات . وهو اول العلوم الحكيمة وفاتحتها وسمي المعلم الاول

الثانية ان تنفي عن النوع ما تنفيه عن الجنس كقول ابي الغتاهية وقد بين كدورة العيش مجملًا ثم مفصلاً :

ما رأيتُ البش يصفو لأحدٍ دون كدٍ وعناءٍ ونكدٍ

ان للموت لهما قاتلاً ليس يقدي احداً منه احد
قد أرى ان لست في الدنيا ولو بقيت لي دائماً طول الامد
اني منها غداً مرتحلٌ او أراني راحلاً من بعد غد

س في اي قسم من الخطبة يُذكر الجنس والنوع ؟

ج قال ابن سينا : جملة ما يقال في ذلك ان الخطباء قد
اعتادوا ان يأتوا في صدر خطبهم بنظر عام في مقصدهم تأسيساً
لما يأتون في خطابهم . لان كل خطاب لا بُدَّ له من فرش يكون
له بمنزلة الاساس من البنيان كقائه الاندلس لابن البقاء الزندي
(المجاني الخامس ص ٢٤٥-٢٥٧) فانه باشر بذكر بلایا الدهر ونكباته ثم
انتقل الى وصف الخطب الذي حلَّ بالاندلس :

لكل شيء اذا ما تم نقصانٌ فلا يُغزُّ بطيب العيش انسانٌ . . .
وللحوادث سلوانٌ يسهلها وما لا حلَّ بالاسلام سلوانٌ . . .

ومثله قول ابن اذينة يغري ملك الحيرة على قتل بني غسان (المجاني
السادس ص ٣٩) فانه بيّن عموماً وجوب انتهاز الفرص ثم انتقل الى
تحريض الملك على قتل الاسرى الذين دفعتهم الحرب الى يده

(اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٣٦)

(فائدة) اعلم ان ما قلناه آنفاً عن الجنس والنوع يصح قوله ايضاً في
النوع وافراده كما لو حاولت ان تنفي دوام السعادة عن انسان خاص
فانفيها عن الجنس البشري عموماً تنفيها بالفعل عن ذاك الانسان . ومن ثم
يجوز القول ان طريقة الاستدلال بالجنس والنوع مرجعها الى الاستدلال
بالعام والخاص او الكلّي والجزي . الا انك في التجزئة تبتدي باثبات
الحكم للجزي ثم تثبته للكلّي كقولك زيد وعمرو وابراهيم . . . الخ

ماتوا فالكل يموتون . امّا الاستدلال بالجنس والنوع فعلى خلاف ذلك يُقرر الحكم للكمّي فيستتبع وجوبه على الجزئي . وهذه الطريقة كثيرة الاستعمال في الخطابة

ولك على ذلك شاهد جليل في رسالة القديس بولس الى العبرانيين (الفصل ١١) قاضه بعد قوله انّ الابرار يقيمون بالايمان وان الانسان دون الايمان لا يستطيع ان يرضي الله تتبّع سلسلة الاباء والانبياء فرداً فرداً واثبت فيهم حياة الايمان والحظوة بها لدى الله

(فائدة اخرى) وهناك طريقة اخرى في استعمال الجنس والنوع او بالحري العام والخاص . وهي ان تبدأ بذكر الخاص واثبات الحكم عليه ثم تتوسع في الكلام فتثبت الحكم نفسه للعام . مثال ذلك انك مدحت شاعراً لبلاغته وحسن وقع كلامه في النفوس وباقى مزاياه الشعرية فاذا توسّعت في الكلام ومدحت الشعر عموماً انتقلت من الخاص الى العام . وكذلك اذا شكرت البارئ تعالى على منة خصوصية نلتها من مراحمه ثم ارتفعت وشكرته على جوده الغير المتناهي انتقلت من الخاص الى العام . على ان هذه الطريقة لا تُعدّ كطريقة استدلال اي كوسيلة لاقامة البرهان على صحّة امر انما هي اسلوب للتوسيع وضرب من التصرف في نظم الكلام يجديهِ حسناً مفيداً لبلوغ المرام

٤ العلة والمعلول

س ما العلة والمعلول ؟

ج العلة ما يحتاج اليه الشيء في وجوده . والمعلول ما صدر عن العلة كاشعاع بالنسبة الى الشمس فانه المعلول وهي العلة

س كم نوعاً العلة ؟

ج العلة على اربعة انواع : ١ العلة الفاعلية وهي المؤثرة في المعلول الموجدة له كالبناء بالنسبة الى الدار . ٢ العلة الغائية وهي ما كان لاجلها المعلول كسكنى الدار هي الغاية من تشييدها ٣ العلة المادية وهي ما تألفت منه اجزاء الشيء كالحجارة والخشب في بناء الدار . ٤ العلة الصورية وهي ما قامت به ماهية الشيء كصورة الدار المميزة لها عن سواها من المساكن كالقصر والخان والكوخ والخيمة

(اطلب الجزء الاول من علم الادب ص ١٠٧-١١٠)

س هل لبيان العلل موقع في الخطابة ؟

ج نعم لبيان العلل وقع عظيم في الخطابة لان الاقناع يتوقف عليها في الغالب . والسامع لا يرضى بقول الخطيب ما لم يسند مقاله الى العلل المؤيدة لدعواه

س اورد مثلاً عن كل علة من هذه العلل ؟

ج ١ العلة الفاعلية تجد امثلة عنها غاية في الحسن في مزامير داود الاربعة (١٠٣-١٠٦) حيث عدد النبي عجائب الله في الطبيعة وتتبع صنائعه نحو شعبه اسرائيل مستنتجاً من ذلك وجوب عبادة الانسان لخالقه وشكر اسرائيل لربه

ومن ذلك قول الشيخ زكريا بن عدي يبين فيه ان القوة الشهوانية

هي علّة اعمال الانسان فتسوقه الى الخير او الشرّ على . تنتضى تهذيبها

ان العلّة الموجهة لاختلاف عادات الناس في شهورهم ولذاتهم وعفة بعضهم وفجور بعضهم هو اختلاف احوال القوة الشهوانية . فانها اذا كانت مذبذبة مؤدبة كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه . واذا كانت دهننة مالكة لصاحبها كان فاجراً شريراً . واذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبتو في التأدب . ولهذا وجب على الانسان ان يقهر قوته الشهوانية ويهذبها حتى تصير منقادة له ويكون هو مالكا فيستعملها بالتأدب ويكفها عما لا حاجة به اليه من الشهوات الرديئة والمذات الفاحشة

٢ العلّة الغائية . قال الشيخ جمال الدين الافغاني مبيناً وجوب

العدول عن مذهب الدهريين لما يتصدونّه من الغايات السيئة :

هؤلاء جحّدة الألوهية - في أيّ امة وبأيّ لون ظهروا - كانوا يسمعون ولا يزالون يسمعون لقلم اساس قصر السعادة الانسانية . انما صير افكارهم تُدكدك هذا البناء الرفيع وتلقي بهذا النوع الضعيف الى عراء الشقاء وتخط به من عرش المدنية الانسانية الى ارض الوحشية الحيوانية . . . ذهبوا الى انه لا حياة للانسان بعد هذه الحياة وانه لا يختلف عن النباتات الارضية تنبت في الربيع مثلاً وتيس في الصيف ثم تعود تراباً والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية . وهذا الراي الفاسد اطلقوا النفوس من قيد التأثم ودفعوها الى انواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض وبيّسروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع في كل رذيلة واعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري واعدموها الرغبة في كشف الحقائق وتعرف اسرار الطبيعة

٣ العلّة الصورية . مثالها قول الشيخ يحيى بن عدي حيث اثبت

انّ ما يمتاز به الانسان عن سواه انما هو عقله وقوته الناطقة ليستنتج من ذلك انه يُقضى على المرء الاهتمام به ومراعاته

هذه القوة الناطقة التي بها يتميز الانسان عن جميع الحيوان وهي التي يكون بها الفكر والذكر والتمييز والعلم والتي بها تُشرف الانسان وعظمت همته فيُعجب بنفسه . والتي بها يستحسن المحاسن ويستقبح القبايح وبها يمكنه ان يجذب قوّته

الباقيتين اعني الشهوانية والغضبية ويضبطهما ويكفهما . وبما يفكر في عواقب الامر فيبادر الى استدراكها من اوائلها . فن اجل ذلك وجب ان يعمل الانسان فكره ويهذب عقله ويبرز اخلاقه ويختار منها ما كان مستحسناً جميلاً وينكر ما كان مستنكراً قبيحاً ويحمل نفسه على التشبه بالاخيار ويتجنب كل التجنب عادات الاشرار . فانه اذا فعل ذلك صار بالانسانية متحققاً وللرئاسة الذاتية مستحقاً

٤ العلة المادية . وصف القزويني جسم الانسان وتركيبه

العجيب فاستنتج من ذلك الوجوب على البشر ان يعرفوا خالقهم ويشكروا صنيعه اليهم :

ان في بنية الانسان واختلاف اعضائه وتركيبها من العجائب ما تحير فيه عقول الاولين والآخرين وقصر عن ادراكها فهم الخلق اجمعين . فلكثرة ما فيها من العجائب قد قيل : ان من عرف نفسه فقد عرف ربه . ومعناه ان من عرف ما في هذه البنية العجيبة والهيئة البديعة من اتقان صنعتها مع صغر حجمها والجمع بين الاشياء المتضادة كروح ساوي وبدن غصري وتأليف بين حار وبارد وباس . وكيف تتحرك من مبدأ واحد نحو غاية واحدة وكيف جعلت الاعصاب والرباطات تنتهي من بعض العظام الى بعض لتربطها وتشدها . وجعل الشرايين والأوردة جداول تحمل الغذاء الى سائر الاعضاء وتدفع الروح الحيواني مع الدم الذي هو مادة غذائه كالريت للمصباح الى سائر البدن . ثم كيف ينسبط انشاء والجلد على سطح الاعضاء ويجوها كاللغائف وبصير لها حافظاً يحفظ جواهرها واشكالها عما يطرأ عليها . علم الانسان بذلك ان لها خالقاً قادراً عليها حكيماً وتنبه في ذاته من آثار قدرة الله تعالى ولفائق حكمته فيعرف انعامه ويدعوه ذلك الى الشكر والثناء عليه

وان شئت مثلاً يجمع العلل الاربع تجده في الفصل السادس من نبوة باروك وفيه يبين النبي بطلان عبادة الاوثان بتفنن عجيب ليعبد بني اسرائيل عن الشرك . فأنكر عليها الألوهية من حيث مادتها التي تتركب منها الاصنام ومن حيث صنعتها الذين نحتوها وصوروها ومن حيث خواصها الباطلة التي ليست على شيء من كمالات اللاهوت كالضعف والعقاقة

والجمود والصَّمَم ومن حيث غايات مصطنعها اي الطمع والريح الخسيس من عبدتها . الى ان ختم كلامه بقوله :

فاذ قد علمتم انما ليست آلهة فلا تخافوها فاتها لا تلعن الملوك ولا تباركهم ولا تبدي آيات من الامم ولا في السماء ولا تنير كالشمس ولا تضي كالقمر .
الوحوش خير منها . . . وبالجمله فلا يتبين لنا بوجه من الوجوه انها آلهة فلا تخافوها

س كيف يتم الاستدلال بالمعلول ؟

ج مرّ بك ان احدى الطرق المعهودة لتعريف الشيء ذكر مفاعيله لان جواهر الامور خفية وانما تظهر بمعلولاتها .
فان اردت ان تثبت حكماً لامر ما او تنفيه عنه فعدّد مفاعيله الحسنة او السيئة التي يُستدلّ منها على صلاح علّتها او فسادها اذ لا شيء في المعلولات الا وهو في عللها ثم اُبنِ حكمك على مقتضى ذلك اترغب الجمهور فيها او لردّه عنها . كقول اي
الحليم ابن الحديثي يحضّ الناس على الصوم بذكر مفاعيله المشكورة :

الصوم مفتاح السعادة ، الصوم مصباح العبادة ، الصوم مقدر الرّهادة ، الصوم يطهر النفس ، الصوم يزكي الحس . الصوم يظهر القدس . الصوم يبعد الشر . الصوم يغني الكثير . الصوم يحسن الذكر . الصوم يطفى شهوات الجسد . الصوم يحلّل من الخلد العُقد . الصوم يدحض الشر ويبيد الحسد . الصوم يعلي الرتبة في ملكوت السماء . . . الصوم نور التّقى وعمار الرّهادة . بالصوم تبلغ النفس الإرادة . الصوم يشحذ اللب ويثبت العلم . الصوم يزكي القلب ويطهر الجسم . الصوم يصفّي الذهن ويريد الفهم

وكذلك ارميا النبي (ف ٦٢) سعى برّد الشعب عن المهاجرة الى مصر بتعداد ما سيلقاها هناك من اصناف الرزايا :

هكذا قال رب الجنود إله اسرائيل إن ثبتتم وجوهكم لنذهبوا الى مصر
وذهبتم لتتغربوا هناك فالسيف الذي تخافون منه يدرككم هناك في ارض مصر
والجوع الذي تخشون منه يمتقبكم هناك في مصر وهناك تموتون . وجميع الناس
الذين تبذتوا وجوههم لينطلقوا الى مصر ويتغربوا هناك يموتون بالسيف والجوع
والوباء ولا يبقى لهم شريد ولا مفلت من الشر الذي أجلبه عليهم . . . فلا تنطلقوا
الى مصر واعلموا يقيناً اني قد انذرتكم اليوم
(اطلب مقالات علم الادب ج ٢ ص ٢٧)

٥ المقدمات والتوالي

س ما هي المقدمات والتوالي ؟

ج المقدمات ما سبق المقصود والتوالي ما عقبه ولحق
به . ولا بُد لكليهما من علاقة لازمة مع المقصود

س ما الفرق بين المقدمات والتوالي وبين العلة والمعلول ؟

ج الفرق بينها ان علاقة العلة والمعلول مع المقصود
علاقة طبيعية واجبة . اما المقدمات والتوالي فانها تلزم المقصود
لزوماً ادبياً صادراً في الغالب عن اصطلاحات البشر وسُنَنهم
المألوفة واخلاقهم المتغلبة عليهم . ومن ثم تكون العالُ مقدمات
والمعلولات توالي ولا تُعكس . مثاله التمييز في الانسان الذي يتبع
سن الطفولية فينبهما علاقة اللاحق بالسابق ليست علاقة المعلول بالعلّة . ومثله
ما يرافق المهاجرة من ربح او خسران من نصيب صالح او حظ مشنوم

س كيف يكون الاستدلال بالمقدمات والتوالي ؟

ج لما كانت علاقة المقدمات بالتوالي علاقة لازمة

امكنك اثبات المقصود بتعداد ما سبقه من المقدمات وما لحقه من التوالي فتبين ما بينه وبينهما من الروابط . فان اردت مثلاً ان توجب السرقة على انسان امكنك ان تثبت ذلك بما تقدم العمل من استخفاء السارق وتجنسه للمسروق ومن سوابق المتهم ومن اغتنامه بعد فقر وغير ذلك مما يتقدم او يتلو جناية السرقة

ومن الامثلة الحسنة على ذلك خطبة بولس الرسول امام فيلكس الوالي يبرى نفسه من تهمة اليهود بانتهاكه لحرمه هيكل اورشليم نافياً عنه بالسوابق والواحق شكواهم عليه بتدنيس قداسة الهيكل (اعمال الرسل ف ٢٤) :

اجاب بولس بعد ان اوماً اليه (فيلكس) الوالي ان يتكلم : « بما افي اعلم انك قاض لهذه الامة (اي اليهود) منذ سنين كثيرة فطبيب خاطر اُجيب عن نفسي . انه يمكنك ان تعلم ان ليس لي أكثر من اثني عشر يوماً منذ صعدت الى اورشليم للعبادة . ولم يجدوني في الهيكل اُفاوض احداً ولا اُهيّج الجمع لا في المجامع ولا في المدينة . ولا يستطيعون ان يبرهنوا على ما يشكونني به الآن . ولكنني اقر لك اني بحسب الطريقة التي يسمونها شيعه أعبدُ إله آبائي مؤمناً بكل ما كتُب في الناموس والانبياء . ومؤملاً من الله ما ينتظرونه هم ايضاً انما سوف تكون قيامة للاموات الابرار منهم والأئمة . ولهذا أدرب نفسي ليكون لي دائماً ضميرٌ لا عثار به امام الله والناس . وبعد سنين كثيرة جئتُ لاصنع صدقات لآمتي وأقدم قربابين . فلي هذا وجدني قومٌ من اليهود من آسية متطهراً في الهيكل لا مع جمعٍ ولا في فتنه . وكان يجب عليهم ان يحضروا لديك ويشكوا ان كان لهم عليّ شيء . او ليقبل هؤلاء ماذا وجدوا في من اثمٍ وأنا قائمٌ أمام المحفل . سوى هذا القول وحده الذي صحت به لما وقفتُ بهم » إني على قيامة الاموات أحاكم منكم اليوم »

(تنبيه) كثيراً ما يقيم الخطباء حججهم بالمقدمات والتوالي ويدمجونها بالعلل والمعلولات لاتفاق البابين بالعلاقة مع القضية

٦ الظروف

س ما هي الظروف ؟

ج هي العوارض الطارئة على الامر المقصود فتكيفية بكيفيةها وتخرجه عن هيئته ونوعه وان لم تكن من جوهره وحقيقته . مثال ذلك حادث قتل فانه لم يتم الا في زمن ومكان محصورين وبهيئة معلومة ولغاية محدودة وعن اشخاص معروفين . فالزمن والمكان والهيئة والغاية وصفات الاشخاص كلها ظروف خارجة عن الامر لا تمس جوهره لانها تتغير والقتل يبقى قتلاً . لكنها تغير صورته وتخرجه من نوع الى نوع فيكون القتل اماً تعدياً وهو مذموم واما ردأ لكيد ظالم وهو مشكور . وان صدر من زيد الفاضل فيكون شهامة وان اقتدفه عمرو الشرير فهو جيمة وهلم جرا

(فائدة) اعلم ان الظروف من اوسع مصادر البرهان في الخطابة منها يستعير الخطيب ما يتصرف به في وجوه الكلام وبها يرقق التحيل لبلوغ غرضه من اثبات قضية او نفيها ومن مغالطة خصم وتصغير جناية وتعظيم منكر

س ما هي اخص الظروف ؟

ج الظروف تعود الى ثلاثة ابواب :
اولاً الاشخاص الذين لهم علاقة بالامر
ثانياً الاحوال المتعلقة بذات العمل

ثالثاً عوارض الزمان والمكان اللذين فيهما حدث الامر
وهذه الظروف محصورة في بيت لاحد الشعراء :

فَمَنْ وَمَا اَيْنَ بِمَاذَا كَمْ لِمَا كَيْفَ مَتَى تَأْتِي جَا مَسْتَفْهَمَا

فان (مَنْ) تدلّ على الاشخاص كالفاعل والشاهد والاعوان وما
يتعلّق بجنسهم وصفاتهم وخصالهم من صورة وزيّ وسنّ وآداب . و (ما)
يُراد بها الفعل او القضية التي عليها بُني الكلام . و (اَيْنَ) تدلّ على
مكان الصنيع أفي خلوةٍ او علناً أفي دارٍ او في ساحة . و (بِمَاذَا) تدلّ
على الوسائل التي استعان بها الفاعل لانفاذ مقصوده كالعدّد والاسلحة
والمشورة والاعزاء على العمل . و (كَمْ) وُضعت لتعريف كميّة الشيء
وتعدّده . و (لِمَ) يراد بها الغاية والدواعي الى العمل . و (كَيْفَ)
تبين نوع العمل وسياقه وهيئته . و (مَتَى) تدلّ على زمان العمل من
نهار او ليل او يوم عيد النحر . وقد جمع قسمًا كبيرًا من هذه الظروف
يحيى بن معاذ في وصف العابد المخلص المتعبد لربّه :

صاحبُ الحبِّ حزينٌ قلبُهُ	دائمُ الفصّةِ مهجومٌ دَنَفُ
همّةٌ في الله لا في غيره	ذاهبُ العقل وبالله كَلَفُ
اشعثُ الرأسِ خميصٌ بطنُهُ	اصفرُ الوجنة والطَّرْفُ ذَرْفُ
دائمُ التذكّار من حبِّ الذي	حَنُّ غايّةُ غاياتِ الشَّرَفُ
فاذا أَمِنَ في الحبِّ لَهُ	وعلاهُ الشوقُ من داءِ كُشْفُ
باشِرُ المحرابِ يشكو بَثُّهُ	وامامُ الله مولاهُ وَقْفُ
قائمًا قَدَامَهُ منتصبًا	لهجًا يتلو آياتِ الصَّحْفُ
راكعًا طورًا وطورًا ساجدًا	باكبًا والدمع في الارض يكِفُ
ورد الحقّ على القلب الذي	فيه حبّ الله حقًّا فَعْرِفُ

ومثله لابي الحليم يذكّر ظروف ميلاد يوحنا المعمدان فيستنتج منها
عظم شأن المولود :

فبينما زكرياء مكهنٌ في رتبة خدمته . يوم عيد الغفران امام الله على عادته .
وآن له وضع البخور على المبخر . وقد تجلبب من ملابس الكهنوت بالحلل القواخر .
ظهر له ملاك الرب مجلداً بالنور . قائماً بالمنظر البهي على عين مذبج البخور . فأذهل
رويةً زكرياء رؤاؤه . وارتعجت لروية شخصه المخوف فكرته وآراؤه . واشتمل
الخوف على قلبه وتغشاه . ووهت لهيبه منظره الملكي منته وقواه . رأى المذبج
القدسي مملوءاً بوميض بريقه . وهو مقمصٌ بالنور من قدمه الى فرقته . يلمح رونق
الملكوت على شخصه الوضي . وطلاوة مجد اللاهوت تلمع من وجهه المضي . قد ضمَّ
الوقار على هيئته . وقدحت الانوار من هيئته . غشيتُه المخاوف من منظره العجيب .
تراعدت فرائضه من روعة شخصه المهيّب . قال في نفسه : مَنْ عساه ان يكون
هذا . وآنى تهجّم على المذبج القدسي ولماذا . وكيف اقدم على دوس هذه الاعتاب .
ولم يخش وصمة اللوم وعار العتاب . فلما رآه واقفاً على قدم الحبرة . قد تلاطمت
به امواج الجزع والغيرة . قال له : لا تخش يا زكرياء ولا تحف . فأنى مهد اليك
سني البشائر والاطاف التحف . وذاك انّ مسموع دعائك وصلاتك . قدّم الى الله
على اعضاء برك وصلاتك . فانّ الرب بوأك من رب الاختصاص منزلة زلّفى .
وخصك من لطائف الآلاء بالسهم الأوفر والنصيب الاوفى . وستلد لك زوجتك
اليشع ابناً . يكون عظيماً امام الرب ويدعى بالإيمان الالهى يوحنا

س كيف تكون الحاجة بالمقدمات والتوالي والظروف ؟

ج ان اتخذتها لبيان قضيتك فبين لزومها للمقصود
وعلاقتها به . وعلى عكس ذلك ان شئت ابطال حجة المناظر
فامّا ان تنكر وقوعها او تنفي علاقتها بالامر المقصود او تقابلها
بظروف أخرى مخالفة لها من يفة لدعوى المناظر

(تنبيه) ان الخطيب في كثير من كلامه لا يقصد من تعداد
الظروف وايراد سوابق الامر ولواحقه سوى تبيان قضيته وتبجيتها في ذهن
السامعين دون ان يتخذ منها برهاناً لاثبات الحكم او نفيه

٧ المقابلة

س ما هي المقابلة ؟

ج المقابلة في اصطلاح الحكماء هي امتناع وجود شيئين في موضوع واحد من جهة واحدة . ويدعونها ايضاً التقابل (١) كالجهل والعلم . والبرّ والعقوق . والزهد والطمع . فانها صفات تتنافى في موضوع واحد من جهة واحدة . فان كان زيد مثلاً برّاً بابيه فيُنكَر عقوقه له وان كان يجهل علم النجوم فليس هو عالماً بالفلكيّات الخ

س هل للمقابلة عمل في الاقتناع ؟

ج عَمَلُهَا رَحْبُ الْفَنَاءِ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا مَا عُرِضَ عَلَى تَقْيِضِهِ ازْدَادَ جَلَاءً وَيَبَازًا قَالَ الشَّاعِرُ :

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسُنَا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِّدِّ

(فائدة) انّ المقابلة تأتي لحسن البيان وتوسيع المعاني ومن هذا الوجه هي احدى محسنات الكلام ومرجعها الى علم الانشاء . . وتكون ايضاً لاقامة الحجّة واتخاذ الدليل وهو المبحوث عنه هنا خصوصاً

س على كم وجه يكون الاحتجاج بالمقابلة ؟

ج على ثلاثة اوجه :

أولاً بان تثبت احد المتقابلين فتنفى الآخر كقول علي بن ابي طالب يُبْطَلُ زَعْمُ قَرِيْشٍ فِي جِهْلِهِ لَامُورِ الْحَرْبِ :

قالت قرّيش : انّ ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله ابوم وهل منهم احد اشد لها مراساً واطول تجربة مني لقد مارسناها وانا ابن عشرين وها انا ذا قد نيفت على الستين

ثانياً بان تنفي احد المتقابلين فيثبت الآخر . كقول الشاعر
ينفي الحكمة عن المرء الملازم لهواه :

وكيف تريد ان تدعى حكيماً وانت لكل ما تحوى تبوع ؟

(تنبيه) ويشترط في هذا الباب ان يكون المتقابلان متنافيين لا توسط بينهما والا كان البرهان فاسداً فلا يصح مثلاً قولك : لم يقتل زيد اباه اذن كان برّاً به

ثالثاً بان تستنتج من متقابلين نتيجتين متباينتين . مثاله
مقابلة الطرطوشي بين عدل السلطان وجوره (مجاني الادب ٢ ص ١٠٣
عدد ١٤٦) فبيّن ان عدله اصل كل خير لرعيته ثم استنتج ان جوره وهو
عكس العدل مصدر كل شرّ لدولته

٨ التشابه

س ما هو التشابه ؟

ج هو عرض امرٍ على آخر ليُتخذ منه دليل على المقصود .
فان قلت مثلاً انّ حياة الانسان كسجاجة استدلت بذلك على فناها
وزوالها . ومنه قولك : كيف لا تموت انت وقد مات الانبياء والسلطين ؟

س كيف تكون المحااجة بالتشابه

ج بان تستنتج صحّة امرٍ او فسادهُ من صحّة او فساد
امرٍ آخر يشبههُ . وذلك يكون على ثلاثة اوجه :

الاول ان تعرض المقصود على ما هو اكبر او اكثر فتستدل
به على صحة ما هو اصغر او اقل كقول ابي عبيدة يدعو اهل الشام
الى فتح مدينتهم للعرب :

لا يفرنكم عظم مدينتكم . وتشبيد بنيانكم . وكثرة زادكم . وهول اجسامكم .
فاننا نزلنا بلاداً اخصب من بلادكم . وفتحنا امصاراً محصرة . ومدائن احز من
مدينتكم . وخرج علينا علاج موفورة اقواتهم . مدرعون مترسون لا يقرؤ لوجههم
قرار . فصلد نجمهم . وذهب امامنا ريحهم . ورددناهم على الاعقاب لا يلوي آخرهم
على اولهم

فؤداه انه لم يثبت امامنا من كان اقوى منكم فلا بُدَّ ان ينالكم
العجز وانتم اقصر باعاً

ومنه قول الرب لتلاميذه بعد غسل ارجلهم (يوحنا ف ١٣) :
انتم تدعوني معلماً ورباً وحسناً تقولون لاني كذلك . فان كنت انا الرب
والمعلم قد غسلت ارجلكم فيجب عليكم انتم ان يغسل بعضكم ارجل بعض . . .
الحق الحق اقول لكم : ليس عبدٌ اعظم من سيده ولا رسولٌ اعظم من مرسله

وكقوله تعالى للعبد الذي رحمه في الكثير فلم يرحم رفيقه في القليل
(متى ف ١٨) :

اتما العبد الشرير كل ما كان لي عليك تركته لك لانك سالتني افا كان ينبغي
لك ان ترحم رفيقك كما رحمتك انا ؟

الثاني ان تستدل على صحة امر اعظم بعد ان اثبت صحة
في ما هو اذق واصغر . كقول الغزالي يثبت انه لا عجب من قصور
الانسان عن ادراك كمالاته تعالى اذ لا يدرك الحقائق الطبيعية نفسها وهي
اقرب منه :

انت لا تعرف اباك ولم تذر من انت ولا كيف الوصول
ابن منك الروح في جوهرها هل تراها او ترى كيف تجول

أنت أكلَ الخبزَ لا تعرفهُ كيف يجري فيك ام كيف يَجُولُ
فاذا كانت طوابك التي بين جنبتيك بها انت جَهُولُ
كيف تدري من على العرش استوى لا تَقُلْ كيف استوى كيف الوصولُ

اطلب الباقي في مجاني الادب (ج ٤ ع ٤) . ومثله قول الرب لمن
يبالغ بالاهتمام في امور دنياه (لوقا ف ١٢) :

تأملوا الزنايق كيف تنمو . انها لا تنزل ولا تنسجُ وانا اقول لكم ان سليمان في
كل مجده لم يلبس كواحدة منها . فاذا كان المشبُ الذي يوحد اليوم في الحقل وفي
غديرٍ يطرح في التثبور يلبسه الله هكذا فكم بالاحرى بالسيك يا قليلي الايمان ؟

الثالث ان يعرض المقصود على ما يشبهه بالمساواة . كقول
على ابن ابي طالب في معاملة القريب كعاملة الانسان لنفسه :

اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك . فأحبيب لغيرك ما تحب لنفسك
واكره له ما تكره لها . ولا تظلم . وأحسن كما تحب ان يُحسن اليك واستقبح
من نفسك ما تستقبح من غيرك . وارض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك . ولا
تقل لهم ما لا تحب ان يقال لك

وكقول اسماعيل المقري في من يطمع برحمة الله دون توبة وهو لا
يطلب الرزق بغير سعي :

تقول مع العصيان ربّي غافرٌ صدقت ولكن غافرٌ المشيئة
وربك رزاقٌ كما هو غافرٌ فلم لم تُصدق فيها بالسويّة ؟
فكيف ترجي العفو من غير توبة ولست ترجي الرزق الا بمجيلة ؟

(فائدة اولى) ان التشابه التي مرّ فيها الكلام في الجزء الاول
(ص ٥٨ - ٦٩) وان كانت الغاية منها حسن البيان الا انها تأتي ايضاً
للاتقناع وكثيراً ما يستدل بها الخطباء . لاغراضهم . كقول الشاعر مشبهاً
سرعة زول الدنيا بالحلم :

ألا إنّما الدنيا كاحلام نائم وما خيرُ عيسٍ لا يكون بدائم ؟
تأمل اذا ما نلت بالامس لذّة فافتيها هل انت الا كحالم ؟

وكقول الحسن بن عبد الله في مصاحبة الملوك :

ان الملك كالحلح الشامخ فيه الثار والانتصار والوحش والسباع والاختار .
فالوصول اليه صعب لصعوبته والمقام فيه خطر كثير المعاطب وخيم الواقب

(فائدة ثانية) وكذلك ضربُ الامثال (الجزء الاول ١٧٨) لاسيا
الامثال عن السنة الحيوانات وغيرها (الجزء الاول ٢٠٩-٢٢٣) فأنها
تأتي ايضاً للاقتناع وان كانت من فنون الانشاء واساليب الكتابة . ومن
حسن الشواهد في هذا الباب قول عبد الملك بن مروان وكان حجاج في
بعض الاعوام وامر للناس بالعطاء فابى اهل المدينة قبول ما اعطى مستقلين
عطاءه فرقي المنبر وخطبهم وقال في اثناء ما قال :

يا معشر قريش متلنا ومثلكم ما قيل : ان اخوين خرجا في الجاهلية مسافرين
فتزلا في ظل شجرة تحت صفاء فلما دما الرواح خرجت اليها من تحت الصفا حية
تحمل ديناراً فالتقتة اليها فقالا : ان هذا لمن كنز . فاقاما عليها ثلاثة ايام كل يوم
تخرج اليها بدينار فقال احدهما لصاحبه : الى متى ننتظر هذه الحية ألا نقتلها
فنحفر هذا الكبر فنأخذها . فنهاه اخوه وقال له : ما تدري لعلك تطب ولا تدرك
المال . فابى عليه ثم اخذ فاساً معه ورصد الحية حتى خرجت فصرها ضربة جرحت
رأسها ولم يقتلها فثارت الحية فقتلتها ورجعت الى وكرها . فقام اخوه فدفعه حتى
اذا كان من الغد خرجت الحية مصوبة رأسها ليس معها شيء فقال لها : يا هذه اني
حقاً ما رضيت ما اصابك ولقد نهيته اخي عن ذلك فهل لك ان نجعل الله بيننا
لا تضربيني ولا اضرك وترجميني الى ما كنت عليه . قالت الحية : لا . قال : ولم
ذلك . قالت : اني لأعلم ان نفسك لا تطيب لي ابداً وانت ترى قبراخيك ونفسي لا
تطيب لك ابداً وانا اذكر هذه الشجة . (وانشدهم شعر النابغة في ذلك وختمته) :

فقلت ارى قبراً تراه مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاغره

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب كان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم فسمعتم له
وأطعتم . ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ليناً كريماً فعدوتم عليه فقتلتموه . وبعثنا اليكم
مسلماً يوم الحرّة فقتلتموه . فنحن نعلم يا معشر قريش انكم لا تحبوننا ابداً وانتم
تذكرون يوم الحرّة ونحن لا نجبكم ابداً ونحن نذكر مقتل عثمان (للمعودي)

فهذا المثل قد ضرب على صورة أخرى في الجزء الأول (ص ٢١٤)
وأنما كرمناه هنا على هذه الصورة ليرى طالب الخطابة كيف تتخذ الامثال
لنيل المقصود في الاحتجاج . ومثله المثل الذي ضربه ناتان للنبي داود بعد
خطيئته (فيه ص ٢١٩) فهد به السبيل لتوبيخه على اثمه وحضه على التوبة

البحث الثاني

في المواضع الجدية العرضية

س ما هي المواضع الجدلية العرضية ؟

ج هي مصادر للدلالة خارجة عن الموضوع يحتاج بها
الخطيب لاثبات قضيته

س أتي تستفاد هذه الادلة ؟

ج من التقاليد

س ما هو التقليد ؟

ج هو عبارة عن اتباع الانسان غيره فيما يقول او يفعل
معتقداً للحقيقة فيه من غير نظر الى دليل (١)

فقوله « فيما يقول او يفعل » لأن التقليد على وجهين : الأول الاخذ
باقوال الغير وكلاستشهاد بمثل سائر او قول بعض الكتبة . والثاني
الاقتداء بافعالهم كاستشهادك بعمل جميل اتاه احد الابطال . امأ قوله
« من غير نظر الى دليل » فيراد به ان المتبع للتقليد باستشهاده لكلام

(١) شرح الحسامي وتعريفات الجرجاني . قالوا : انما دعي التقليد بذلك كأن
المتبع يحمل قول الغير او فعله قلادة في عنقه

غيره او يذكره اعمالهم يستغني عن اثبات صحّة هذا القول لعظم رتبة قائله
او لحسن ذلك الفعل ومقام فاعله

س كم صنفاً التقاليد بالنسبة الى اصلها ؟

ج هي امّا الهيّة وامّا بشرية

س ما التقاليد الالهية ؟

ج هي الكتب المنزلة والاسفار الموحاة التي يرجع اليها
الخطيب لقيام حجّته

س كيف يُستدلّ بالتقاليد الالهية ؟

ج الاستدلال بها ان تأتي بآيات الوحي الموافقة
لقضيتك. فان كلام الله من اقوى اسباب الاقناع اذ هو صادر
عن منبع الصدق ومصدر الحقّ الذي لا يَغش ولا يُغش .
فعلى هذا المتوال اعلن القديس بولس في أوّل رسالته الى العبرانيين لاهوت
السيد المسيح « ضياء مجد ابيه وصورة جوهريه » وكذا اثبت بعض
الاقدمين مجيئ المخلص مستنداً الى نبوة يعقوب لابنه يهوذا في سفر
التكوين (١٠ : ٤٩) :

وقال الله تبارك وتعالى على لسان موسى في التوراة في السفر الأوّل الذي هو
سفر الخليقة ان يعقوب المعروف باسرائيل الله لما قربت وفاته دعا اولاده كلّهم
فباركهم واخبرهم بما هو مزعم ان يكون في آخر الازمان واودعهم هذا السرّ .
ولم يزل يبارك واحداً فواحداً حتى انتهى الى يهوذا الذي من نسله ولدت المنيطة
مرم امّ المسيح خلّص العالم فقال : « يهوذا لك تخضع اخوتك . يدك على اكتاف
اعدائك . يسجد لك بنو ايلك . شبلُ ليث يهوذا . من فريسة صعدت يا بني . جثا

وربض كاسد وكبوة من ينهض. لا يزول القضيبي من يهودا والمدير من فخذة حتى يجيئ الملك واياه تنتظر الشعوب»

فاظنر اعزك الله في هذا الكلام نظراً روحانياً مستقصياً بين العدل والأنصاف وتفهمه فان من لم يفهمه لم ينتفع به. هل تليق هذه النبوة من ذلك الشيخ المبارك اسرائيل الله وصفية الأعلى المسيح مخلص العالم لانه هو الخارج من يهودا بانسانيتيه وله خضع بنو اسرائيل لما دخلوا في دعوته وصارت يد الروم التي هي يده على اكتاف من عاداه من بني اسرائيل وجحدوا ربوبيته وكفروا به. فقتلهم الروم ومزقوهم كل ممزق فلا تقوم لهم قائمة ولا يزالون اذلاء الى الانقضاء وزوال الدنيا. وهو الذي بُعث من بين الاموات حياً بعد ثلاثة ايام من صليبه. وهو الذي سجد له بنو اسرائيل حيث رأوا الاعاجيب والآيات التي اظهرها بين ايديهم. وهو شبل الليث لانه ابن الله القوي العزيز الجبار لم تزل النبوة تترادف في بني اسرائيل حتى جاء المسيح رجاء البشر الذي انبأت عنه النبوات كلها التي كانت تتهف بالدلالة على مجيئه واياه كانت تنتظر الشعوب وله كانت تترجى الامم. وكما انه لا معنى لمجيئ الرسل بعد طلوع الملك عليهم كذلك لا معنى للانبياء بعد ظهور الاله المسيح الذي هو بالحقيقة ملك كما سبقت الانبياء وسمته ملكاً

س ما هي التقاليد البشرية ؟

ج هي ما رجع فيها الخطيب تأييداً لمقصوده الى سنن المشترعين واقاويل الائمة المشاهير واحاديث المشايخ وحكم الفلاسفة ومألف عوائد الامم. كقول المسعودي وقد تحرى وصف حب الوطن فأورد كثيراً من النصوص تأييداً لرأيه :

ان من علامة الرشد ان تكون النفس الى مولدها مشتاقة. والى مسقط الرأس نواقة. وقد ذكرت العلماء ان من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه الى اخوانه. وشوقه الى اوطانه. وبكائه على ما مضى من زمانه. قال ابن الزبير : ليس الناس بشيء من أقسامهم اقنع منهم باوطانهم. وقال بعض حكماء العرب : عمر الله البلدان بحب الاوطان. وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة ابوك لان غذاءك منها وغذاءها منها. وقال آخرون : اولى البلدان بلد رضعته مائه وطعمته غذاءه.

وقال آخر : ميلك الى موضع مولدك من كرم مَحْتَدِك . وقال بقراط : يُدَاوَى كل عليل بعقاقير ارضه لان الطبيعة تتطَلَّع جوائها وتترع الى غذائها . وقال افلاطون : عذاء الطبيعة من انفع ادويتها . وقال جالينوس : يتروَّح العليل بنسيم ارضه كما تثوب الجنَّة ببلِّ النطر . وللنفوس حنين الى الاوطان وان لم يطب ماؤها وهواؤها ولذا يقول بعض الاعراب يصف وطنه :

وَكُنَّا أَلْفَنَاهَا وَلَمْ تَكُ مَأْلَفًا وَقَدْ يُولَفُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ بِالْحَسَنِ
كَمَا تُولَفُ الْأَرْضُ الَّتِي لَمْ يَطْبِجْهَا هَوَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلَكِنَّهَا وَطَنُ

س ما هي طريقة السُّنن والشرائع في الخطابة ؟

ج اعلم انَّ السُّنن اَمَّا ان تكون مؤيِّدةً لمقصود الخطيب او مُبَايِنَةً لَهُ . فان كانت تؤيِّد مقاله فليبيِّن ما في الشريعة من الحكمة والسَّداد ويصِفُ سموَّ عقل مَنْ سنَّها وما ينجم من حُسن العُقبي بحفظها واتِّمامها . واما اذا كانت مخالفة لمقصوده فليعرضها على معيار غيرها من السُّنن وليفسِّرْها تفسيراً يطاقق مقصوده . او ان اقتضى الامر فليبيِّن بطلان الشريعة ومخالفتها لشرائع اخرى سبقت او لتقاليد امم عريقة في الحكمة او لسنن ارفع منها طورا طبعها الله في قلب البشر

(فائدة) ومن هذا الباب الامثال السائرة فانها خلاصة حكمة الشعوب وربما التجأ اليها الخطيب لايضاح قضيته فيقنع السامع بها او يرد بعض حُجج خصمه على طريقة قريبة . ولذلك لم يأنف السيد المسيح في الانجيل من الاستشهاد بها كمثل الشوك والعوسج (متى ١٦: ٧) اللذين لا يُجْنى منهما عنب او تين . وفي يوحنا (١٦: ١٣) مثل العبد الذي ليس هو اعظم من سيده . وفي لوقا (٢٣: ٤) مثل الطبيب المعالج لغيره دون نفسه

س ما هي لواحق المواضع الجدلية العرضية ؟

ج اعلم ان الخطيب ربما التجأ لترويج المادة التي تعمّد بيانها الى الوثائق والشروط والصكوك والاسناد وهذا كثير في الدعاوي . فيترتب على الخطيب ان يكون له إمام بمعرفة الدستور الشرعي واهمّ قوانينه صيانةً للحقوق ودفعاً للالتباس والتحيل

البحث الثالث

في عمل المواضع الجدلية

س ما هو عمل المواضع الجدلية ؟

ج للمواضع الجدلية عمل لا يُحصَر فإنه لولاها لطاش سهم الخطيب وحصل في امر مُعضل وخاض بحر موضوعه على غير هداية

س كم هي شروط استعمال المواضع الجدلية ؟

ج ثلاثة :

الاول ان يُحسن الخطيب اختيارها فيتوخى أحرارها باظهار المادّة

الثاني ان يقوم الاختصار في بسطها مقام الإكثار متحاشياً في ايرادها الشرح المملّ متفنناً في عرضها

الثالث ان يوردها على مقتضى حقيتها ولا ينسب اليها من الصحة ما ليس حقيقاً بها . كما لو اراد تركية مُتهم فيقول : لا زيب ان هذا الرجل ليس بمذنب . او يقول : من الجائز انه غير مذنب . او يقول : لم تثبت الجناية على هذا الرجل . أما النتيجة فلا تختلف في هذه المواقع كلها وهي : انه لا يُقتضى الحكم على المجرم

س ما هي احق البراهين الجدلية بالاقناع ؟

ج هي ما كان منها مع صحتها اكشف للمادة واقرب الى افهام الجمهور واحسن وقماً في النفوس . وعليه يلزم العدول عن الادلة العويصة المستوجبة بياناً علمياً لا يتناول عقل القوم بسهولة ما لم يكن السامعون من ذوي الخواطر الثاقبة او ممن يُغنيهم التلويح عن التصريح

الباب الثاني

في الاداب

لما كانت غاية الخطيب ارضاء السامعين لم يكفه ان يظهر في ترويح مقصوده ما عنده من الحجج والادلة بل يترتب عليه بعد انكشاف الرغبة عن الصريح وتأييد قضيته بالبراهين المأخوذة من المواضع الجدلية ان يتوخى القلوب ويستعطفها اليه . وهذا امر قريب المتناول داني الملمس اذا مراعى الخطيب الآداب الموضية التي بها تنقاد له العقول

البحث الاول

في حقيقة آداب الخطابة وافسامها

س ما هي آداب الخطابة ؟

ج هي عبارة عن صفاتٍ و اخلاقٍ حسنة يتحرّأها الخطيب فيستدني بها قلوب السامعين ويستميلها الى ما يقول

س كم نوعاً آداب الخطابة ؟

ج هذه الآداب على نوعين : فاماً انها تُعتبر في نفس الخطيب و امأ في نفس السامع

البحث الثاني

في آداب الخطيب

س كم هي آداب الخطيب ؟

ج ثلاثة : سداد الرأي وصدق المهجة و التودُّد

س ماذا يراد بسداد الراي ؟

ج السداد أصالةُ العقل و علمهُ التام بالقضية و تميزه لوجوه الامور و معضلات المشاكل بحيث يثق السامع بقول الخطيب و ينقاد الى كلامه . قال الشاعر :

نقى ما تنقذ بالباطل الحقَّ يأبهُ وان قُذبت بالحق الرواسي تنقذ

س ما هو صدق اللهجة ؟

ج هي صفةٌ يَتَّصَفُ بها الخطيب في كلامه ليثبت لدى السامعين خلوص نيَّته واستقامة عمله وحرصه على الحقيقة فيزيد ميلهم الى رأيه وركونهم الى تصديقه قال ابو العتاهية :

والقولُ ابلغهُ ما كان اصدقهُ والصدق في موقفٍ مستهلٍ عالٍ

س ما هو التودُّد ؟

ج قال الجرجاني : هو طلب مودَّة الاكفاء بما يوجب ذلك . وموجبات المودَّة كثيرة : منها الوقار والتصون ومنها الوفاء والامانة . ومنها النزاهة فيبين الخطيب في مقالهِ انه خالٍ من الاغراض لا يسعى الا لخير الجمهور . قال مرار بن سعيد :

اذا شئتَ يوماً ان تسودَ عشيرةً فبالحلمِ سُدْ لا بالتسرُّعِ والشمِ

س باي طريقة يثبت الخطيب سداد رأيه ؟

ج يثبتهُ اولاً بايراد قضيتِهِ على صورة جليَّة قريبة المزال . ثانياً بتمكينها في ذهن السامع بالبيِّنات الالامعة والشواهد الساطعة . وثالثاً باستدراك اعتراضات الخصم وتفنيدها . كقول عليٍّ من خطبة اراد ان يثبت فيها غرور الدنيا فقال :

ايُّها الناس انَّ الدنيا تفرُّ المؤمل لها والمُخلد اليها ولا تنفَسُ بمن نافس فيها وتقلب من غلب عليها . وائمُ الله ما كان قومٌ قطَّ في غضِّ نعمة من عيش فزال

عنهم إلا بذنوبٍ اجتروحوها لأنَّ الله ليس بظلامٍ للعبيد. ولو ان الناس حين تنزل بهم النعم وتزول عنهم النعم فَرَعُوا الى رَجْمٍ بصدق من نِيَّأْتُمْ وَكَلَّه من قلوبهم لَرُدَّ عليهم كلَّ شارد وأصلح لهم كل فاسد. واني لأخشى عليكم ان تكونوا في فترة. وقد كانت امور مضت ملتم فيها ميلة كنتم فيها عندي غير محمودين. ولئن رُدَّ عليكم امرُكم انكم لسعداء...

س كيف يتقرب الخطيب من عقول السامعين بصدق لهجته ؟

ج الوسيلة لذلك بان يظهر في اثناء خطابه ما انطبع عليه من الصلاح وسلامة النية وحسن الطوية فيرد الناس عن السيئات ويدعو الى المحاسن والامور الشريفة ويحيد عما يوقع السامع في الشك عن استقامته. قال الشاعر :

الباطل الدهر يُلغى لاضياء له والحقُّ أبلجُ فيه النورُ يأتلقُ

والمثل في ذلك قول الخوارزمي من كتاب الى احد اولاده ينصحه :

تأخر كتابي عنك يا ولدي لاني كرهت ان اكتبك عن فكري متشعب ، وقلب متقلب ، واردت ان اخلي خاطري لجوابك ، وان اقضي بذلك حق كتابك ، فن صيانة صاحب الكتاب ، ان لا يتجاوز له في الجواب ، على ان مضمون كلامي غير مبتذل ، ومدخل بري عندك ليس بمستعمل ، ولا لوم على الفقير ، اذا حمل ما عنده من اليسير الى المياسير ، وقد بذل جهده ، واتى اقصى ما عنده

س كيف يمكن الخطيب ان يتجنب الى سامعيه ؟

ج يتجنب اليهم بان يبين لهم ان قصارى بغيته مصالحهم وانه يؤثر امرهم على شؤونه الخاصة ويسعى في ترويج اغراضهم وانهم اذا اجابوا الى ملتحمه نالوا المنافع الجمّة كقول سميان الكاكي يبعث هم بني اسرائيل بعد موت اخوته :

قد علمت ما فعلتُ انا واخوتي واهل بيت ابي من اجل السنن والاقداص وما
لقينا من الحروب والشدائد وقد كان في ذلك هلاك اخوتي جميعاً لاجل اسرائيل
وبقيت انا وحدي . والآن فحاش لي أن أضنّ بنفسي في كل موقع ضيق فأني لست
خيراً من اخوتي بل أتتقم لأمتي وللأقداس ولنساننا ولأولادنا لأن الامم قد
اجتمعت لتدميرنا بغضاً

فلا عجب أن اجابه بنو اسرائيل بصوت عظيم :

« انت قائدٌ لنا مكان يهوذا ويوناتان اخيك فحارب حربنا ومهما قلت لنا
فانّا نفعله »

البحث الثالث

في آداب السامعين واغراض الجمهور

(مقدّمة) قالوا ان لكل مقام مقالاً فلا يُخطب اشراف الناس
واوساطهم وسوقتهم خطاباً واحداً فاولئك يفهمون من الاشارة وهؤلاء
يحتاجون الى بسط الكلام وتحريك العواطف فعلى الخطيب أن يعطي
كلّاً حقّه من الفهم والذكاء ويوفيه نصيبه من النباهة وسعة الادب .
وكذلك لاطوار الاعمار اخلاق شتى وآداب مختلفة من ولد فتى السن
مترعرع وشاب في مقتبل العمر وكهل تامّ القوّة وشيخ وقور مهيب فينبغي
على الخطيب بان يتقن في كلامه مع كل صنف من السامعين على مقدار
مبلغهم من الفهم واستعدادهم لقبول ما يريد بذره في عقولهم لنلأ يُجري
كما قيل شعاع بلاغته في غير مجراه وينظم جوهر كلامه في غير مسلكه
س صنف اخلاق الانسان على اختلاف اطوار العمر ؟

ج وصفها الامام صالح بن ابي شريف الاندلسي في
الابيات التالية فقال :

ابن عشر من الستين غلام	فَوْهٌ غُرٌّ ثَغْرُهُ بَسَامٌ
طائشٌ غافلٌ سريعٌ حِرَالِكٌ	دَائِبُهُ الْغَيْظُ وَالرِّضَى وَالْحَصَامُ
وابن عشرين للصبا والتصايي	ليس يثنيه عن هواه ملام
حُبِّ الْقَصْفِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ	وصنوف اللذات وهي حرام
يَتَمَنَّى لَهُ وَيَطْلُبُ مَجْدًا	فهو مقدمٌ في الوغى وهمام
وَالثَّلَاثُونَ قُوَّةٌ وَشَبَابٌ	وهيامٌ ولوعةٌ وغرامٌ
فاذا زاد بعد ذلك عشرًا	فكمالٌ وشدةٌ وقام
وابن خمسين مرَّ عنه صباهُ	فيراها كأنه احلام
فله الفضل والفخارُ وشاحٌ	وسكونٌ وهيبةٌ واحترام
وابن ستين صيرته الليالي	هدفًا للمنون وهي سهام
وابن سبعين لا تسلي عنه	فابن سبعين ما عليه كلام
لا يبالي على اخترام الليالي	وهو عنها لاهٍ به استصمام
خَرَقَ سَاهِمٌ حَرِيصٌ عَلَى الْمَا	ل كثير الإهتار وغدٌ عَمام
فاذا زاد بعد ذلك عشرًا	بلغ الغاية التي لا ترام
وابن تسعين عاش ما قد كفاه	واعترته وساوسٌ وسقام
فاذا زاد بعد ذلك عشرًا	فهو حيٌ كَمَيْتٍ وَالسَّلَامُ *

* ولهباء الدين العاملي - مقالة في اختلاف لذات الخلق :

انظر الى الصبي في أوّل حركته وغيظه فانه يظهر فيه غريزة بها يستلذّ اللعب حتى يكون ذلك عنده ألدّ من سائر الاشياء. ثم يظهر فيه بعد ذلك استلذاذُ اللهو ولبس الثياب الملوّنة وركوب الدواب القارمة فيستخفّ معه اللعب بل يستهجنه. ثم يظهر فيه بعد ذلك لذة الرينة والمزل والخدم فيحتقر ما سواها لها. ثم يظهر فيه بعد ذلك لذة الجاه والرئاسة والتكاثر من المال والتفاخر بالاعوان والأتباع والأولاد وهذا آخر لذات الدنيا

وقد قال الموسويُّ في طباع الشيب :

س ما هي الطباع الغالبة على الجمهور بحسب قدرهم ومراتبهم ؟
 ج قد تغلب على (الاعيان الاحرار) أئبسة السلطة
 وهيبة الامر و ابااء الطبع وعلو الهمة وتمام المروءة . على انه
 يظهر فيهم خيلاء وعظمة وتفاخر يحبون الإطراء ويأبون قبول
 التأديب ولا ينقادون الى النصح

و طُبع (الاغنياء) اللهم من كان منهم حديث عهد بغنى
 على التيه والصلف تبطرهم الكرامة ويطغيمهم المال ويشغلهم
 الحذر والحرص . يتعاضمون على الفقير ويتطاولون على من
 هو دونهم . يتكلفون طباع السادة ولا يقتصدون في الملاذ
 امأ (العلماء) ففيهم كرم الاخلاق وصحة الأعراض وقلة
 المطامع في المال يرتاحون الى السمعة الحسنة ويحبون التوقير
 والتعظيم ربما داخلهم العجب في أول اكتنازهم للعلوم فغلب
 عليهم السلاطة والهذر

وكذلك طباع لكل طبقة من طبقات الناس على

اعلم ان الشيب يُمدح في أمورٍ ويُذم في غيرها فيُمدح بأن فيه الجلالة
 والوقار والتجارب والحكمة وانه يصرف عن الفواحش ويصد عن القبايح ويمظ
 من تزل به فيقلل في الهوى طاحه وفي النفي جماعه . وللشيوخ صحة الرواية وكثرة
 التجارب فهم اشجار الوقار ومناجع الاخبار . ويُذم الشيب بأنه رائد الموت
 ونذيره وانه يوهن القوة ويضعف المنة ويطمع في صاحبه وربما شكاه منه لقزوله
 في غير زمانه ووفوده قبل إبانته وما اشبه ذلك من الحلال المعيبة

اختلاف مَنَهِم وصناعاتهم واديانهم واوطانهم لا بدّ للخطيب
من مراعاتها

الباب الثالث في الاهواء

(توطئة) غاية الخطيب ان يقنع السامع ويحمّله بالبرهان على عمل
حسن يأتيه او فعلٍ ذمّيم يأتاهُ على حسب ما تقتضيه الحال . ولما كان
الانسان مركّباً من روح وجسم لا يكفي الخطيب ان يوجه كلامه الى
قوى السامع العقلية لكن يجب عليه ايضاً ان يثير فيه قوى نفسه الحسيّة
المشتركة بين النفس والجسد كالمخيلة والاميال الفريزيّة التي تدفع الانسان
الى طلب ما يرغبه او النفور عمّا يرهبه . ولا حاجة الى ذكر المخيلة وما
يناسبها اذ مرّ ذلك في الجزء الاول من علم الادب لاسيما في البديع .
اما الاميال الفريزيّة وهي الاهواء فخصصنا هذا الباب بتعريفها ثم بكيفيّة
تحريكها في نفس السامع

البحث الاول في مغبه الاهواء وافاسرها

س ما هو الهوى ؟

ج الهوى في اللغة مُطلق الشهوة محمودة أو مذمومة (١) .
وفي الاصطلاح هو عبارة عن شهوة النفس اي ميلها الى ما

يلانها من الخير الحسي او إعراضها عن الشر المحسوس . وقد
حدّثها ارسطو في كتاب الخطابة بقوله : انّ الاهواء انفعالات
في النفس تُثير فيها حزناً اولدّة بحيث انّ حكمها في الشي
الواحد يختلف عمّا كان (١)

(فائدة) ليست نفس الانسان الناطقة منفصلةً عن نفسه الحيوانية .
فبمجرد إدراك العقل للخير او الشرّ المحسوسين تهيج في الانسان نفسه
الحيوانية التي تستهوي النفس الناطقة . لكنّ لهذه النفس الناطقة الحكم
الأعلى فإمّا تكبح ميل النفس الحيوانية واما تنقاد اليه طوعاً فتتأثر منه
وتندفع اليه مع النفس الحيوانية . وهو المراد من تحريك الاهواء .

س ما هي العلة المثيرة للاهواء ؟

ج علّتها قوّة في النفس تدفعها الى طلب المرغوب ودفع
المرهوب

س كم قسمًا تُقسم الاهواء ؟

ج تُقسّم الى قسمين فهي امّا اهواء شهوانية تدفع
الانسان الى طلب الخير المرغوب واما اهواء غضبية تنفره عن
الشرّ المرهوب . فرجع الاولى الى الحب والثانية الى البغض .
ومن الحب والبغض تتولد بقيّة الانفعالات

س ما هي اهواء النفس الشهوانية ؟

ج هي المحبة وضدها البغض . والرغبة وضدها النفور .
والفرح وضده الحزن

س ما هي اهواء النفس الغضبية ؟

ج هي الرجاء وضده القنوط . والشجاعة وضدها
الجلبن . والغضب وضده الحلم

س كيف يستطيع الخطيب ان يحرك عواطف الجمهور ؟

ج ينال ذلك : أولاً بأن يتعمق في درس موضوعه
فتتشربه مخيلته ويتأثر به شعوره . وبتأثر مخيلته وشعوره
يتمكن من التأثير في الغير . ثانياً بأن يبرز ادلته على صورة
حسية فيصف ما ينتج عن الامر من الخير والشر وصفاً يفعل في
مخيلة السامع ويبعث ارادته الساكنة فتتولد من ذلك
العواطف الدافعة الى مباشرة العمل او الكف عنه

البحث الثاني

في اهواء النفس الشروانية

في المحبة والبغض

س ما هي المحبة ؟

ج هي حركة في النفس تميل بها الى كل محبوب ناطقاً
كان كالصديق او غير ناطق كالوطن لما فيهما من الصلاح

فتطلب لهما الخير وترغب في الاصطناع اليهما وتعميم فضلهما

س كم هي شروط المحبة ؟

ج ثلاثة : الاول الارتياح الى خير المحبوب . الثاني

السمي اليه فعلاً . الثالث خلوص المودة من شين المنفعة الخاصة والاعراض الشخصية

س كيف تحرك المحبة في القلوب ؟

ج بطرق مختلفة اخصها ما يأتي :

اولاً بان يبين الخطيب ما ازدان به المحبوب من المحاسن كالمازايا الفريدة والاخلاق الكريمة التي تأنس اليها القلوب كقول المتنبي في سيف الدولة :

ضاق الزمان ووجه الأرض عن ملك	ملء الزمان وملء السهل والجبل
ليت المذائح تستوفي مناقبه	فما كُليبٌ واهل الأعصر الأول ؟
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به	في طلعة البدر ما يُفنيك عن رُحل
تُسمي الاماني صرعى دون مبلغه	فما يقول لشيء : ليت ذلك لي

ثانياً بان يذكر جميل فضله وحسن معرفه وسابغ نعمه كقول ابي تمام في المعتضد بالله :

الى قُطْب الدنيا الذي لو بفضله	مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
مَنْ البأسُ والمعروف والجود والتقى	عيالٌ عليه رزقهن شائله
هو البحر من ايّ النواحي اتته	فالجته المعروف والجود ساحله
تمودّ بسط الكف حتى لو انه	ثناها لقبض لم تُطعمه انامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه	لجاد بها فليتيق الله سائله

و كقول الآخر يجيب الموت للبشر لما فيه من الخير :

جزى الله عنا الموت خيراً فإنه
يعجل تخليص النفوس من الأذى
أبرئ بنا من كل برٍّ وأرأفُ
ويُدني من الدار التي هي أشرفُ

ثالثاً بان يصف صفاء ودَّ المحبوب وخلص حبه فيعامله

السامع بالمثل كقول ابن الرندقة الطرطوشي في برِّ الوالدين :

لو كان يدري الابنُ آيةَ غصّةٍ
أمٌ تخرج بوجده حيرانةً
يتجرّعان لبنته غصص الردى
لرقي لامرئٌ سُلٌّ من احسانها
ولبدل الخلق الايَّ بعطفه
وجزاها بالعذب من اخلاقه
يتجرّع الأبوان عند فراقه
وابٌ يسحُّ الدمعُ من آماقه
ويبوح ما كتماه من اشواقه
وبكى لشيخ هامٍ في آفاقه

و كقول بعضهم في التواصل :

ان المحبَّ لا يزال يرعى لكم عهداً ، ويحفظ لكم ولاءً وودّاً ، ويحنُّ إلى تلك
الملذّات والصفات المانوسة ، التي لا يسكن القلب الآ اليها ولها ابداً يتشوّف ويتشوق ،
وعليها سمرّداً يتلف ويتحرّق ، حتى يعيد الزمان العطف كيواءه المكرر ، ويصفو
بذلك شراب وصله المكوّر ، وليس ذلك بتزويق اللسان وصوغه بل قد خالط
اللحم والدم والمولى بذلك ادري واخبر ، وانّ عهد الوداد بحاله لم يتغيّر ، وصفو
الحب ما عهدتم وحاشا ان يتكدّر

س ما هو البغض ؟

ج البغض ضدّ الحب وهو حركة في النفس تحملها على
معاداة المسيّ واضمار الشرّ له والتحامل عليه . وهو يتناول
ايضاً الناطق كالعدو والظالم وغير الناطق كالبعخل والمار

س ما هي الدواعي المثيرة للبغض في القلوب ؟

ج هي الثلاثة المخالفة لدواعي الحب وهي

أولاً بيان ما طُبع عليه العدو من المعايب كسوء الاخلاق
والدناءة كقول الفرزدق في قوم :

لا بارك الله في قومٍ ولا شربوا
مُنافقين استحلّوا كلَّ فاحشة
ألم يكن مؤمنٌ فيهم فينذرهم
عذاب قومٍ أتوا لله عسيانا

وكقول ابن عمران مقبلاً للدنيا :

افّ لدنيا قد شَغَفْنَا بها
فَنَانَهُ تَخْدَعُ طَلَّاجَا
اضغاث احلامٍ اذا حصلتْ
او كوميض البرقِ معالِم

ثانياً صفة اعمال البغض المستقبحة ومظالمه كقول ابي اذينة

يذكر سوابق بني غسان ويحرض الاسود بن عمرو على الانتقام منهم :

هم جرّدوا السيف فاجعلهم به جُزراً
واذكر بنجاحهم مثوى ابي كرب
وسيف جدك لما ان اضرّ بهم
لا عفوّ عن مثلهم في مثل ما طلبوا

ثالثاً ذكر ما جُبل الخضم عليه من البغض واحتقان الحقد

كقول ابي العتاهية في صديق اسمه صالح تغيّر عليه :

اراني صالحٌ بغضا فظهرت له بغضا
ولا والله لا ينقضُ مِ إِلَّا زدتُهُ نقضا
وإِلَّا زدتُهُ مقتاً وإِلَّا زدتُهُ رفضا
أَلَا يَا مُفسدِ الوَدِّ وقد كان له محضا
تَفَضَّيْتُ من الريح فما اطلب ان ترضى
لَئِنْ كان له المَالُ مِ المصْفَى ان لي عرضا

الرغبة والنفور

س ما هي الرغبة ؟

ج الرغبة حركة في النفس تحملها على طلب الخير المأمول

س كم صنفاً المرغوبات ؟

ج صنفان : منها محسوسة كالأشياء الحواس ومنها معقولة كالأشياء الفضيلة والعلم

س باي الوسائل يثير الخطيب الرغبة في النفوس

ج أولاً بذكر حاجة السامعين الى ذلك الخير الذي يريد الترغيب فيه . ثانياً ببيان فوائده وقرب مناله . واخيراً بتعظيم الخير المنوي وترسينه في عيون السامعين حتى كأنه يريهم آياه رأي العين مثاله ما ورد في سفر الاجار عن لسانه تعالى يرغب شعبه في حفظ وصاياه :

ان جريتم على رسومي وحفظتم وصاياي وعلمتم بها اتزلت غيوشكم في اواخا واخرجت الارض غلالها وشجر الحقل يخرج ثمرة . والدياس يتصل بالقطف والقطف يتصل بالزرع وتأكلون طعامكم شعباً وتقيمون آمنين في ارضكم . وألقي السلام في الارض فترقدون وليس مزعج وأزيل الوحوش الضائرة من الارض وسيف لا يمر في ارضكم . وتطلبون اعداءكم فيسقطون امامكم بالسيف . فتطرد الخمسة منكم مئة والمئة منكم تطرد روبة وتسقط اعداؤكم امامكم بالسيف . وأقبل عليكم وانمىكم واكثركم وأثبت عهدي لكم . وتأكلون القديم المعتق وتخرجون القديم من امام الجديد . واجعل مسكني فيما بينكم ولا اخذلكم .

واسير فيما بينكم واكون لكم الها واتم تكونون لي شعباً . انا الرب الهكم الذي
أخرجكم من ارض المصريين لئلا تكونوا عبيداً لهم وكسر اغلال نيركم وجعلكم
تسيرون منتصبين

وكثيراً ما يفضل الخطيب طريق المقابلة بين المنافع الناتجة
عن حصول الامر المرغوب فيه والمضار اللاحقة باهماله او
بتفضيل بعض المرغوبات على غيرها كالمرغوبات المعقولة على
المحسوسة كما قالت ميسون بنت الجندل لمعاوية الخليفة زوجها وكان
نقلها من البادية الى دمشق فرغبها في الاقامة عنده :

لَبِثْتُ تَخْفُقُ الْارواحُ فِيهِ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيرِ
وَلَبِثْتُ عِبَاءَةً وَتَقَرُّ عَيْنِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ابْسِ الشُّفُوفِ
وَأَكَلُ كُسْبَةٍ فِي كُسْرٍ بَيْتِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَكْلِ الرِّغْفِ
وَأَصْوَاتُ الرِّيحِ بِكُلِّ فَجٍّ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
وَكَلْبٌ يَنْبِجُ الظَّرَاقَ دُونِي	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَطْرِ أَلُوفِ
وَبَكْرٌ يَتَبَعُ الْأَذْعَانَ صَعْبٌ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلِ زَفُوفِ
وَحَرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي نَخِيفٌ	أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَنِيفِ

س ما هو النفور ؟

ج هو عدول الانسان عن شرّ يضره والسعي في الفرار
منه (١) . ويفرق عن البغض بكونه أرعى للمصلحة الذاتية
واحرص منه على نفي الضرر المتوقع
س كيف يثار النفور ؟

ج بعكس ما تثار به الرغبة اي بان يصور الخطيب

لعقول الجمهور وجوه المضارّ الحاصلة عمّا اراد التنفير عنه
كقوله تعالى لشعب اسرائيل وقد اراد ان يصرفهم عن العصيان :

وان لم تسمعوا لي ولم تعملوا بجميع هذه الوصايا . ونبذتم رسومي وعافت انفسكم
احكامي فلم تعملوا بجميع وصاياي ونقضتم عهدي . فانا اصنع بكم هذا اُسلط عليكم
رعياً وسلّاً وحمى نفني العيين وتتلف النفس . وترزعون زرعكم باطلاً فيأكله
اعدائكم . واجعل وجهي ضدكم فتتزعمون من وجوه اعدائكم ويتسلط عليكم
مبغضوكم وتقرؤن ولا طالب لكم . ثم ان لم تطيعوني بعد هذا زدتكُم تأديباً على
خطاياكم سبعة اضعاف . فأحطمت تشامخ عزمكم واجعل ساءكم كالحديد وارضكم
كالنحاس . وتفرغ قواكم عبثاً ولا تخرج ارضكم إناءها وشجرُ الارض لا يخرج
ثمرة . واطلقت عليكم وحش الصحراء فتشاكلكم وتحلك جوائكم وتقللكم فتوحش
طريقكم . وان لم تتأدبوا بهذه وجريتم معي بالخلاف . جريت انا ايضاً معكم بالخلاف
وضربتم سبعة اضعاف على خطاياكم فاجلب عليكم سيفاً منتقماً نقمة العهد فتتجمعون
الى مدنكم وابعث الوباء فيما بينكم وتسلمون الى ايدي العدو . . . وادك
مشارفكم وأحطمت ثايل شموسم وألقي جثثكم على جثث اوثاسكم وتكرهكم
نفسي . واجعل مدنكم فقراً ومقادسكم موحشة ولا اشته رائحة رضى منكم . واترك
الارض بلفعاً فينذهل اعدائكم الذين يسكنونها . وأبددكم فيما بين الامم وأجرد
وراءكم سيفاً فتصير ارضكم خراباً

او بتبيين سوء مخبر المرغوب عنه ودغل باطنه كقول سعيد
ابن صامت في صديق ماذق :

ألا ربّ من تدعو صديقاً ولو ترى	مقالته بالغيب ساءك ما يفري
مقالته كالشهد ما كان شاهداً	وبالغيب مأثورٌ على ثغرة النحر
يسرك باديه وتحت ادبيه	نخمة غشّ تبترى عقب الظهير
تبين لك العينان ما هو كاتم	من الغل والبضاء والنظر الشنزر
فِرشني بخير طالما قد فَرِيتني	وخير الموالي من يربش ولا يبري

الفرح والحزن

س ما هو الفرح ؟

ج الفرح لذة في القلب لنيل المشتهى (١)

س كم وسيلة لتحريك شاعرة الفرح في القلوب ؟

ج لذلك وسيلتان خصوصاً :

الاولى صفة الفرح الناشئ عن اصابة الخير المقصود

والثانية الاسترسال في ذكر النعمة المستاحقة وجميل

عقبها وطيب جناها بعد طويل انتظارها او اليأس من الحصول

عليها كقول شاعر عصري يحیی الدستور :

أكرم بعصر حباناً بالمساواة	وخصنا بالتعاني والمرات
عصر به الحرّ مأمون ومحترم	وكان يرعى بأنواع الضلالات
عصر به المدلّ وافانا بأسرته	والظلم ولّى باصحاب الدناءات
عصر به قد تأخينا فليس ترى	بعد الاخاء طريقاً للعداوات
عصر به قد امنّا كل غائلة	من عصية الشرّ ابناء السفاهات
الله اكبر هذا العزّ فانتكروا	خبر الدعاء الى ربّ السماوات

وكقول ابي الحليم يحضّ النصارى على الفرح في صبيحة عيد القيامة :

ايها المؤمنون ان يومكم هذا اشرف الايام قدراً ، واعظم الاعياد خطراً . . .
بكبر اعياد المسيح في الدار الآخرة ، والمبشّر بالنعيم الابدي واللذات الفاخرة ، يوم
قرّر في القلوب تحقيق القيامة ، واشعرنا بالخلود السرمدي في دار الاقامة . . . هذا
اليوم الذي فيه تجددت الجلبة البشرية ، وقامت الاجساد مع السيد المسيح قيامة

سرّية، اليوم اعتدلت ازمان الفضائل، وزال عن الازهان برد شتاء الرذائل، ازهرت اغصان القلوب، انتثرت اوراق الخطايا والذنوب، غاض معين الضلال، فاض ماء الحياة الابدية من صخرة السعادة والاقبال، اليوم تبسّمت ثغور الأسرار، اشرفت شمس الايقان على صدور الابرار، نُشرت على رؤوس المؤمنين أعلام الخلاص، بُشّر الجنس الآدمي بفيران الخطايا والاختصاص، . . . انشقت عن درّة الحياة صدفّة الإنجيل، ثبتت قيامة الاجساد باصح برهان واصدق دليل

س ما هو الحزن ؟

ج قال الجرجاني : هو عبارة عما يحصل في القلب لوقوع مكروه او فوات محبوب في الماضي

س كيف يُثير الخطيب الحزن في النفوس ؟

ج من اقوى مُثيرات الحزن بسط الكلام في هول الخطب وعظم المحنة . ثم وصف مزايا المفقود وتبيين جدارته بالجزع والاسف . مع ايراد الخطيب اشدّ الالفاظ سطوة على القلب في وصف ما تركت المصيبة في قلبه من الآسى والكأبة فان دموع الخطيب تدعو الى التأسّي به وقد قيل :

اذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

س اذكر شاهداً في هذا الباب ؟

ج لك مثال حسن في رثاء داود لشاول ويوناتان :

الظي يا اسرائيل مجدّل على روايك . كيف تصرّعت الجابرة . لا تخبروا في جثّ ولا تبشّروا في أسواق أشقلون لئلا تفرح بنات الفلسطينيين وتطرب بنات القاف . يا جبال الجلبوع لا يكن فيكنّ ندى ولا مطر ولا حقول تقادِم لانه هناك طرَح مجنّ الجابرة مجنّ شاول كأنه لم يُمسح بدهن . عن دم القتلى وعن شحم

الجبارة قوس يونان لم تنكص الى الوراء وسيف شاول لم يرتد خائباً . شاول ويوناتان محبوبان شهيان في حياتهما وفي مماتهما لم يفترقا . اسرع من النسر واشد من الاسود . يابنات اسرائيل ابكين على شاول الذي كان يكسوكن القرع ترفاً وبهرصع لباسكن بجلي الذهب . كيف تصرعت الجبارة في وسط الحرب . يوناتان مجدل على روايك . قد ضاق ذرعي عليك يا اخي يوناتان لقد كنت شهياً الى جداً وكان حبك عندي اولى من حب النساء وقد احببتك حباً امراً لابنهما . كيف تصرعت الجبارة وبادت آلات الحرب

وقال الباجي ابو الوليد يرثي ابنه محمداً :

أحمد ان كنت بعدك صابراً	صبرَ السليم لا به لا يسلم
فلقد علمت بانني بك لاحق	من بعد ظني انني متقدم
لله ذكر لا يزال بخاطري	متصرف في صبره متحكم
فاذا نظرت فشخصه متخيل	واذا اصحت فصوته متوهم
وبكل ارض لي من اجلك لوعة	وبكل قبر وقفة وتلوم
فاذا دعوت سواك حاد عن اسمه	ودعاه يأسف بقول بك مفرم
حكم الردى ومناهج قد سنّها	لأولي النهى والحزن قبل منمّم

البحث الثالث

في اهواء النفس الفضية

الرجاء والقنوط

س . ما هو الرجاء ؟

ج . الرجاء في اللغة الأمل وفي الاصطلاح تعلّق القلب في حصول محبوب في المستقبل (١)

س . ماذا يدعو الى الرجاء في القلوب ؟

(١) كليات ابي البقاء والتعريفات

ج ينشأ الرجاء في القلوب بطريقتين :

الاولى ان يصف المتكلم عظم الخير المبتغى كي يصرف النفوس الى طلبه

الثانية ان يبين ان الامر المقصود ليس هو بعيد المتناول عزيز المطلب وانما هو بخلاف ذلك سهل الملتمس لما في اليد من الوسائل لإدراكه كما هي الجنود والاقوات الموفورة والعُدَد وسمو الهمة والثقة بحول الله وضعف العدو الى غير ذلك كما روى المسعودي والطبري عن علي بن ابي طالب يوم صفين وهو يحض الانصار على معاوية واصحابه ويرغبهم في مقاتلتهم :

يا معشر الانصار عُمُوا الاصوات وأَكْمَلُوا اللَّأْمَةَ واستشعروا الحَشْيَةَ وقلقلوا السيوف في الاجفان قبل السَّلَّةَ وَالْحِظْوَةَ الشَّرَّارَ واطمعووا الهَبْرَ ونافحوا بالظُّمَى واصلوا السيوف بالخطى والنبال بالرماح . ان هؤلاء لن يزالوا عن مرقعهم دون طمن يخرج منه النسيم وضرب يلقى الهام ويتسج المظام وتسقط منه المعاصم والاكف حتى تُشْدَخ جباههم بعبد الحديد وتنتثر لِسْمُهُمْ على الصدور والاذقان . ابن اهل الصبر وطلَّاب الأجر . طيبوا عن انفسكم نفساً فانكم بعين الله تعالى ومع ابن ابي طالب . عاودوا الكَرَّ واستعجوا الفَرَّ فانه عار في الاعقاب ونار يوم الحساب . ودونكم هذا السواد الاعظم والرواق المطنَّب فاضربوا بشفجه فان الشيطان راكب صعيده مفترش ذراعيه قد قدَّم للوثبة يداً واخر للنكوص رجلاً فصبراً حميلاً حتى يزجلي وجه الحق وانتم الأعْلَوْنَ والله معكم ولن يتركمكم واعمالكم

وكما جاء في سفر تثنية الاشتراع حيث يبين شعب اسرائيل ان شريعة الله ليست بعسرة الحظَّة ولا وعرة المسلك قال :

ان هذه الوصية التي انا امرك بها اليوم لبست فوق طاقتك ولا بعيدة منك . لا هي في الساء فتقول : مَنْ يصعد لنا الى الساء فيتناولها ويسمعنا ايأها فنعمل بها . ولا هي في عبر البحر فتقول : من يقطع لنا هذا البحر فيتناولها ويسمعنا ايأها فنعمل

جاء . بل الكلمة قريبة منك جداً في فيك وفي قلبك لتعمل بها . انظر اني قد جعلت اليوم بين يديك الحياة والخير والموت والشر . بما اني آمرك ان تحبَّ الرب الهك في الارض التي انت فيها صائر لتملكها . وان زاغ قلبك ولم تسمع وملت وسجدت لآلهة اخرى وعبدتها فقد انبأتكم اليوم انكم تملكون ملاكاً ولا تطول مدنتكم في الارض التي انتم عابرون الاردن لتدخلوها وتملكوها . وقد اشهدتُ عليكم اليوم السماء والارض بأني قد جعلتُ بين ايديكم الحياة والموت والبركة واللعنة فاختر الحياة لتجيا انت وذريّتك

س ما هو القنوط ؟

ج هو عبارة عن لوعة القلب لقطع الأمل عن حصول
المرغوب

س متى وكيف يحرك الخطيب القنوط ؟

ج للخطيب أن يثير القنوط في الجمهور اذا اراد ان
يصرفهم عن امر يريدونه وذلك بان يصفه لهم معجز الدرك
تحول دون مرغوبهم مخاطر ومشاق لا يقتحمها الا الغبي
الجاهل الباحث عن حته بظلفه كما فعل عنتره يوم بارز ابا يقطان بن
بسطام الشيباني فقال يتهدده ويبدشه بموت قريب ان طاب مقاتلته :

يا ابا اليقطان اغواك الطمع	سوف تلقى فارساً لا يندفع
زُرْتَنِي تطلب مني غفلة	زورة الذئب على الشاة رتع
يا ابا اليقطان كم صيد نجاً	خالى البال وصياد وقع
ان تكن تشكولاً وجاع الهوى	فانا اشفيك من هذا الوجع
بحسام كلما جردته	في عيني كيفاً مال قطع
وانا الاسود والعبد الذي	يقصد الخيل اذا النقع ارتفع
نسبي سيني ورحي وهما	يونساني كلما اشتد الفرع

يا بني شيدان عمي ظالمٌ وعليكم ظلمه اليوم رجع
ساقٍ بسطاماً الى مصرعه عالقاً منه باذيال الطمع
وانا اقصده في ارضكم وأجازيه على ما قد صنع

الشجاعة والجن

س ما هي الشجاعة ؟

ج هي هيئةٌ حاصلةٌ للقوة الغضبية بها يُقدم الانسان
على ما يجب الإقدام عليه مع التعرض للمكاره الحائلة دون
المرغوب

قال يحيى ابن عدي والقزويني : ومن اخص سمات الشجاعة الاقدام
على الامور التي يحتاج الانسان ان يعرض نفسه لها لدفع المكاره والآلام
الواصلة اليه مع ثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت وهو
بالأشراف والملوك ألقى بل لا يستحقون الملك مع عدم هذه الخلة .
والشجاعة متوسطة بين الجن والتهور فيكون كما قال معاوية :
شجاعٌ اذا ما امكنتني فرصةٌ وان لم تكن لي فرصةٌ فجنانٌ

س ما هي بواعث الشجاعة ؟

ج يبعث الخطيب على الشجاعة بان يرغب السامعين في
حصول المحبوب اللهم اذا كان شريفاً جليلاً ويشهيه الى القلوب
فبيعها الى طلبه كما قال ابن عمار يُغري اهل بلنسية على ابي بكر بن
عبد العزيز وبنيه :

بشر بلنسية وكانت جنّة أن قد تدلّت في سواء النارِ
جاروا بني عبد العزيز فانهم جرّوا اليكم اسوأ الافذارِ

ثوروا بهم متأولين وقلدوا
جاء الوزير بها يكشف ذيلها
نكت اليبين وحاد عن سنن العلي
آوى لينصر من نأى المثوى به
ما كنتم إلا كائمة صالح
هلاً وخصكم بأشأم طائر
بر اليبين ولم يمرض نفسه
لا بد من مسح الجبين فانما
ملكاً يقوم على العدو بشار
عن سواة سوأى ومار عار
وقضى على الإقبال بالادبار
ودهاه خذلان من الانصار
فرميت من طاهر بقدار
ورمى دياركم بالأم جار
ونفوسكم لمصارع الفجار
لطمته غدرًا غير ذات سوار

(راجع ايضاً نصيدة صفي الدين الحلي يجرّض سلطان ماردین علی حضور حصار اربل في الصفحة ٥٩ من الجزء السادس من مجاني الادب)

(فائدة) ان الفرق بين الرجاء والشجاعة ان الرجاء لا يقتضي الاقدام على الامر بخلاف الشجاعة التي تهيجها المخاطر فتبعثها على مقاومة من يحول بين الشجاع ومرغوبه

ومن اقوى اسباب الشجاعة ذكر الامداد العلوية كما فعل
يهوذا المكابي بجيشه وكانوا عند رؤيتهم عسكر ملك سورية مقبلاً
هتفوا : « كيف نطيق قتل مثل هذا الجمع القوي ونحن نفر يسير » .
فقال يهوذا :

ما اسهل ان يدفع الكثيرون الى ايدي القليلين وسواة عند اله السماء ان يخلص
بالكثيرين وبالقليلين . فانه ليس الظفر في الحرب بكثرة الجنود وانما القوة من
السماء . اولئك يأتونا بجمع من ذوي الشنائم والنفاق ليبيدونا نحن ونساءنا واولادنا
ويسلبونا . وأما نحن فتحارب عن نفوسنا وسنننا . وهو يكسرهم امام وجوهنا
فلا تخافوهم

وكقوله في موطن آخر :

« لا تخافوا كثرتهم ولا تخشوا بطشهم اذكروا كيف نجنا اباؤنا في بحر القلزم
حين تنبّعهم فرعون بجيشه فالان فلنصرحن الى السماء لعلّه يتذكر عهد آباؤنا
ويكسر هذا الجيش امامنا . اليوم فلتعلم كل الامم ان لاسرائيل فادياً ومخلصاً »

س ما هو الجبن

ج الجبن او الخوف هيئة حاصلة للمقوة الغضبية بها يُججم عن مباشرة امرٍ لما يتوهم به من الاهوال

س كيف يتمكن الخطيب من القاء الخوف في القلوب ؟

ج بثلاث وسائل :

الاولى ان يُنذر الجمهور بخطب عظيم وطامة كبيرة كانتشاب حرب ووقوع مجاعة وحلول أجل وسوء مطلع يوم الدين وغير ذلك من المماول التي تلقي الذعر في القلوب كقول الزمخشري في التحذير من الدنيا :

خَفَّ الرَادُ ، وَجَفَّ الْمَزَادُ ، وَطَالَ السَّيْلُ ، وَحَارَ الدَّلِيلُ ، وَمَا يُدْرِيكَ عَلَى مَ
تَقْدَمُ ، أَتَبَّتْ أَمْ تَزُلُّ بِكَ الْقَدَمُ ، يَا جَمُودَ الْعَيْنِ ، كَأَنَّكَ نَوْرَابُ الْبَيْنِ ، إِنْ أَدْمَعْتَ
الذَّوَانِبَ ، وَقَدْ شَابَتْ مِنْكَ الذَّوَانِبُ ، تَعَشَّشْ أَمْ الرَّدَى وَتَبْيَضْ ، حَيْثُ تَطْلُعُ
الشَّرَاتُ الْبَيْضُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَمَلُ عَلَى آلَاتِهِ الْحَسْبَاءُ ، وَالطَّرْحُ تَحْتَ الرَّمْلِ
وَالْخَصْبَاءُ .

وكقول زهير في التحذير من الحرب :

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُ وَذَقْتُ وَمَا هُوَ عَمَّا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ
مَتَى تَعْمَلُوهَا تَعْمَلُوهَا ذَمِيحَةً وَتَنْصُرَ إِذَا ضَرَّيْتُمْوهَا فَتَنْصُرِمِ
فَتَمْرُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِبَاشًا ثُمَّ تَنْتُجُ فَتَنْتَمِ
فَتَنْتُجُ لَكُمْ غُلَامَانِ أَشْأَمُ كُلِّهِمَا كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضَعُ فَتَنْظُمِ
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغْلِلُ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِينٍ وَدَرَمِ

الثانية ان يتوعد السامعين بقرب حلول المكروه او سرعة

فوات المحبوب فان الشرّ المتوقع حلّواه اشدّ عملاً في القلوب
كما قال ابو العتاهية :

أَنلَهُوْا يَا مَنَا تَدْمُهُ	وَنَلْبُهُ وَالْمَوْتُ لَا يَلْعَبُ
عَجِبْتُ لِذِي لَعِبٍ قَدْ لَهَا	عَجِبْتُ وَمَا لِي لَا أَعْجِبُ
أَيْلَهُوْا وَيَلْعَبُ مَنْ نَفْسُهُ	تَمُوتُ وَمَتَرِلُهُ يَخْرُبُ
نَرَى كُلَّ مَا سَاءَنَا دَائِمًا	عَلَى كُلِّ مَا سَرَّانَا يَنْفَلِبُ
نَرَى الْخَلْقَ فِي طَبَقَاتِ الْبِلَى	إِذَا مَا هُمْ صَعَّدُوا صَوْبُوا
نَرَى اللَّيْلَ يَطْلُبُنَا وَالنَّهَارَ	رَمْ لَمْ نَدْرِ أَحْمَا أَطْلُبُ
أَحَاطَ الْجَدِيدَانِ جَمْعًا بِنَا	فَلَيْسَ لَنَا عَنْهَا مَهْرَبُ
وَكُلُّهُ لُهُ مَدَّةٌ تَنْقُضِي	وَكُلُّهُ لُهُ أَثَرٌ يُكْتَبُ
إِلَى كَمْ تُوَاقِعُ نَحْيَ الْمُسِيبِ	يَا إِجْمَا الْأَلْعَبُ الْأَشِيبُ
وَمَا زِلْتَ تَجْرِي بِكَ الْحَادِثَا	تُتَسَلَّمُ مِنْهُنَّ أَوْ تُنْكَبُ
سَتُمَطِّي وَتُسَلَّبُ حَتَّى تَكُوْا	نَافْسُكَ آخَرًا مَا يُسَلَّبُ

الثالثة ان يبين الشرّ خصيصاً بالسامع يترصّده دون غيره
فان النفوس تؤثر خيراها الخاص ولا ترعج لما عم من الخطوب
كقول ابي الحليم ينذر الخاطي بجلول الاجل والعقاب السريع :

اجما الخاطي أَيْقِظْ غَفْلَةَ الْعَقْلِ مِنْ رَقْدَةِ الْإِهْمَالِ ، وَتَنْبَهْ لَا يَتَقَادِ الْأَضْوَاءُ بِدُهْنِ
صَوَالِحِ الْأَعْمَالِ ، قَبْلَ أَنْ تَنْدَرِجَ الْأَيَّامُ ، وَتَنْقَرُضَ الْأَعْوَامُ ، وَتَقَرَّبَ مَدَةُ الْأَجَالِ ،
وَتَقْصُرَ الْأَلْسُنُ عَنِ الْأُجُوبَةِ وَاسْئَالَ ، حَيْثُ يَحْصِدُ كُلُّ امْرِئٍ مَا زَرَعَ ، وَيَجَازِي
مَنْ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مَا صَنَعَ ، وَيَقْدَمُ عَلَى مَا قَدَّمَ ، وَيَتَنَهَّدُ الْأَثِيمُ وَيَتَنَدَّمُ ، يَوْمَ اضْطِرَابِ
الشَّيْخِ الْكَبِيرِ عَلَى مَا اسْلَفَ ، وَانْتِحَابِ الْكَهْلِ الْخَطِيرِ عَلَى مَا اتْلَفَ ، يَوْمَ يَمْتِطِي مَخْلَصُ
الْكُلِّ صَهْوَةَ السَّحَابِ النَّوْرِيِّ ، وَيَدِينُ لَجَلَالِهِ كُلُّ شَجَبٍ وَبَرِّي ، يَوْمَ تَصْرُ اسْنَانُ
الطَّالِحِينَ لِمَخَوْفِ هَوْلِ النِّقَمِ ، وَتُطْلَعُ أَفْئِدَةُ الصَّالِحِينَ بِأَشْهُى سِنَى النِّعَمِ ، يَوْمَ نَشْوَةِ
الْمُؤْمِنِينَ ، يَوْمَ غَشْوَةِ الْمَجْرِمِينَ ، يَوْمَ خَاغَةِ الْأَزْمَانِ ، يَوْمَ انْقِضَاءِ الْأَوَانِ ، يَوْمَ لَيْسَ
لَهُ ثَانٍ ، فَيَا مُضَارَةَ وَجْهِهِ الْإِبْرَارِ فِيهِ إِذَا حَلُّوا عِرَاصَ الْمَلَكُوتِ ، وَيَا خُسَارَةَ
مُتَاجِرِ الْإِشْرَارِ بِمَا تَعَايَنُ مِنَ الْمَخَازِي وَالْبَهُوتِ ، أَلَا رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً تَجْلِبِبُ نَفَاسَ
مَلَابِسِ الْوَلِيمَةِ الْآخِرَةِ ، وَآثَرَ الْخَبِيرَاتِ الْآجِلَةِ بِمَا عَجَّلَ فِي الْخَاضِرَةِ

الغضب والحلم

س ما هو الغضب ؟

ج هو حركة في النفس تتوجه الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها (١)

قال الغزالي : ان قوت هذه القوة الغضبية وشهوتها الانتقام . وفيه لذتها ولا تسكن الا به . ثم ان الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في اول الفطرة في التفريط والافراط والاعتدال . اما التفريط فيفقد هذه القوة او ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه : لاجمة له . . . واما الإفراط فهو ان تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة . واما الاعتدال فهو ان تنبعث الحمية حيث يجب وتنطفىء حيث يحسن العلم (اه) . والكلام هنا على هذا الغضب المعتدل

س ماذا يهيئ الغضب ؟

ج شيان :

الاول ذكر الالهانة وتعظيم الأذى وتحريك كامن الحفاظ
كما فعلت عفيرة بنت غفار (ويروى : عفان) وكان بنو طسم انتهكوا حرمتها :

أَجْمَلُ انْ بُؤَى اِلَى فِتْيَاتِكُمْ	وانتم رجال فيكم عدد الرمل
أَجْمَلُ تَمَشِي فِي الدَّمَاءِ فَتَاتِكُمْ	صبيحة رُفَّت في العشاء الى نعل
فَانْ اَنْتُمْ لَمْ تَقْضُوا بَعْدَ هَذِهِ	فكونوا نساء لا تغب عن الكحل
وَدُونَكُمْ ثُوبُ الْعُرُوسِ فَأَتَمَّا	خُلِقتم لاثواب العروس وللنسل

فلو اننا كنّا رجالاً وكنتم فوتوا كراماً او أميتوا عدوكم
والا فخلّوا الدار ثم تحمّلوا
فللموت خير من مقام على أذى
فدّبوا اليهم بالصوارم والقنا
ولا تجزعوا للحرب قومي فانما
فيهالك فيها كل وغل مواكل
نساء لكنّا لا نقرّ على الذل
وكونوا كئنا سبّ بالحطب الجزل
الى بلد قفر وموتوا من الهزل
وللهزل خير من مقام على ثكل
وكل حسام محدث المهدي بالصل
تقوم باقوام كرام على رجل
ويسلم فيها ذو الجلادة والفضل

الثاني بيان ضرورة التشفي كقول الحلي للسلطان الملك الصالح

مجرّضه على قوم عاثوا في اطراف بلاده من قصيدة قالها في يوم عيد النحر:

فيا ملكاً قد اطعم الحصم جلعه
أعد غير مأمور على الضد كيد
فقد ايقن الاعداء انك راحم
اذا ما فعلت الخير ضوعف شرهم
ولو تابعوا قول الاله وامره
تهدن بعيد النحر وانحر به العدى
وضحّ بهم لا زلت تنحر مثلهم
لكثرة ما جفوا فتغف وتصفح
وأذك له النار التي بات يقدح
فياهاو بافعال الخناء وسجّحوا
وكل انا بالذي فيه ينضح
لقانوا بان الصلح للخلق اصلح
فجودك عبد للورى ليس يبرح
ومن دون مننك المعائر تذبح

(راجع ايضاً في الجزء السادس من مجاني الادب العددين ٣٩ و ٤٠)

ويلحق بتحريك الغضب المنصف تحريك عظم الهمة وهو

استصغار ما دون النهاية من معالي الامور (١ قال ابو العتاهية :

ولم ار في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على الكمال

ومن محاسن الشراهد في ذلك قول اسماعيل المقرئ يستنهض همة

المتغافلين عن طلب ثواب الآخرة :

اترضى من العيسر الرغيد وعيشة
فيا ذرة بين المزابل ألقيت
مع الملا الأعلى بعيش البهيمة
وجوهرة بيعت بأبخس قيمة

افان بياق تشتريه سفاهةً وسخطاً برضوانٍ ونازاً بجنةٍ
فلو فعل الاعداء بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لما بعض رحمة

ويجوز ان تلحق بالغضب اهواء اخرى يمتزج فيها الغضب بعواطف غيرها كالأنفة وهي نبو النفس عن الامور الذنيّة والغضب عند الاحساس بالنقص، والحمية حدّها في التعريفات: المحافظة على الحرّم والدين من التهمة . وكالغيرة وهي النخوة لتعدّي الحقوق (١) . وهذه العواطف تثار ببيان عظم النقص وضرورة اصلاحه وتغلّب الخصم على الحقوق فيشتمز السامع عمّا يسومه خسفاً ويشين عرضه فيردّد قول الحريري :
النايا ولا الدنيايا وخيرٌ من ركوب الحنا ركوب الجنازة
س اضرب مثلاً في تحريك عواطف النفور والحمية

ج لك في ذلك مثال حسن في خطبة لعلّ حمل فيها
اهل الكوفة على معاوية واهل الشام فقال :

ايها الشاهدة ابدانهم الغائبة عقولهم المختلفة اهاؤهم المبني بهم امراؤهم .
صاحبكم بطيع الله وانتم تصونوه وصاحب اهل الشام يبعي الله وهم يطيعونه . لوددت حقاً ان معاوية صرفني بكم صرف الدينار بالدرهم فاخذ مني عشرة منكم واعطاني رجلاً منهم . يا اهل الكوفة بُنيت بثلاث واثنين ، صمّ ذؤوب اسباع ، وبُكم ذؤوب كلام ، وعمي ذؤوب ابصار ، لا احرار صدق عند اللقاء ، ولا اخوان ثقة عند البلاء ، يا اشباه الابل غاب عنها رعاها ، فكلما جُمعت من جانب تفرقت من جانب آخر ، وحقاً لكأني بكم اخال ان لو حمس الوغى وحمي الضراب انفرجتم عن ابن ابي

(١) راجع في مقالات علم الادب (ج ٢ ص ٦٨) ما قاله زكريّا بن عدي في هذه الاهواء

طالب وخلفتموه شريداً طريداً، أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لانهم اولى بالحق منكم ولكن لاسرائهم الى باطل صاحبهم وابطائكم عن حقي. ولقد اصبحت الامم تخاف ظلم رعاها. واصبحت اخاف ظلم رعيتي. استغفرتكم للجهاد فلم تنفروا واسمعتكم فلم تسمعوا. ودعوتكم سرّاً وجهاراً فلم تستجيبوا. ونصحتكم فلم تقبلوا. اشهدكم كمياب. وعييدكم كارباب. اأتلو عليكم الحكم فتنفرون منها. وأعظكم بالموعة البالغة فتنفرون عنها واحشكم على جهاد اهل البغي فما اتى على آخر القول حتى اراكم منفردين ايادي سباً ترجعون الى مجالسكم. وتتخاذعون عن مواظكم

ومأ جاء في الحمية والانفة مع إثارة الغضب والبغض ما ذكره
المسعودي :

لما قُتل عليّ كان في نفس معاوية من يوم صفتين على هاشم بن عتبة وولده
إحّنه فحمل اليه مقيّداً فخلوا الى دمشق. فأدخل الى معاوية وعنده عمرو بن العاصي
فقال معاوية لعمرو: هل تعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا الذي يقول ابوه يوم
صفتين :

اني شربت النفس لما اعتلّا واكثر اللؤم وما اقلّا
أعورُ يعني اهلُه محلاً قد عالج الحياة حتى ملّا
لا بد ان يملّ او يُفلاّ اشلهم بذي الكموب شلاً
لا خير عندي في كريم ولى

فقال عمرو متمثلاً :

لقد بينت المرعى على دمن الثرى وتبقى جزازات النفوس كما هيا
دونك يا امير المؤمنين الضبّ والضبّ فاشحب اوداجه على اثابجه. ولا تردّه
الى العراق، فانه لا يصبر عن النفاق، وهم اهل غدر وشقاق، وحزب ابليس ليوم
ميجاء. وان له هوى سيرده ورأياً سيظنيه وبطانة ستقويه. وجزاء سيئة سيئة
مثلها

ولما آثر معاوية الحلم واطلق سبيل عبدالله قال عمرو لمعاوية :

امرئك امراً حازماً فعصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس ابوه يا معاوية الذي أعان علينا يوم حز القلاصم

فلم يَنْتَنِ حتى جرت من دماننا بصَقَيْنِ امثالُ البحورِ الحُضارِمِ
وهذا ابنُهُ والمرءُ يشبهُ شبحُهُ وتُوشِكُ ان تَقْرَعَ بِهِ سنَّ نادمِ

وربما اردفوا بهذا الباب المنافسة والحياء . قال زكريا بن عدي (١) : المنافسة هي منازعة النفس الى التشبه بالغير فيما يراه المرء ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقى الى درجة اعلى من درجته . وهذا الخلق محمود اذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العاليه وفيما يكسب مجداً وسودداً

س كيف تثار المنافسة ؟

ج بوصف محاسن الذين يُستحبُّ الاقتداء بهم وبيان العار الذي يلحق بالحضور ان تأخروا في تقضي آثارهم كقول علي يذكر الزهاد ويحرض قومه على التآسي بهم :

لقد رأيتُ مَنْ تقدمكم فما ارى بينكم احداً يشبههم . لقد كانوا يصبحون شُعْثاً غُبْراً . وقد باتوا سَجْدًا وقياماً براوحون بين جباههم وخدودهم ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادم . اذا ذُكر الله هملت اعينهم حتى تبل جيوهم ومادوا كما يمد الشجر يوم الريح العاصف خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب . فالزموا سَمْتَهُمْ ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا

وقال ايضاً من خطبة يعرض مثل السيد المسيح وزهد حياته :

تَأَسَّوْا بالانبياء الاطهار واقتصُّوا بآثارهم . انظروا الى عيسى ابن مريم فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن وكان اِدَامُهُ الجوع وسراجُهُ بالليل القمر وظلالُهُ في الشتاء مشارق الارض ومفارجها وفاكهتهُ ما تنبت الارض للبهائم . ولم تكن له زوجة تفتنه ولا طمع يذلُّه . دأبَتْهُ رجلاه وخادُمُهُ يداه

اماً الحياء، فعرفه الجرجاني بقوله: هو انقباض النفس من شيء وتركه حذراً من اللوم فيه (١). وتحريكه في القلوب بان يصف الخطيب ساجدة الامر الذي يقصد الرد عنه مع بيان قبح الاحدوثة بفعله. والحياء اعمل في قلوب الاشراف منه في قلوب العامة قال الشاعر:

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه اذا قل ماؤه
حياءك فاحفظه عليك فانما يدل على فعل الكرم حياؤه
اذا حرم المرء الحياء فانه بكل قبيح كان منه بلاؤه

والامثال كثيرة في ذلك منها: ما جاء في ديوان ابي العتاهية عن عبدالله بن معن من جملة ابيات

ارى قومك ابطالاً وقد اصبحت طالاً
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً
وما تصنع بالسيف اذا لم تك قتالاً

(راجع الصفحة ٣٣٤ و ٣٣٥ من ديوانه)

ومن خطب علي التي رواها عنه الجاحظ بالاسناد قوله لاهل الكوفة وكانوا خذلوه في حروبه:

ايها الناس المجتمعة ابدانهم المختلفة اهواؤهم. كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم عدوكم. تقولون في المجالس: كيت وكيت. فاذا جاء القتال قلتم: حيدي حياذ. ما عزت دعوة من دعاكم ولا استرجاع قلب من قاساكم. اعاليل باضاليل. سألتموني التأخير هيئات دفاع ذي الدين المظلول لا يمنع الضم الذليل ولا يدرك الحق الا بالجد. اي دار بعد داركم تمنعون. ام مع اي امام بعدي تقاتلون. المفورور والله من غررتوه. ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. فلا

اصدق قولكم ولا اطمع في نصركم فرّق الله بيني وبينكم . واعقبني بكم من هو
خير لي منكم . لوددت ان لي بكل عشرة منكم رجلاً من بني فراس بن غنم صرف
الدينار بالدرهم

وللحليّ من ابيات كتب بها الى صديق له وعده بالمساعدة في واقعة
فاخلف :

وعدتّ حميلاً واخلفتُهُ	وذلك بالحرّ لا يحملُ
وقلتّ بأنّك لي ناصرُ	اذا قابلَ المحفّلَ المحفّلُ
وكمّ قد نصرتك في مَعرِك	تخطّم فيهِ القنا الذُّبُلُ
ولستُ امنُ بفعلِي عليكُ	فأعجبُ بالقولِ اِرْءِ عَجَلُ
بذا يتفاوتُ قدرُ الرجالِ	فيعلمُ اِجْمَعُ الاكْمَلُ
كما قالهُ الصقرُ في عِزّةٍ	به حينَ فاخرهُ البلبُلُ
وقال : اراك جليْسَ الملوكِ	ومن فوقِ ايديهمُ تُحمَلُ
وانت كما علموا اخرسُ	وعن بعض ما قلتهُ تنكَلُ
وأحبسُ مع اتّي ناطقُ	وقدري عندهمُ مُهملُ
فقال : صدقتُ ولكنهم	بذاك دروا اني الافضلُ
لاني فعلتُ وما قلتُ قطُ	وانت تقولُ وما تفعلُ

س ما هو الحلم ؟

ج هو الطمأنينة عند سورة الغضب . قال يحيى بن عديّ
في تهذيب الاخلاق (١) : هو ترك الانتقام عند شدّة الغضب
مع القدرة على ذلك . وهذا الحال محمود ما لم يؤدّ الى ثلم
جاءٍ او فساد سياسة . وهو بالملوك والرؤساء احسن لانهم اقدر
على الانتقام من مبغضيه

س كيف يُنجمد الخطيب سورة الغيظ ويدعو الى الحلم والمسامحة ؟

ج هذه ادعى الوسائل لحسم الغضب وكظم الغيظ (١) :
 اولها الاقرار بالذنب لانه كما قيل : الاعترف يزول به
 الاقتراف . والمعترف بالجريرة مستحق للغفيرة . وقال ابن حازم :
 اذا ما مروء من ذنبه جاء تائباً اليك فلم تغفر له فلك الذنبُ
 وهذه طريقة طالما استعملها اهل الجنايات للاستغفار قال
 ابو نواس يعتذر الى الفضل الوزير من ذنب :

أَقْلَنِي قَدْ نَدِمْتُ مِنَ الذُّنُوبِ وبالاقرار عدتُ عن الجحودِ
 فَاسْتَدْعِي لِعَفْوِكَ عَنْ قَرِيبٍ كما استدعيتَ سَخَطَكَ عَنْ بَعِيدٍ
 فَانْ عَاقِبْتَنِي فَبَسْوَ فَعَلِي ولم تظلم عَقُونَكَ مُسْتَفِيدٍ
 وَانْ تَعْفُو فَاِحْسَانٌ جَدِيدٌ سَبَقَتْ بِهِ اِلَى شُكْرِ جَدِيدٍ

ثانيها الإخبات والخنوع وذلك اذا كان الجاني دون
 المستعطف رتبةً وقدرًا . او كان ذنبه عظيمًا . فعليه ان يذلل
 نفسه ويستكين لذوي القدرة متضعًا . كما فعل ابراهيم المهدي عند
 المأمون بعد عصيانهِ عليه فأنشده :

اَذْنَلْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا وَاَتِىْتُ لِعَفْوِ اَهْلٍ
 فَانْ عَفَوْتَ فَفَنُّ وَانْ جَزَيْتَ فَعَدْلُ

ثالثها ذكر الحلم وفضل كظم الغيظ على التشفي والانتقام
 كما قيل : ان افضل الاعمال الحلم عند الغضب . وقال الشاعر :

واصفح اذا اذنب مرة عسى تلقى اذا اذنبت من يصفح

رابعهما وصف ما يجنيه الحليم من الشكر والثناء والاسم
المخلد . قال البحري :

اذا انت لم تضرب عن الحقد لم تغز بشكر ولم تسعد بتقريظ ماحر
خامسها حسن تبرؤ الجاني من ذنبه . كما لو ذكر صفاء
مودته وحسن نيته في صنيعه وانه لم يأت ما اتى الاسهوا
ويُدْمَج كل ذلك في الاسف على غيظه للمعاتب مع ابداء
الرغبة في الرجوع عما ساءه . وذلك كما كتب ابو المظفر أسامة
ابن مرشد الى ابيه وكان مغتاظا عليه :

وما اشكو تلون اهل ودي ولو احدثت شكيتهم شكوت
ملك عتاجم ويئست منهم فما ارجوهم فيمن رجوت
اذا ادمت قوارصهم فؤادي كظمت على اذام فانطويت
ورحت عليهم طلق الحيا كاني ما سمعت ولا رأيت
تجنوا لي ذنوبا ما جنتها يداي ولا امرت ولا نحيت
ولا والله ما اضمرت غدرا كما قد اظهوره ولا نويت
ويوم الحشر موعدا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت

سادسها انتهاز الفرس كيوم عيد ومجلس أنس مع
الاستعانة بمن يُشَفِّعون . كما فعلت استير مع احشورش الملك وابيجائيل
مع داود . ولاي العتاهية ابيات ارسلها لموسى الهادي يستعطفه وكان هذا
الخليفة جلس للشعراء فلم يحسر ابو العتاهية ان يحضر ناديه :

ألا شافع عند الخليفة يشفع فيدفع عنا شر ما توقع
واني على عظم الرجاء لخائف كان على رأسي الاسنة تشرع

بروغي موسى على غير عثرة وما لي ارى موسى من العفو اوسع
وما آمنُ يُعْجِي ويصبح آمناً بعفو امير المؤمنين بروغ

فرضي عنه الهادي وأمر بدخوله واجازة

ومن قبيل الحلم الرحمة وهي: رقة القلب على من حلَّ به شيء
من المكارة

س كيف يتوسل الخطيب الى تحريك الرحمة في القلوب ؟

ج بأن يبسط الكلام في ما لحق المصاب من البلاء
والخطوب مع ذكر الظروف التي تريدها فجعة وتأثيراً كمدتها
وفظاعتها ولا سيما اذا كان المبتلى من الاصحاب والانسباء او
سيد قومه . ومن جيد ما جاء في الاسترحام رسالة يحيى البرمكي الى
هارون الرشيد بعد نكبتة وسجنه وقتل ابنه جعفر :

... من عبد اسلمته ذنوبه ، ووابقته ، عيوبه ، وخذله صديقه ، ورفضه
شقيقه ، فراح به الزمان ، واناخ عليه الحداث ، فصار الى الضيق بعد السعة ، وعلج
البؤس بعد الدعة ، واقترش السخط بعد الرضى ، واكتحل السهر ، واقتقد الهجوع
فليلته دهر ، وساعته شهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفوت ، جزعاً يا امير
المؤمنين حجب الله عني فقدك ، يا اُصْبِتُ به من مدك ، ولا لمصيتي بالاهل والمال
والولد ، فان ذلك كان بك وعارية في يدي منك ولا بأس ان تسترد العواري .
اما المحنة يجعفر فبجرمه آخذته وبجريرته عاقبته ... فاذكريا امير المؤمنين
حرمي ونصيحتي وخدمتي ، وارحم ضعفي وشيبي ، وهي لي رضى عنك فمن مثلي الزلل
ومن مثلك الإقالة ، وقد رجوت ان يطره عند الرضى وضوح عذري وصدق نيتي
وظاهر طاعتي

انظر الى الشيخ الكبير م نفسه لك راجية
اليوم قد سلب الزمان كرامتي وجهائي
ورمي سواد مقاتلي فاصاب حين رماية

يكفيك ما ابصرت من ذلّي وذلّ مكانية
ان كان لا يكفيك إلا م ان اذوق حامية
فلقد لغيت الموت من قبل المات علانية
وفُجعت اعظم فجعة وفنيت قبل فناية
يا نعمة الملك الرضى عودي علينا ثانية

ثانياً ان تبين ان من طرأت عليه المحن لم يكن
ليستحقها وانما تحامل عليه دهره ظلاماً . كما جاء في المقامات
الحريرية على لسان غلام يستعطف سيده كي لا يبيعه :

لماك الله هل مثلي يُباع لكما تشبع الكرش الجباغ
وهل في شرعة الانصاف اُني اكلف خطّة لا استطاع
وان اُبل برّوع بعد روع ومتلي حين يُبلى لا براغ
أما جرّبتني فخبرت مني نصائح لم يارزها خداع
ولم ارصدتني شرّكاً لصيد فعدت وفي حباتي السباع
ونطت بي المصاعب فاستفادت مطاوعة وكان بها امتناع
واي كريمة لم اُبل فيها وغنم لم يكن لي فيه باع
وما أبدت لي الايام جرماً فيكشف في مصارعتي القناع
ولم تمثر بحمد الله مني على عيب يكتّم او يُذاع
فأني ساغ عندك نبذ عهدي كما نبذت برأيتها الصناع
ولم سمحت قرونك بامتهاني وان يُشرى كما يُشرى المتاع
على اني سأنشد عند بيعي : اضاعوني واي فتي اضاعوا

ثالثاً ان تأتي ببعض آثار تعرضها على مرأى السامعين
فتعمل رؤيتها في قلبهم . كما لو اردت حمل القلوب على الاشفاق
لفقير ان تظهر اطماره وتُري صفاره . او لقتيل فتعرض جثته
مضرّجاً بالدم ومثخناً بالجراح وهلمّ جرّاً . كما جاء في المقامات
البديعية على لسان الاسكندري مستعطياً :

أما ترؤني اتقسي طمرا ممتطياً في الضرّ امرأ مرّاً
وكان هذا الحرّ أعلى قدراً وماء هذا الوجه أغلى سمرّاً
فانقلب الدهر لبطن ظهرا وعاد عرف العيش عندي نكراً
لولا عجز لي بسرّ من را وفرخ دون جبال بضري
قد جلب الدهر عليهم ضرّاً قتلت يا سادتي نفسي صبراً

رابعاً ومن اخصّ ما يهيج الرحمة في القلوب ان يلوح على
وجه الخطيب ويؤخذ من كلامه ما عملت في نفسه فاجعة المصاب
ليكون اللسان ترجمان الجنان . قال ابو تمام :

وما كانت الحكماء قالت : لسان المرء تبع للفؤاد

ومن الاقوال الآخذة باعنة القلوب الدالة على اتصاف قائلها بحسن
التأثير ما ورد عن ابي فراس الحمداني وهو في الأسر يذكر أمه في
منبج :

لولا العجز منبج ما خفت أسباب المنية
ولكان لي عمّاً سألت من القدى نفس ابنة
لكن اردت مرادها ولو انجذبت الى الدنية
امست منبج حرة بالخزن من بعدي حرية
فيها التقى والدين م مجموعان في نفس زكية
لا زال يطرق منبجاً في كل غادية فحبة
يا أمتا لا تحزني وثقي بفضل الله فيه
يا أمتا لا تيأسي لله الطاف خفيه
أوصيك بالصبر الجميل م فانه خير الوصية

وله أيضاً كتب به اسيف الدولة وقد بلغه علة والدته إشفاقاً على
ابنها وهو في الأسر اذ لم يرض سيف الدولة ببذل القدى عنه :

يا حسرة ما أكاد احملها آخرها مزعج واولها
عليه بالشام مفردة بات بايدي العدى مملها

تطفئها والهموم تُشعلها
عنت لها فكرة تقلقلها
بأدمع ما تكاد تحملها
ألا وفي راحتها كحلها
انت سماء ونحن انجمها
انت سحاب ونحن وابله
بأي عذر رددت والهة
تلك العقود التي عقدت لنا
ارماحنا منك لا نقطعها
سمحت في بهجة كرممت
ان كنت لم تبذل الفداء لها
تلك المودات كيف تحملها
ابن المعالي التي عرفت بها
يا واسع الدار كيف توسعها
يا ناعم الثوب كيف تبدله
يا راكب الخيل لو بصرت بنا
رأيت في الضروجهما قد كرمت
قد اثر الدهر في محاسنها
لا يفتح الناس باب مكرمة
ابن يرى دونك الكرام لها
فان سألنا سواك عارفة
لم يبق في الناس أمة عرفت
نحن احق الوري برأفته
يا متفق المال لا يريد به
اصبحت تشري مكارما فضلت
لا يقبل الله قبل فرضك ذا

تطفئها والهموم تُشعلها
عنت لها فكرة تقلقلها
بأدمع ما تكاد تحملها
ألا وفي راحتها كحلها
انت سماء ونحن انجمها
انت سحاب ونحن وابله
بأي عذر رددت والهة
تلك العقود التي عقدت لنا
ارماحنا منك لا نقطعها
سمحت في بهجة كرممت
ان كنت لم تبذل الفداء لها
تلك المودات كيف تحملها
ابن المعالي التي عرفت بها
يا واسع الدار كيف توسعها
يا ناعم الثوب كيف تبدله
يا راكب الخيل لو بصرت بنا
رأيت في الضروجهما قد كرمت
قد اثر الدهر في محاسنها
لا يفتح الناس باب مكرمة
ابن يرى دونك الكرام لها
فان سألنا سواك عارفة
لم يبق في الناس أمة عرفت
نحن احق الوري برأفته
يا متفق المال لا يريد به
اصبحت تشري مكارما فضلت
لا يقبل الله قبل فرضك ذا

الاصل الثاني

التنسيق

س ما هو التنسيق ؟

ج التنسيق في اللغة التنظيم والترتيب . وفي الاصطلاح هو عبارة عن انتظام معاني الخطابة وسياق اجزائها وسرد ادلتها على طريق نظام واحد

س ما المقصود من التنسيق ؟

ج المقصود منه ان يُحْكَم تركيب الخطبة وارتباط اقسامها بحيث تكون أبين غرضاً واحسن وقعاً في النفوس

س ما شرف التنسيق ؟

ج ان التنسيق من اعظم اركان البلاغة . وقد حدَّ بعض الاقدمين البلاغة : تصحيح الاقسام . فهي بمنزلة المصاف في العسكر . فلا نصرة لجيش لم يرع حسن النظام . وكذلك لولا ترتيب الخطبة لما اصغى السامع الى كلام الخطيب او ما ادرك الموضوع الا بعد الجهد الجهيد فلا يتحرك من ثم لمقاله مهما كان بليغاً

س كم قسماً للخطبة ؟

ج قد اختلف في تقسيم الخطبة . فمنهم من قسمها الى

سبعة اقسام هي : الفاتحة والقضية والتقسيم وايضاح المقصد
والاثبات ورد الخضم والخاتمة . ومنهم من زاد على ذلك ومنهم
من نقص . وانما مرجع هذه التقاسيم الى ثلاثة اشياء : المقدمة
والاثبات والخاتمة

الباب الاول في المقدمة

س . ما هي المقدمة ؟

ج . هي فاتحة الكلام ومرجع فحواه

س . ماذا تقتضيه المقدمة ؟

ج . لما كانت المقدمة بمثابة الاساس من البناء والرأس من
الاعضاء . لزم الخطيب ان يصرف العناية في تطريز بُرْوتها
ونسج لحمتها

س . ما هي اغراض الخطيب في المقدمة ؟

ج . للخطيب ثلاثة اغراض في المقدمة :

الاول ان يستجلب الخواطر ويؤلف القلوب . وهذا يؤخذ
من حسن الافتتاح

الثاني ان يُطلع السامعين على ما يريدُه منهم اجمالاً وذلك
يُستفاد من بيان المقصد

الثالث ان يرغب اليهم الاستماع ويحملهم على الاصغاء والاذعان لما يقول . ورجعه الى تقسيم الخطاب

البحث الأول

من الافتتاح

س ما هو الافتتاح ؟

ج هو مطلع الكلام في الخطبة

س . ما هي آداب الابتداءات في الخطابة ؟

ج قال ابن الاثير : قد خُصَّ الافتتاح بالاختيار لأنه أوّل ما يطرّق السمع من الكلام (١) . وللابتداء آداب على الخطيب ان لا يتعدّها . منها سهولة اللفظ وصحّة السبك ووضوح المعنى وتجنّب الحشو . فان كان كذلك توفّرت الدواعي على استماعه

س كيف اعتاد العرب ان يفتحوا خطبهم ؟

ج يفتتح خطباء العرب خطبهم عادةً بالحمدلة . لان النفوس تتشوق الى الثناء عليه تعالى . ثم يردفون بالسلام على انبياء الله واصفيائه (٢) . كقول ابن نباتة الخطيب :

الحمد لله فاتح ابواب الرحمة لمن طرقها، وموضع منهاج السعادة لقلوب وفقها،
وقابل الحمد من ألسنة انطقها، وشاكر البذل من يد هو الذي نولها ورزقها،
بالخير يجازي من هاجر الى سعة بابه وكرم وحلمه. احمده على ما انعم، واشكره
على ما ألهم، واستعينه واستغفره واوئل به واتوكل عليه. واستهدي الله بالهدى
واعوذ به من الضلالة والردى، ومن (الشك والعمى) من يهدي الله فهو المهتدى

س ما براءة الاستهلال؟

ج المراد بها ان يكون الابتداء لائقاً بمقتضى الحال اعني
ان يأتي الخطيب في صدر الخطبة بما يدل على المقصود منها .
فيكون الافتتاح مرتبطاً مع الخطبة ارتباط الرأس بالجسد
ومشتقاً منها كما تفتتح الازهار عن اكمامها . وذلك كقول ابن
الحديثي في استهلال خطبة القاها يوم عيد البشارة بيوحنا المعمدان قال :

الحمد لله مترف من يصفيه لطاعته بلطف حبائه، ومبهج من يختاره لخدمته
بشريف إرعائه، وملبس من يجتبه نعمته سرايل جانه، ومحلّي اجياد الواقفين
على سرائر حكمته بنفائس نعمائه، (الذي ارسل من مرادق الوهية ملكاً قدسياً
الى زكريائه مبشراً له يوم عيد الغفران بيوحنا) ليمضي امام الرب بأيده
العلوي وروح ايليائه، ليبشر بالحياة الابدية الساكنين تحت ظلال الموت وافيائه،
نحمده حمد المخلصين في طاعته وحسن ولائه، ونشكره على ما اسدى الينا من
جزائل صنائعه وآلائه...

س ماذا يستهجن في مقدمات الخطب؟

ج يستهجن فيها : أولاً ان تكون مسهبة مستطيلة
فيضجر السامع لطولها

ثانياً ان تكون مبتذلة مشاعة بحيث تصلح لكل خطبة .

وهذا كثير في دواوين خطباء العرب . فمن ذلك قول البولاق في
 بدء خطبة لشعبان :

« الحمد لله اللطيف الصنع الجميل العوائد . باسط يد الاحسان والغفران لكل
 عائد . فما من مخلوق الا من ثمار احسانه اقتطف . ولا رجع اليه مذب الا وقبله .
 وغفر له قبيح ما عمله . وعليه بمواطف احسانه عطف . . . »

فان هذا وامثاله مع حسن نسجه شائع عام يمكن ان تصدر به اي
 خطبة كانت

ثالثاً ان لا توافق الموضوع فتكون قلقة غير ملتحمة معه
 (فائدة) اعلم ان خطباء العرب كانوا يعدون الحمدة وبراءة
 الاستهلال من اخص اسباب البلاغة فيعتنون بتنسيقها الغاية القصوى . اما
 الخطابة العصرية الجارية على الطريقة الاوربية فانها تفضل مباشرة الخطبة
 دون هذه المقدمات النافلة التي تشغل العقل بزخرفها الباطل مع قلّة فائدتها
 لادراك غاية الخطيب اي الاقتناع

س ما هو فصل الخطاب عند العرب ؟

ج هو القول الفاصل بين المقدمات السابق ذكرها من
 حمدة وصلاة على الانبياء وبين موضوع الخطاب . وكانوا
 يشيرون اليه بأمّا بعد اي بعد الدعاء والحمدلة

س ما هي موارد الافتتاحات في الخطب العصرية ؟

ج يستمد الخطباء العصريون افتتاحات خطبهم من
 موارد شتى :

أولاً يستهلون بحكمة او مثل او ببعض اقوال للمتقدمين
كما فعل ناتان النبي لما دخل على داود الملك يبيته على خطيئته فانه افتتح
خطابه له بمثل غني اغتصب شاة فقير مظلوم فكان خطابه احسن وقع .
ومثله لایام الخطباء يوحنا في المذهب في مفتتح خطبته بعد سقوط
أتروب من مقام الوزارة والتجاني الى الكنيسة ليلوذ بحرمتها من غضب
اعدائه فابتدأ بقوله :

باطل الاباطيل وكل شيء في هذه الدنيا باطل . الى م آلت تلك الأبهة
والفخفخة . وابن ذهبت تلك الاعياد السارة والزينات الزاهرة والانوار الباهرة
والملاذ الوافرة والمآدب الفاخرة . ابن ما كنت تبرج به من الحلى البهية والملابس
الارجوانية والتيجان الذهبية . . . قد اضمحل الكل وتقلص كما يتقلص الخيال
والظلم . عصفت الزوامة فزعزت الشجرة الباسقة ونثرت اوراقها بل قطعت جذورها
فالتوى حذعها وسقطت الآن على الارض التي كانت تأنف ان تتخذها لها موطناً . . .

ثانياً وربما ابتدأ الخطيب بعرض قضيته او ذكر الواقع
دون تلبث . كما فعل بولس الرسول لما احتج امام اليهود في اورشليم
وكانوا قبضوا عليه ليقتلوه لنبذهم لمذهبهم فخطبهم بلغتهم العبرانية
واستجلب بذلك خاطرهم وهدأ بلبالهم فقال :

ايها الرجال أخوة وآباء اسمعوا احتجاجي الان عنكم . اني رجل يهودي
ولدت في طرسوس قيلية لكن ربيت في هذه المدينة وتأدبت لدى قدمي جليليل
على حقيقة الناموس الابوي وكنت غيوراً لله كما انتم جميعكم اليوم . وقد اضطهدت
هذه الطريقة (اي الدين المسيحي) حتى بالموت مقيداً ومسلماً الى السجون رجلاً
ونساء . كما يشهد لي رئيس الكهنة وجميع الشيوخ الذين اخذت منهم رسائل الى
الاخوة وانطلقت الى دمشق لاتي بمن هناك الى اورشليم موثقين ليما قبوا . . .

ومثله للاحتف لما قدم بقومه من البصرة الى علي يطلبون منه ان
يجفر لهم قناة ماء عذب تتصل بدجلة والفرات :

يا امير المؤمنين ان مفاتيح الخير بيدي الله وقد انتك وفود اهل العراق وان اخواننا من اهل الكوفة والشام ومصر تزلوا منازل الامم الخالية والملك الجابرة منازل كسرى وقيصر وبني الاصغر فهم من المياه العذبة والحنان المختلفة في حواء السلى وحدقة البعير تأتهم غارهم غصة . وانا نزلنا نشأته لها طرف في فلاة وطرف في ملح أجاج جانب منها منابت القصب وجانب سبخة نشأته لا يحف ترابها ولا بيت مرعاها تأتينا منافعها في مثل مري النعامة . يخرج الرجل الضعيف من يستعذب الماء من فرسخين ويخرج المرأة بمثل ذلك ترنق ولدها ترنق العز تخاف عليه العدو والسبع . فالأ ترفع خسيبنا وتنمش ركبنا ونجبر فاقنا وتريد في عيالنا عيالاً وفي رجالنا رجالاً وتصفّر درهمنا وتكبر قفيزنا وتأمر لنا بحفر نحر نستعذب به الماء هلكنا

ثالثاً وقد يتبدى الخطيب بذكر قول خصمه او عرض القضية المخالفة لما حاول تقريره أو بذكر القضية على الوجه العام قبل ان ينتقل الى تخصيصها . كقول علي وقد استهل خطابه بنعت الرجل الصالح المتعبد :

ان من احب عباد الله اليه عبداً اعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف . فظهر مصباح الهدى في قلبه وأعد القرى ليومه النازل به . فقرّب على نفسه البعيد وهون الشديد . نظر فابصر . وذكر فاستكثر . وارثوى من عذب فرات . سهلت له موارده فشرب خلا . وسلك سبيلاً جددًا . قد خلع سرايل الشهوات وتخلّى من الموموم الآهها واحداً انفرّد به فخرج من العمى ومشاركة اهل الهوى . وصار من مفاتيح ابواب الهدى . ومغاليق ابواب الردى . قد ابصر طريقه وسلك سبيله . وعرف مناره . وقطع غماره . استمسك من العرى بأوتقها . ومن الجبال بأمتنها . فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس قد نصب نفسه سبحانه في ارفع الامور من إصدار كل وارد عليه وتصيير كل فرع الى اصله

رابعاً وكثيراً ما تؤخذ معاني الافتتاحات من احوال الخطيب والسامعين او من ظروف الزمان والمكان . فان ما

يأتي به لسان الحال امتع في النفوس واعطف للخواطر . مثال ذلك قول الرسول بولس في خطبته امام محفل اريوس باغوس في اثينا :

يا رجال اثينا اني ارى انكم في كل شيء 'تقالون في العبادة . لاني في مروري ومعاينتي لمناسككم صادفتُ مذهباً مكتوباً عليه : للاله المجهول . فهذا الذي تعبدهم وأنتم تجهلونهُ به انا أبشركم . ان هذا الاله هو الذي صنع العالم وجميع ما فيه لكونه رب السماء والارض لا يحل في هياكل مصنوعة بالايدي ولا تخدمه ايدي البشر كأنه محتاج الى شيء اذ هو يعطي للجميع حياةً ونفساً وكل شيء . . .

س كم نوعاً الافتتاحات ؟

ج انواعها اربعة :

الساذج . والجزل . والبديهي . والملوح او المعروض

س ما الافتتاح الساذج ؟

ج هو ما اخذ شرح الموضوع دون تكلف . وهو أخرى بالخطب العادية ومحافل الادب ومجالس التشاور والعظات . كقول الذهبي الفم في مطلع خطبة مرتبة على مثل قاضي الظلم :

ان سيدنا له المجد لاجل رأفته واشفاقه علينا يبحثنا على ما فيه خلاصنا فيطلب منا ان نصلي دائماً ونطلب نعمته طلباً متواتراً لتكون رحمته لنا واحسانه علينا بطريق الاستحقاق . ويضرب على ذلك لنا الامثال بقاضي الظلم والمتمسس الخبز من صديقهِ بالخالج تكرار وغير ذلك . ويُنهض عزمنا ويضرم نار شوقنا ويبكت نفوسنا المتراخية في حقيقة الطلب . ويقول اذا كان هذا القاضي الظالم الزماني الآخذ بالوجوه المرتبي في الاحكام البعيد عن الخوف من الله وعن الحياء من الناس لما اضجرته بالإلحاح وتكرار الطلب تلك المرأة الارملة الحالية من الحقوق الموجبة الانتقام من خصمها . قام لها هذا الإلحاح مقام الرجال والمال وكانت كأنها اجبرت حاكم الارض على الانتقام من غريمها . فكيف لا يعطينا ملكُ الملوك الحاكم على جميع مطلوباتنا اذا كنا نسأله دائماً باجتهاد . . .

وَقَوْلُ ابِي بَكْرٍ يَوْمَ بَوَيْعِ لَهُ بِالْخِلاَفَةِ :

اِجْمَعُوا النَّاسَ اِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِغَيْرِكُمْ فَاِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى حَقِّ فَاعْمِدُونِي وَانْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى بَاطِلٍ فَسَدِّدُونِي . اَطِيعُونِي فِي مَا اطَعْتُ اللهَ فِيكُمْ فَاِذَا عَصَيْتُهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ . اِلَّا اِنْ اَقْوَامَكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ لَهُ وَأَضْعَفُكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ . اَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَاسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ

س ما الافتتاح الجزل ؟

ج هو ما كان انيق اللفظ شريف المعنى يزينه حسن التعبير ورواقته وهو يصلح للظروف الخارقة العادة والمواقع الشريفة اذ يتوقع الجمهور ما يترجم عن عظام الامور . كقول ابى بكر يوم موت محمد :

اِجْمَعُوا النَّاسَ اِنَّهُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَانْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ لَمْ يَمُوتْ

وَقَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ زُبَيْرٍ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ اخِيهِ مُصْعَبٍ فَحَمَدَ اللهَ وَسَكَتَ وَجَعَلَ لَوْنُهُ يَحْمَرُّ مَرَّةً وَيَصْفَرُّ اُخْرَى وَاسْتَدَّ عَلَيْهِ ذِكْرُ مَقْتَلِ سَيِّدِ الْعَرَبِ ثُمَّ تَكَلَّمَ فَقَالَ :

الْحَمْدُ لله لَهُ الْخَلْقُ وَالْاَمْرُ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ . اَللّٰهُمَّ تَوَتَّى الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءَ وَتَتَرَعَّ مِنْ تَشَاءَ . وَتُعْزِزُ مِنْ تَشَاءَ . وَتُذَلُّ مِنْ تَشَاءَ . اَمَّا بَعْدُ فَانَّهُ لَمْ يَعْزُهُ اللهُ مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ وَانْ كَانَ مَعَهُ الْاِثْمَانُ طَرًّا وَلَمْ يُذَلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَانْ كَانَ فَرْدًا . اَلَّا وَانَّ خَبْرًا مِنَ الْعِرَاقِ اَتَانَا فَاَحْزَنَتْنَا وَافْرَحْنَا . فَاَمَّا الَّذِي اَحْزَنَتْنَا فَاِنْ لِفِرَاقِ الْحَمِيمِ لَوْعَةً يَحْزِنُنَا حَمِيمًا . ثُمَّ دَعَا ذَوِي الْاَبْلَابِ اِلَى الصَّبْرِ وَكَرَّمَ الْعِزَّاءَ . وَامَّا الَّذِي اَفْرَحْنَا فَانْ قَتَلَ الْمُصْعَبَ لَهُ شَهَادَةٌ وَلَنَا ذَخِيرَةٌ اَسْلَمَهُ النِّعَامُ الْمُظْلَمُ . اَلَّا وَانْ اَهْلَ الْعِرَاقِ بَاعَوْهُ بِاَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ . فَاِنْ يُقْتَلُ فَقَدْ قُتِلَ اَخُوهُ وَابُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ . اَنَا وَاللهُ لَا نَغُوتُ حَقًّا وَلَكِنْ قَصْفًا بِالرَّمْحِ وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ كَمَا يَمُوتُ بَنُو مُرَّوَانَ . اَلَّا اِنَّمَا الدُّنْيَا عَارِيَةٌ مِنْ

المَلِكِ الاعلى الذي لا يبيد ذكر هؤلاء ولا يذلّ سلطانه. فان تُقْبِلَ الدنيا عليّ لم
أخذها أخذ الأشر البطر وان تُدبر عني لم ابك عليها بكاء الحرق المهيّن

ومن هذا القليل ايضاً افتتح ابي الحسن الانباري قصيدته في الوزير
ابي طاهر لما صلبه عضد الدولة فقال :

علوّ في الحياة وفي الممات لعمرى تلك احدى المعجزات . . .

س ما هو الافتتاح البديهي ؟

ج هو ما اصاب مسامع الحضار على غرارة دون توقع
وابرز عن حميم العواطف ومقامه المواقع الباغية والطواري
المفجعة . كقول صالح بن علي لاهل المدينة . وكانوا قد استصغروا
همته :

يا اعضاء النفاق وعبيد الضلالة اغرّكم لين اساسي وطول اباسي حتى ظنّ جاهلكم
ان ذلك لفلول حدّ وفطور جدّ وخور قناة . كذبت الظنون انّها العترة بعضها من
بعض . فاذا قد استوليت العافية فعندي فطام ، وفكاك وسيف يقدّ الهام

و كقول الذهبي في استهلال خطبة القاها في قول الانجيل : انسان
غني اخصبت كورته :

يا للعجب ان الذين يريدون السفر الى وطنهم من البلاد الغريبة يقطعون علائق
الاقامة بما ويكونون دائماً متأهين مشمّرين مستعدين للرحيل عازمين على الانتقال
الى بلادهم . فتراهم يبيعون الاثقال ويقايضون بالامتنعة ويعدّون الزاد والمهمات
للسفر . ونحن المؤمنون بالموت والقيامة والحساب والمجازاة نوجد هكذا متلقّين
بالاموال منهمكين في جمعها وتكثيرها ومهتمين بتحصيل اللذات العالمة . وكيف
تقول يا هذا ان القيامة سوف تقوم وان الناس يُحاسبون على اعمالهم وانت مقبّط
بحاسن الخطام الدنيوي متمسكٌ بازمة الاباطيل الزائلة متعبّدٌ للذات الفاسدة
والشهوات الخبيثة ؟

س ما الاستهلال الملوّح او المعروض ؟

ج الملوّح في اللغة خلاف المصرّح وكذلك المعروض .
وهو في الاصطلاح ما يخرج مخرج الكناية والتلويح يأتي به
الخطيب اذا احتاج الى استعطاف خواطر الجمهور النافرة او
رأى المقصود عسر الخطّة بعيد المتناول . كقول الاناء المصطفى لما
احتجّ امام اغريبا الملك وقد عمد الى ملته به بافتتاح لطيف :

اني احسب نفسي سعيداً ايها الملك اغريبا لاني احتجّ اليوم امامك عن كلّ ما
يشكوني يو اليهود ولاسيما وانت خبيرٌ بكل ما لليهود من سُنن ومساائل فلهذا
اسألك ان تسمع لي بطول الاناة . انّ سيرتي منذ صباي التي من البدء كانت لي بين
امتي باورشليم يعرفها جميع اليهود الذين عرفوني من الاول لو ارادوا ان يشهدوا اني
قد عشت فريسيّاً على مذهب ديننا الاقوم . والآن انا واقف أحاكم على رجاء الوعد
الذي سبق من الله للآباء الذي يؤمل اسباطنا الاثنا عشر البلوغ اليه متعبدين بالثابرة
ليلاً ونهاراً فهذا الرجاء شكاني اليهود ايها الملك أفيجسب عندكم غير مصدّق ان
الله يقيم الاموات ؟ . .

س اي طبقة من الانشاء اولى بافتتاح الخطب ؟

ج ان الانشاء الساذج هو الخصيص بالافتتاحات وقد
قال القدماء : كل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر وينمو . وزد على
ذلك ان السذاجة في الاستهلال أدعى الى ثقة السامع بالخطيب
لاسيما في خطب المحاكمات والتشااور والعظات

وقد استثنوا من ذلك الافتتاحات الجزلة فإنّها تستلزم
شيئاً من التأثّق ومن براعة الانشاء

البحث الثاني

في بيان المقصد

س ما هو بيان المقصد ؟

ج هو عَرَضُ القضية التي يريد الخطيب اثباتها اذ يكشف غاية كلامه للحضور

س كم هي الصفات الثلاثة لبيان المقصد ؟

ج اربع :

الاولى ان يكون مترتباً على قضية واحدة ليس الا لان وحدة الخطاب تقضي بوحدة القضية ووحدة الغاية كما لو اردت ان تبني الكلام على العدل فانك تقول : ان العدل اساس عمران الدول الثانية ان يكون واضحاً لان الغرض اذا كان بعيد المأخذ اعتاص على السامع فتبرم منه . فان جعلت كلامك على حسن الخلق قلت : « مَنْ ساء خلقه تنكّدت عيشته » او تقول في شرف العقل : « خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل »

الثالثة ان ينشط السامعين بابتكار صورته ولطيف مخرجه كقولك في كثرة خطوب الدهو مع مَنْ قال : « الليل والنهار غرسان يشمران للبرية صنوف البلية » . او مع الآخر : « زوايا الدنيا مشحونة بالزوايا » . او مع الشافعي :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي وسروره يأتيك كالاغيار

الرابعة ان تعود اليه بقيّة اقسام الخطبة لانه كما قيل :
الخروج عما بُني عليه الكلام اسهاب

س هل واجب على الخطيب التصريح بمقصده دائماً ؟

ج لا بُدّ من بيان الموضوع اجمالاً في كل الخطب . امّا
كشف الغاية الخصوصية التي يتحرّرها الخطيب فلا حاجة اليه
دائماً اذا خاف الخطيب من كشفه ضرراً فينبغي على الخطيب
ان يُعدّ قلوب الحضور بلطف الى قبوله تدريجاً . كما فعل رسول
الامم في خطبته الى اهل انطاكية بيسيدية فانه ادرج المقصود في اثناء
خطبته ولم يصرح به الا في آخر الكلام فقال :

يا رجال اسرائيل والذين يتّقون الله اسمعوا ان اله هذا الشعب اختار اباؤنا
وعظّم الشعب في غربته في ارض مصر واخرجهم منها بذراع رفيعة واحتمل
اخلاقهم مدّة اربعين سنة في البرية واستأصل سبع امم في ارض كنعان وقسم لهم
ارضهم بالقرعة بعد نحو اربع مئة وخمسين سنة . وبعد ذلك اعطاهم قضاء الى صموئيل
النبي . وبعده سألوا ملكاً فاعطاهم الله شاول ابن قيس رجلاً من سبط بنيامين مدّة
اربعين سنة ثم عزله واقام داود ملكاً عليهم وهو الذي شهد له قائلاً : اني وجدت
داود بن يسى رجلاً على حسب قلبي يعمل بمشيئتي كلها . ومن نسل هذا اقام الله يسوع
لاسرائيل مخلصاً بحسب الوعد . وقد سبق يوحنا فكرز امام مجيئه بممودية التوبة
لجميع شعب اسرائيل . ولما بلغ يوحنا قضاء سعيه قال : الذي تحسبون اني انا هو
لست انا به ولكن هوذا ياتي بعدي من لا استحق ان احلّ حذاء رحليه . اجا
الرجال الاخوة بني ذرية ابراهيم ومن يتقي الله بنكم . اليكم أرسلت كلمة هذا
الخلاص لان الساكنين في اورشليم وروّسائهم من حيث انهم لم يعرفوه اَتَمُّوا بالقضاء
عليه اقوال الانبياء التي تُكْتَل في كل سبت . ومع انهم لم يجدوا عليه علّة للموت
طلبوا من يلاطس أن يُقتل ولما اتوا كلّ ما كتب عنه اَترلوه عن الحشبة وجعلوه
في قبر لكن الله اقامه من بين الاموات وتراءى اياماً كثيرةً للذين معه من الجليل
الى اورشليم وهم شهوده الان عند الشعب

(فائدة) ولعلّ العرب دعوا بيان المقصد باسماء غير هذه . وربما سموه بالسمة . جاء في شرح التهذيب : السمة هي عنوان الخطاب ليكون عند الناظر اجمال ما يفصله الغرض

البحث الثالث

في تقسيم الخطبة

س ما هو التقسيم ؟

ج التقسيم عموماً استيفاء المتكلم اقسام المعنى الذي هو أخذ فيه . وفي اصطلاح الخطباء هو تفصيل المقصد باجزائه بعد ذكره مجملًا . كقول بعض الحكماء يعدّد مرافق الدنيا :

الدنيا تُطَلَّبُ لثلاثة اشياء للغنى والعزّة والراحة . فمن اقتنع استغنى ومن زهد فيها عزّ ومن قلّ سعيه استراح

س ما هي فوائد التقسيم ؟

ج للتقسيم ثلاث فوائد : الاولى للخطيب ليلزم موضوع خطبته ويحترز عن تكرار المعاني . والثانية للسامع ليقف على مقصود الخطيب ويدرك نسق كلامه . والثالثة للخطبة فان التقسيم يجديها حسناً وايضاحاً . كقول الخليفة المأمون في تقسيم الاخوان

الاخوان على ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه . وطبقة كالدواء يُحتاج اليه احياناً . وطبقة كالداء لا يُحتاج اليه ابداً

س كم هي صفات التقسيم الحسن ؟

ج خمس :

الاولى ان تكون القسمة مستوية اي شاملة لكل اجزاء
الموضوع . كقول يونس النحوي في السكر واصنافه :
السكر خمسة : سكر الشباب . وسكر الشراب . وسكر المال . وسكر
المشق . وسكر الولاية

وقد نظمها شاعر فقال :

سَكَرَاتُ خَمْسٍ اِذَا مُنِيَ الْمَرْءُ مِجْمَا صَارَ عَرْضَةً لِلزَّمَانِ
سَكْرَةُ الْمَالِ وَالْحِدَاثَةِ وَالْمَشَقِّ مِ وسَكْرُ الشَّرَابِ وَالسُّلْطَانِ

وقد اخطأ على خلاف ذلك ابو الفتح البستي حيث قال :

امور الدنيا تدور على شئتين : رفق العلم وخرق السيف

ألا ترى ان امور الدنيا تدور على اشياء كثيرة دون هذين

الثانية ان تكون الاقسام متباينة لا يدخل بعضها في

بعض . مثاله قول محمود الرأق في الصفح عن القريب وقد أحسن :

سَأَلْتُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مَذْنِبٍ وَانْ عَظُمَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلُ مُقَاوِمٍ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ وَاتَّبَعْ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَاِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ إِجَابَتِهِ نَفْسِي وَانْ لَمْ لَأَمْ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَاِنْ قَالَ اَوْ هَذَا تَفَضَّلْتُ اِنَّ الْحِلْمَ بِالْفَضْلِ حَاكِمٌ

وعلى عكس ذلك لم يُحسن التقسيم من قسم الصديق قسمين :

صديق ينفع وصديق يشفع . لأن الشفاعة من المنافع

الثالثة ان يكون التقسيم واضحاً قريب المنال يتلقاه

السامع بسهولة فيرسخ في ذهنه . كقول محمد بن زكريا في تقسيم غاية الطب :

الطب شئان : حفظ الصحة ومروءة العلة

وكقول علي في افضل الوراثه :

ثلاثة هي افضل ما يورثه الآباء الابناء : الثناء الحسن والادب الصالح والاخوان الثقات

الرابعة ان يكون مبتكراً موجزاً . كقول خوارزم شاه مأمون في دواعي المحبة :

ثلاثة تورث المحبة : الادب والتواضع والدين

وكقول الحسن بن علي الذي قسم الناس الى ثلاثة اقسام فقال :

الناس ثلاثة فرجلٌ رجلٌ . ورجلٌ نصف رجل . ورجلٌ لا رجل . فاما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة . واما الرجل نصف الرجل فالذي له رأي ولا يشاور . واما الذي ليس برجل فالذي لا رأي له ولا يشاور

الخامسة ان يكون ذا تدريج بحيث يزيد القسم الثاني على الاول والقسم الثالث على كليهما . كقول شاعر في تقسيم الزمان

اغماً هذه الحياة متاعٌ والسفينة الفنى من يصطفها
ما مضى فات والموئل غيبٌ ولك الساعة التي انت فيها

وكقول الخليل بن احمد في تقسيم الناس من حيث العلم :

الناس اربعة : رجلٌ يدري ويدري انه يدري فذلك عالمٌ فاسأله . ورجل يدري ولا يدري انه يدري فذلك ناسٌ فذكروه . ورجل لا يدري ولا يدري انه لا يدري فذلك جاهل فاحذروه

(فائدة) وربما الحقوا ببيان المقصد والتقسيم تعزيزاً لهما ورغبة في الإيضاح ذكرَ الواقع وذلك اذا كان المقصد مبنياً على حادث واقعي لا على قضية عقلية . فايراد الواقع المذكور يسمى بالرواية الخطابية

البحث الرابع في الرواية الخطابية

س ماهي الرواية الخطابية ؟

ج هي ايراد امر واقعي يُبنى على ظروفه كلام الخطيب لغاية الاقناع

(فائدة) ليس الكلام هنا عن بعض اخبار يرويها الخطيب تفكهاً للسامعين او تأييداً لاقواله او كبرهان تمثيلي لقضية من القضايا فان الرواية حينئذٍ تُنظم في سلك البراهين وتفيد لتحريك الالهواء . وانما المقصود هو الرواية التي تؤخذ كاساس كلام الخطيب وعلى تفاصيلها تدور المباحثة

س باي شيء تمتاز الرواية الخطابية عما سواها ؟

ج تمتاز عنها بسمتين بغايتها وبالوسائل التي تتوسل بها لتلك الغاية . فاماً غايتها فهي ان تمهد الطريق لاقتناع الجمهور . واماً وسائلها التي تستخدمها لبلوغ تلك الغاية فهي الاسترسال في بيان الظروف الملأمة لمقصود الخطيب والإعراض عما

سواها . وان كان لا بُدَّ للخطيب من ذكر ما يخلِّ بمقصوده
فيتلطف في ايراده ويخرجه على صورة توافق غرضه
س كم نوعاً الرواية الخطابية ؟

ج الرواية الخطابية نوعان اماً قضائية واما اخبارية
س ما الرواية القضائية ؟

ج هي التي تذكر حادثاً طُرح على بساط المناقشة . وذلك
في الدعاوي خصوصاً اذ عليها تتوقف المشاجرة وعلى محورها
تدور المقاضاة . مثاله رواية بواس الرسول اذ قام يدافع عن نفسه امام
الوالي الروماني فيلكس (سفر الاعمال ف ٢٤) :

بما أني أعلم بأنك قاضي لهذه الأمة منذ سنين كثيرة فبطيب نفس أُجيب عن
نفسي انه يكفك ان تعلم ان لبس لي أكثر من اثني عشر يوماً منذ صعدتُ الى
اورشليم للعبادة ولم يجدوني في الهيكل أفاوض احداً ولا أهبيج الجمع لا في المجامع
ولا في المدينة ولا يستطيعون ان يبرهنوا على ما يشكونني به الآن ولكني اقرُّ لك
اني بحسب الطريقة التي يسلمونها شيعة اعبُد اله آبائي مؤناً بكل ما كُتب في
الناموس والانبياء ومؤملاً من الله ما ينتظرونه هم ايضاً انما سوف تكون قيامة
للاموات الابرار منهم والأئمة . لهذا أدرب نفسي ليكون لي دائماً ضمير لا عثار
به امام الله والناس . وبعد سنين كثيرة جئتُ لاصنع صدقاتٍ لأمّتي واقدم قرابين
فعلى هذا وجدني قومٌ من اليهود من آسية متطرباً في الهيكل لا مع جمعٍ ولا في فتنه .
وكان يجب عليهم ان يحضروا لديك ويشكوا ان كان لهم عليّ شيءٌ او ليقُل هوّلاً .
ماذا وجدوا فيّ من اثمٍ وانا قائمٌ امام المحفل سوى هذا القول وحده الذي صحتُ
به لما وقفتُ بهم : اني على قيامة الاموات أحاكم منكم اليوم

س ما الرواية الاخبارية ؟

ج هي التي تؤخذ كأساس الخطاب في التعليم او في الاقوال المشورية والاغراض المدنية . كما لو اراد احد ان يخطب في مساعدة منكوبين روى الخبر الداعي الى جمع الاحسانات . وان خطب في عيد ذكر الموجب لحفلة . ومثل ذلك قول ابي الحليم في الاحد المعروف بالخطاينة والمعتلي :

ما قرع اليوم اسماعكم من قصة مريم الخطاينة وشمعون المعتلي ، قد اورده لوقا الرسولي السمائي بالقول الواضح الجلي ، انظروا الى الرحمة المسيحية ما اوفرها والى فرط عنايته بالخطائين ما اغزرها واكثرها ، قدمت الخطاينة من تيه الضلال ، وارست سفينة رجائها في ميناء القدس ومعدن الافصال ، مزقت عنها ملابس الخطيئة والآثام ، وألقت عن كاهل قلبها ثقل الذنوب والاجرام ، حققت العزم على ان تتوب ، وان تخرج الى دائرة الطاعات من خطئة المعاصي والذنوب ، هجمت على منزل المعتلي ، رأت من خلال ستور الناسوت نور الازلي ، خرّت ساجدة بين يديه كزهرة زاوية وغصن ذابل ، انت كجريح مضرج بالدماء قد أنكأت في جسده الهازم والذوابل ، فلما حدثق اليها استلمجت من اساور وجهه آثار الرضاء ، وأيقنت من بشر حيائه بمحصول الغرض وقوة الرضاء ، بجلايب التوبة حالية ، وهمتها عن شهوات الاجساد عالية ، على انها مثل كرمه كانت تحمل الاشواك والخرنوب ، وقد نثرت عن اغصانها اوراق المعاصي وعناقيد الذنوب ، رآها كنمنجة ضالّة قد خطفها سبع الخطيئة بمخاليبه ، واخرجها الشيطان عن ضجع الهدى واركبها اوعار اساليبه ، رق لها القلب الشريف ، وفاضت منابع الرحمة على العضو الضيف ، أباحها الإقدام على لثم اقدامه ، وجذبها من اساليب الضلال بكلايب كلامه ، قامت على قدم العزم مجدّة في اجتذاب النعمة ، قارعة بطارق التوبة القلبية باب الرحمة ، شبت في قلبها نار الخشوع ، وقطرت من غمام عينيها سحاب الدموع ، ايقنت ان ذنوبها مصفوحة ، وأبواب الحدور الملكوتية أمامها مفتوحة ، غسّلت بدموعها رجلين باقدار الخطيئة لم تدنّسا ، وسكبت الدهن الثمين على قدم لم يزل بالقدس مقدّسا ، نشفت بصفائر شرها اقدامه ، عفّرت أوراد الحدود امامه ، ايقنت ان الشفاء عنده موجود ، كشفت معضل دائها الى ساعور بيارستان الوجود ، أبرز لها من خزانة الرحمة شراب الغفران ، وقال : انك كنت ميّنة بالخطيئة وقد حييت الان بالايان ...

إيمانك احياء فاذهي بسلام

س اين محل الرواية من الخطاب ؟

ج الرواية الخطابية لكونها اساساً للمناقشة وركناً للبحث تجعل عادة بعد بيان المقصد وقبل الاثبات . الا اذا كانت الخطب ثنائية او تأييدية فتمتزع حينئذ الرواية بالاثبات في الخطاب كله . اما الروايات العرضية التي يأتي بها الخطيب في مطاوي كلامه تنميقاً له او تأييداً لبعض ادلته فوقعها في القسم الذي يوافقها وتستعمار له

س ما هي صفات الرواية الخطابية ؟

ج اولها الوضوح دفعا للمحاكمة في الجدل ثانيها الاجاز في ما سوى خطب الثناء او التأييد او التفسير لان رواياتها هي داخلة في الاثبات كما مر ثالثها الصدق . ولا ينبغي فيه إضراب الخطيب عن بعض الظروف التي تضر بغايته ريثما يعرضها الخصم فيفتنّها الخطيب او يفسرها

الباب الثاني

في الاثبات

س ما الاثبات ؟

ج الاثبات في اللغة التمكين يقال : اثبت الامر اي

جملة ممكنة . وهو في الاصطلاح عبارة عن تأييد القضية بالبرهان وهو قلب الخطاب وغاية مقصود السامعين

س كم قسماً الاثبات ؟

ج الاثبات قسمان : قسم ايجابي وهو ما اشتمل على شرح القضية وتعزيزها بالادلة الالامعة والحجج الراهنة ويسمى التبيان . وقسم سائي يرد فيه الخطيب على حُجج الخصم ويدحض مقاله ويسمى التنفيد

البحث الاول

في نيانه القضية

س ما الطريقة لتبيان القضية ؟

ج ان الطريقة لذلك معرفة علم البحث والجدل

س ما هو البحث ؟

ج البحث في اللغة التفحص . وفي اصطلاح اهل النظر ارادوا به حمل ثي . على آخر ثم خصوا به اثبات القضية بالدليل (١)

قال ابن خلدون : لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل

(١) وفي تعريفات المرجاني : البحث اثبات النسبة الايجابية او السلبية بين الشئيين بطريق الاستدلال

واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأً فاحتاج الأئمة الى ان يضعوا آداباً واحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب ومحلّ اعتراضه او معارضته واین يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال

س على اي شيء يترتب علم البحث في اثبات القضية ؟

ج يترتب على معرفة القياس لأنّ به يتوصل الخطيب الى تأييد رأيه وتخطئة رأي خصمه (١)

س ما هو القياس ؟

ج القياس لغة التقدير والتشبيه . وفي الاصطلاح هو قول مؤلف من قضايا واحكام اذا سلّمت لزم عنها لذاتها قول آخر يدعى النتيجة (٢)

س ما هي القضية في القياس وما الحكم ؟

ج القضية قول يعبر به عن حكم ويصحّ ان يقال لقائله انه صادق او كاذب . امّا الحكم فإسناد امر الى آخر ايجاباً او سلباً . وبكلام آخر هو نسبة الشيء الى غيره او نفيه عنه (٣)

س من كم جز . تتركّب القضية ؟

(١) راجع آداب البحث للسمرقندي

(٢) التهانوي والحاج خليفة

(٣) تعريفات الجرجاني

ج تتركب من جزئين يسميان طرفيها او حديها احدهما وهو المحكوم عليه يسمى موضوعاً وثانيهما وهو المحكوم به يسمى محمولاً كقولك : الله عادل . فالله هو الموضوع وعادل هو المحمول . واسنادك العدل الى الله هو القضية او الحكم

س كم قضية للقياس وما هي ؟

ج له ثلاث قضايا المقدماتان : وهما الكبرى والصغرى ثم النتيجة كقولك : كل انسان حيوان وكل حيوان جسم فكل انسان جسم . فالقضيتان الاوليان هما المقدماتان ويدعون الاولى بالكبرى لدخول الثانية اي الصغرى في حكمها . اما القضية الثالثة فتدعى بالمطلوب وهي النتيجة الحاصلة منهما فالمطلوب في القياس السابق قوله كل انسان جسم (١)

س ما هي الطريقة لاستنباط القياس ؟

ج ان اردت اثبات قضية ما بالقياس فعليك ان تعرض طرفيها او حديها (اي موضوعها ومحمولها) على حد آخر يُعرف بالحد الاوسط فان ثبتت المقابلة صحّ القياس والا فلا

س اورد مثلاً على ذلك ؟

ج اذا قصد الخطيب ان يثبت حدوث العالم مثلاً

فيلتجى^١ الى قضية اخرى مشهورة يجد فيها حداً للقياس وهي
كون المتغير حادثاً فيقول: كل متغير حادث والعالم متغير فهو حادث.
فالحدث مدّ اكبر والعالم حدّ اصغر والمتغير هو الحدّ الاوسط. سمي
بذلك لتوسطه بين طرفي المطالب (١)

س كم هي القياسات الخطابية ؟

ج هي ستة : القياس التام . والقياس الاضماري .
والاستقرائي . والقياس التمثيلي . وذو الحدّين . والقياس
المركّب

١ القياس التام

س ما هو القياس التام ؟

ج هو ما حوت كلنا مقدّمته الحدّ الاوسط مع احد
طرفي النتيجة كقولك : لكل معلول علّة والعالم معلول فللعالم علّة
فالحدّ الاوسط هو المعلول ورد في الكبرى وفي الصغرى .
وطرفا المطلوب اي للعالم علّة يردا في المقدّمتين كما ترى

س كم نوعاً القياس التام ؟

ج القياس التام امّا منطقي ويقال له العقلي ايضاً وامّا
خطابي . فالمنطقي كالمثل السابق وغايته عصمة الذهن عن الخطأ

في الفكر واما الخطايي فالمقصود منه الاقناع وتحريك
العواطف

س لماذا يختلف القياس المنطقي عن القياس الخطايي ؟

ج ان الخلاف بينهما من ثلاثة وجوه : فالوجه الاول
ان المنطقي يستند في الغالب في قياسه الى مقدماتين يقينيتين .
اما الخطايي فانه يقبل ايضاً مع المقدمات اليقينية المقدمات
الظنية والشبهية باليقينية . فان المنطقي مثلاً اذا اراد اثبات وجوب
حبة الوطن بنى قياساً هكذا :

يبغي على الانسان ان ينحصر بحبه من نال من فضلهم وانتفع برفقهم والوطن
يعمُ فضله كل انسان مولود في تحميمه . فن الواجب اذن ان يحبه الوطني

اما الخطيب فيثبت ذلك بادلة غير ضرورية لازمة لكنها كافية
لاقناع العموم فيقول في حب الوطن :

كُون الله ارضنا وافاض عليها سوانح نعمه فاتاح لكل قسم منها حصّة صالحة
من خيراته . ولما خلق الابوين الاولين وامرهما ان يلاوا الارض بالنمو والتكاثر
استوطنت كل فئة منهم بعض الانحاء وخصوها بالعمل وسقوها بعرق جبينهم فنالوا
من مرافقهما وحصلت بذلك بينهم وبينها علائق وداد لم يزدنها الدهر الا توثقاً .
فبدأ الصغير فيها ويقصر نظره عليها وعلى خيراتها ويعدها كأتم الثانية تدر عليه
فلاحة وتُنشقه هواءها وتعتقه باهلها وسكانها فتؤنسُه بمفاوضتهم وتوازره بمنعمتهم
وقوّاتهم وتهد له السبل بينهم الى الرقي والنجاح . فيطبع حب الوطن على صفحات
قلبه مهما تنقل في البلدان ويضله على سواه من الاصقاع ولو لقي فيها كثيراً من
الخيرات التي لم يجد لها اثرًا في وطنه . وقد حملوا على ذلك قول القائل : ان حب
الوطن من الايمان . لان الايمان يأمر بالاصطناع الى اعدائنا فا قولك بالمحسنين الينا

الوجه الثاني ان المنطقي يعرض قياسه بقليل من الكلام

لتظهر حجته دون اشكال على خلاف الخطيب الذي يكسو قياسه بديع الكلام ويحليه بالتشابه اللانقة وينمقه بالامثال الرائقة ويؤيده باقوال الحكماء ويعرضه على اشباهه من الامور الى ان يستوفي محاسنه ويتم فوائده

مثاله اثبات كون النفس جوهرًا ليست بعرض ولا جسم . فان ابن العبري في كتابه عن النفس البشرية بين ذلك على طريقة المنطقيين هكذا :

ان جميع العلماء حكموا بان الجوهر هو القابل للاضداد . مثاله ان الجسم الواحد يقبل تارة الحرارة وتارة البرودة فهو جوهر يقبل الاضداد المحسوسة . وقد نرى النفس تقبل العلم والجهل والفضائل والارذائل والخطأ والصواب . فهذه وامثالها اعراض لا وجود لها الا بموضوعها والنفس هي الموضوع لها فالتنفس اذن جوهر

اما كون النفس ليست بجسم فلان الجسم له طول وعرض وعمق ولا شيء في النفس كذلك . والجسم محسوس والنفس غير محسوسة . والنفس تقبل الاعراض المعقولة كعلم المنطق والهندسة وعلم الطبيعة الالهية وهذه كلها معقولة ومحاطة بمعقول وهي النفس . فظهر ان النفس ليست بجسم

اما ابن مسكويه فأتسع بالموضوع عينه وعرضه على صورة اقرب الى الطريقة الخطابية في كتابه تهذيب الاخلاق فقال :

انا لما وجدنا في الانسان شيئاً ما يضاد الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الاحوال . وكذلك نجد بين الاعراض ويضادها كلها غاية المباعدة . ثم وجدنا هذه المباعدة والمضادة منه للجسام والاعراض انما هي من حيث كانت الاجسام اجساماً والاعراض اعراضاً حكمنا بان هذا الشيء ليس بجسم ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً . وذلك انه لا يستحيل ولا يتغير وايضاً فانه يدرك جميع الاشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص . (وبيان ذلك) ان كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة اخرى من جنس صورته الاولى الا بعد مفارقتها

الصورة الاولى مفارقةً تامة . (مثال ذلك) انَّ الجسم اذا قبل صورةً وشكلاً من الاشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير وغيرها الا بعد ان يفارقه الشكل الاول . وكذلك اذا قبل صورة نقش او كتابة او اي شي كان من الصور فليس يقبل صورة اخرى من ذلك الجنس الا بعد زوال الاول وطلاتها البتة . فان بقي فيه شيء من رسم الصورة الاولى لم يقبل الصورة الثانية على التام بل تختلط به صورتان فلا يخلص له احدهما على التام . (مثال ذلك) اذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش الا بعد ان يزول عنه رسم النقش الاول . وكذلك القضة اذا قبلت صورة . وهذا حكم مستقيم في الاجسام . ونحن نجد انفسنا تقبل صور الاشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعتولات على التام والكمال من غير مفارقة للاول ولا معاقبة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم الاول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثاني ايضاً تاماً كاملاً . ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير ان تضعف او تقصر في وقت من الاوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور بل تزداد بالصورة الاولى قوّة على ما يرد عليها من الصور الاخرى . وهذه الخاصّة مضادّة لخواص الاجسام ولهذه العلّة يزداد الانسان فهماً كلما ارتاض وتخرّج في العلوم والآداب فليست النفس اذن جسماء . واما انها ليست بعرض فقد تبين من قبل ان العرض لا يحمل عرضاً لان العرض في نفسه محمول ابداً موجود في غيره لا قوام له بذاته . وهذا الجوهر الذي وصفنا حاله (يريد النفس) هو قابل ابداً حامل اتم واكمّل من حمل الاجسام للاعراض فاذن النفس ليست عرضاً

والوجه الثالث ان المنطقيّ عادة لا يتصرف بالقياس بل يعرضه على احد اشكاله المعروفة في المنطق . امّا الخطيب فله التصرف في قياسه من تقديم المقدمات او تأخيرها على ما يراه اوفق لغايته كقول علي بن ابي طالب يحض انصاره على اقتفاء آثاره فقال :

إني إمامكم وأسونكم فسيروا بسيرتي واقفروا معالي . فإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ألا وإن إمامكم قد اكفني من دنياه بطمريه ومن طعامه بقرصيه

ولو عرض قياسه على طريقة المنطقيين لقال هكذا : على كل مأموم
ان يقتدي بامامه وانا امامكم زهدت بالدنيا فازهدوا بها مثلي
ومثل ذلك قول صاحب كتاب زجر النفس وقد اراد ان يثبت ان
لا الذّة صحيحة في الدنيا :

يا نفس ينبغي ان تعلمي وتتيقني ان حدّ اللذة بالحقيقة هو ما لا يُملّ. ومتى
طلبت النفس في الكون لذّة فقد سعت الى غير موجود وطلبت ما لا يمكن.
والدليل البين على هذا ان جميع ما تشأفه النفس في هذه الدنيا مملول والمملول لا
ينبغي ان يسمى لذّة اذ كان حدّ اللذة ما لا يُملّ. او ما تنظرين يا نفس الى
اكثر اهل الدنيا كيف يبحثون في طلب اللذات ويتوهون انها موجودة في الدنيا
وليس هي موجودة فتبين انّ الناس يطأون في الدنيا ما ليس فيها

٢ القياس الاضماري

س ما هو القياس الاضماري ؟

ج هو ما أضمرت احدى مقدمتيه . إمّا الكبرى
ويسمى قياس الضمير كقولك : العالم متغيّر فهو حادث . وتام القياس :
كل متغيّر حادث والعالم متغيّر فهو حادث وإمّا الصغرى ويسمى
قياس الدليل كقولك : ان ما يزيّن العقل شرف للمرء فالعلم اذا
شرف للمرء . فاضربت عن الصغرى . وتتمّة القياس بقولك :
ان ما يزيّن العقل شرف للمرء والعلم يزيّن العقل فالعلم اذا اشرف للمرء
(فائدة) ويسمى القياس اقتنائياً ان لم تُذكر النتيجة

س هل القياس الاضماري كثير الاستعمال في الخطابة ؟

ج هو كثير الاستعمال على ألسنة الخطباء وغيرهم.
ولاسيما اذا ارادوا اثبات قضية يُسلم الخصم باحدى مقدمتيها

فأنهم يعرضون عنها ايثاراً الاختصار . وربما اوردوا القياس
منحصرًا بجملة واحدة كقول الشاعر :

احفظ لسانك ان تقول فتُبَتلى انَّ البلاء موكلٌ بالمنطق
وكقول الآخر :

صاحبُ الشهوة عبدٌ فاذا خالف الشهوة صار الملكا

وهذا كثير في الخطب والكلام العادي ولا صعوبة في
تحليله واعادته الى القياس الاصلي فتقول مثلاً في البيت الاول :
يجب الاحتراس من كل ما يجربُ بلاءً واللسان يجربُ البلاء . فيقتضى الاحتراس
منه

٣ الاستقراء

س ما هو الاستقراء ؟

ج الاستقراء باللغة التبُّع من استقرتُ الشيء اذا
تبعته . وعند المنطقيين هو الحكم على شيء لوجوده في
جزئياته (١) كما اثبت الشيخ جمال الدين الافغاني برسائله التي فيها ردّ
اقوال الطبيعيين ان لا قوام للألفة الاجتماعية إلا بالدين . فاستقرى كثيراً
من الممالك القديمة وبين ان هرمها ناشيء عن ابتعادها من سنن الدين
ومحبة الايمان

س كم قسمًا الاستقراء ؟

ج قال التهانوي : الاستقراء قسمان : تامٌ وناقص .

(١) شرح الرازي على شمسية القزويني . والنجاة لابن سينا

فالتام ويسمى القياس المقسم هو ان يستدل بجميع الجزئيات فيطلق على الكل ما تحقّقه في كافّة الافراد كما لو قال : كل جسم لا يخلو ان يكون او حيواناً او نباتاً او جماداً وكل واحد من هذه الثلاثة متحيّز . فينتج ان كل جسم متحيّز . وهذا يفيد اليقين

والناقص هو ان يستدلّ باكثر الجزئيات فقط فيطلق الحكم على الكلي وذلك يفيد الظن غالباً كقول السعودي في العامّة وقد حاول ان يبيّن ان كل العامّة يغلب عليها الهوى في جميع امورها فقال :

انظر هل ترى اذا اعتبرت العامّة فنظرت في مجالس العلماء هل تشاهدها الا مشحونة بالخاصّة من اولي التمييز والمرؤة والحجى . وتفقد العامّة في احتشادها وجموعها فلا تراهم الدهر الا مُرقلين الى قائدٍ دبّ وضاربٍ بدفٍ على سياسةٍ قردٍ او متشوقين الى اللهو واللعب او مختلفين الى متعبّدٍ متمسّسٍ ممخرقٍ او مستمعين الى قاصٍ كذابٍ او مجتمعين حول مضروبٍ او وقوفاً عند مصلوبٍ . يسودون غير السيد ويفضّون غير الفاضل ويقولون بعلم غير العالم . وهم أتباعٌ من سبق اليهم من غير تمييز بين الفضل والنقصان ولا معرفة للحق من الباطل . يُنغصّ بهم فيتبعون ويصاح بهم فلا يرتدعون . لا ينكرون منكراً ولا يعرفون معروفاً ولا يبالون ان يلحقوا البرّ بالفاجر والمؤمن بالكافر . وقد بيّن ذلك عليّ وقد سُئل عن العامّة فقال : همّج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا الى ركن وثيق . واجمع الناس في تسميتهم على انهم غوغاء وهم الذين اذا اجتمعوا غلبوا واذا انصرفوا لم يعرفوا

فان مثل هذا لا يفيد اليقين لجواز وجود طائفةٍ من العامّة لم تستقرأ فلا يتجاوز الحكم حدود الاحتمال

ويمكن الاستقراء ان يفيد اليقين ايضاً في بعض الاحوال اذا ظهر من استقراء قسم من الجزئيات ان المطلوب يلزم

ضرورة تلك الجزئيات مثاله ان تحكم بان كل انسان من طبعه ضاحك وان لم تعرف جميع الناس لتختبر فيهم الضحك

٤ القياس التمثيلي

س ما هو التمثيل ؟

ج التمثيل في عرف المنطقيين اثبات حكم في جزئي يُدعى فرعاً لثبوتِهِ في جزئي آخر يُدعى اصلاً لمعنى مشترك بينهما (١) . كقواك : العالم مؤلف من اجزاء كالبيت فهو حادث . تريد ان العالم ليس بازلي بل حادث لانه يتركب من اجزاء التي لا غنى لها عن الله يجمعها كما ان البيت حادث لانه احتاج الى صانع يركب اجزائه

راجع في مجاني الادب (٢ : ١٧٠) مثلاً لطيفاً من هذا الباب عنوانه « ان للعالم خالقاً » . ومنه ما ورد في كتاب زجر النفس حيث بين بالتمثيل ان العلم واصطناع الخير لا يقومان بما ينفيهما كما ان بعض الصنائع تنفي اضدادها فقال :

يا نفس انه من اصعب الاشياء واشدها انتاعاً ان تعمل صنعة الصباغة بأداة الفلاحة او صنعة التجارة بأداة الخياطة . ولكل صنعة اداة لن يستوي عملها الا بما لا يغيرها واذا كان الانسان عارفاً بجميع الصنائع ايضاً مستعملاً جميع ادواتها فقد ينبغي له اذا اراد ان يعمل الخياطة ان يرمي من يده اداة الفلاحة وياخذ للخياطة اداتها التي تصلح لها . واذا اراد ان يعمل الفلاحة فيرمي من يده اداة

٠ (١) تعريفات الجرجاني . وجاء في مصطلحات الفنون للتهانوي : التمثيل اثبات حكم في امر لثبوتِهِ في آخر لعلّه مشتركة بينهما

الخطابة ليأخذ للفلاحة أداها التي تصلح لها . وكذلك يا نفسِ ينبغي لمن اراد ان يدرك العلم وعمل الخير ان يترك من يده اداة الجهل والشرّ وهو حبّ الدنيا والرغبة فيها . فتي هممت يا نفس بطلب العلم والخير فدعي من يدك اداة الشرّ كما قد تقرّر في علمك ان الصنعة لا تكمل الاّ بأداها وخذي للعلم والخير اداها . فانه متى عملتها بأداها انعملا بغير تعب ونصب ومتى كان بيدك اداة الشرّ واردت ان تعملي بها الخير امتنع ذلك عليك وصعب كما امتنع على من كان بيده اداة الفلاحة فاراد ان يعمل بها الصياغة ظال تعب ونصبه ولم يتم له عمله . فتيقني يا نفس هذا المعنى واعلمي انّ حب الدنيا والخير لا يجتمعان في قلب فتصوّري يا نفس حقيقة هذا وادركيه ببصر عقلك

فانه قاس اعمال النفس باعمال اليد وقضى على الاولى ما اثبتته للثانية على طريقة التمثيل اعلمة موجودة في كليهما . وهي انّ لكل امر اداة مختصة به

• القياس ذو الحدين

س ما هو القياس ذو الحدين ؟

ج هو ان تأخذ قضية فتقسمها الى قسمين متباينين لا وسيط بينهما يفند كلاهما قول الخصم ويسمى ايضاً هذا القياس بذوي القرنين لانه ينطح الخصم يميناً وشمالاً . كما ذكر ابو جعفر الاسكافي العلي بن ابي طالب من كتاب ارسله الى طلحة والزبير :

قد علمتا انكما ممن ارادني وبايعني . فان كنتم بايعتاني طامعين فارجموا وتوبا الى الله من قريب . وان كنتم بايعتاني كارهين فقد جعلتني عليكم السيل باظهاركم الطاعة واسراركم المصيبة

و كقول طارق وقد اراد حمل جنوده على الملك لذريق وبينهم ان لا نجاة الا بمقاومة العدو :

اجا الناس اين المفرّ البحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم والله الا
الصدق والصبر

ومثله قول السيد المسيح للفريسيين اذ سألهم عن معمودية يوحنا
أمن السماء هي ام من البشر فافحهم لانهم لو قالوا من السماء قال لهم :
فلم لم تؤمنوا بشهادته لي . وان قالوا : من البشر خافوا من الجمع لانهم
كانوا يعدّون يوحنا كنبى .

ومن هذا القليل ما كتبه ابو نواس للامين وكان امر مجبسه :
مضت لي شهور قد حُبتُ ثلاثة كَأَنِّي قد اذنبْتُ ما ليس يُغْفَرُ
فان اَكُ لم اذنب فقيم عقوبتي وان كنتُ ذا ذنب فعفوك اكبر

واظرفُ منه قول ابي العلاء المعري في الايمان بالبعث :
زعم النجم والطبيب كلاهما أَن لا معادَ فقلتُ ذاك اليكما
ان صحَّ قولكما فليستُ بنادم او صحَّ قولي فالوبالُ عليكما

واحسن منهما ما رواه ابن هذيل لشاعر يبكّت العاصي على معصيته :

ألا انما المستطرفُ الذنبُ جاحداً هو الله لا تخفى عليه السرائر
فان كنتَ لم تعرفهُ حين عصيته فانّ الذي لا يعرفُ الله كافرُ
وان كنتَ عن علمٍ ومعرفةٍ به عصيتَ فانّت المستهينُ المحاهرُ
فايةَ حالِكَ اعتقدتَ فأنّه علمُ بما تُطوى عليه الضائرُ

س باي طريقة يتوصّل الى حلّ القياس ذي الحدّين ؟

ج الطريقة حلّه ان تجد وسيطاً بين طرفي القياس
فتتملّص منه . وذلك بان تبين ان القسمة ليست مستوية
وشاملة لجميع الانواع كما قال ابن الرومي وفي قسمته خلل لانه سها
عن ذكر الدين والعلم والآداب مع جليل نفعها

لم ار شيئاً صادقاً نفعه المرء كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته والسيف يحميه من الحيف

(فائدة) ان القياس ذا الحدين رُبما يعدل الخطيب عن حله تَوَّاهاً
يرد كيد الخصم في نحره بشبه قياسه . والمثل في ذلك ما اورد ابن العبري
لارخيولوجس الخطيب لما وافاه تيسياس وكان اخذ عنه الخطابة على ان
يجعل له مالا معيناً . فلما اتقن فن الخطابة حاول الغدربه فقال لمعلمه :
اني اناظرك في الاجرة فان اقنعتك بانني لا ادفمها اليك لم ادفمها اذ قد
اقنعتك بذلك . وان لم اقنعتك فلست اعطيك شيئاً لانني لم اتعلم منك
الخطابة المفيدة للاقتناع . فاجابه ارخيولوجس : وانا ايضاً اناظرك فان
اقنعتك بانه يجب لي اخذ حقي اخذته اأخذ من اقنع . وان لم اقنعتك
فيجب ايضاً اخذه منك اذ قد نشأت تلميذاً يستظهر على معلمه

٦ في القياس المركب

س ما هو القياس المركب ؟

ج قال الرازي : هو قياس يتألف من مقدمات يُنتج
مقدّمتان منها نتيجة وهي مع مقدمة اخرى تنتج نتيجة ثانية
وهلمَّ جرّاً الى ان يحصل المطلوب

س كم نوعاً القياس المركب ؟

ج القياس المركب اما موصول واما مفصول . فان
صرح الخطيب بنتائج تلك القياسات فهو الموصول لوصل تلك
النتائج بالمقدمات . كقولنا : كل ا ج وكل ج د فكل ا د . ثم

كل د ز . وكل ز س . فكل اس الخ (١) . ومثاله قولك :

البسيط لا جزء له . والنفس بسيطة فلا جزء لها . ثم ما لا جزء لها لا يمكن تقسيمه . والنفس لا جزء لها فلا يمكن تقسيمها . وما لا يمكن تقسيمه فهو ثابت خالد والنفس لا يمكن تقسيمها فهي لباطنها ثابتة خالدة

وان لم يصرح بها سمي مفصلاً . لفصل النتائج عن المقدمات في الذكر وان كانت مرادة من جهة المعنى كقولنا : كل اب وكل ب ج . وكل ج د . وكل دي فكل اي (٢) . ويسمى هذا القياس القياس المدرج وتعريفه انه عبارة عن سلسلة قضايا مرتبطة بالتساق يكون محمول الاولى موضوعاً للثانية ومحمول الثانية موضوعاً للثالثة الى ان يحصل المقصود . كقول علي بن ابي طالب :

ايها الناس اياكم وتعلم النجامة فاخا تدعو الى الكهانة . والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار وكذلك المنجم

وله مثبتاً الظفر لكاظم الغيظ :

من كظم غيظه فقد حُلمَ . ومن حُلمَ فقد صبرَ . ومن صبر فقد ظفرَ

ولا بن مسكويه في شقاء من يطعم بالهناء الدائم في هذا الحياة

من طمع من الكائن الفاسد أن يكون ولا يفسد فقد طمع بالمحال ومن طمع بالمحال لم يزل خائباً . والخائب ابداً محزون . والمحزون شقي

ومثله قول عمر للاحنف بن قيس في من يبالغ في الضحك والهزل :

من كثر ضحكك قلت هيئته . ومن قلت هيئته كثر سقطه . ومن كثر سقطه قل ورعه . ومن قل ورعه ذهب حياؤه . ومن ذهب حياؤه مات قلبه

(فائدة) اعلم ان القياس المدرج هو مجموع اقيسة يتسلسل بعضها من بعض مع العدول عن ذكر الضغريات الا صغرى القياس الاول ويعرض كذلك عن ذكر نتائج الاقيسة ما خلا نتيجة القياس الاخير .
وانما يسهل على الحاذق بان يعيد هذه الاقيسة الى اصولها فيفرز غشها من سمينها ويطلع على خللها ان وجد فيها . ففي قول علي انفا اربعة اقيسة صورتها :

القياس الاول : النجامة تؤدي الى الكهانة . والكهانة حرام
فالنجامة حرام

القياس الثاني : الكهانة تؤدي الى السحر . والنجامة تؤدي الى الكهانة . فالنجامة تؤدي الى السحر

القياس الثالث : السحر يؤدي الى الكفر . والنجامة تؤدي الى السحر . فالنجامة تؤدي الى الكفر

القياس الرابع : الكفر يؤدي الى النار . والنجامة تؤدي الى الكفر
فالنجامة تؤدي الى النار

٧ لواحق القياس

س ما هي بقية القياسات المستعملة في الخطابة ؟

ج ربما التجأ الخطيب لإثبات قضيته الى انواع أخر من القياسات هي لواحق بما تقدم ذكره . فمنها القياس الشرطي .
ومنها القياس الاستثنائي . ومنها قياس الخلف

س ما هو القياس الشرطي ؟

ج هو ما كان مركباً من قضيتين احدهما محكوم عليها

والاخرى محكوم بها يجمعهما رابط يدل على العلاقة بينهما .
 كقولك : ان وُجد المعلول فلا بد له من علة . فالمحكوم به قولك :
 وُجد المعلول والمحكوم عليه قولك : لا بد للمعلول من علة . والربط
 ان الشرطية وفاء الجواب (١)

س متى يصح القياس الشرطي ؟

ج للقياس الشرطي قاعدتان : الاولى ان المشروط يثبت
 بايجاب الشرط وبسلبه اي يكون موجباً ان كان الشرط موجباً
 ويكون سلباً ان كان سلباً كقولك :

ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود . والحال ان الشمس قد
 طلعت فقد ثبت اذا طلوع النهار . فلما ثبت المقدم نتج ايضاً ثبوت التالي .
 وتقول في السلب : ان لم يأت لا نكرمهُ . فلم يأت . اذن لا نكرمهُ
 الثانية ان الشرط يكون سلبياً اذا كان المشروط منفيّاً
 كقولك :

لو درست لتعلمت . اكنك لم تتعلم فاذا لم تدرس . فنفي التالي
 بعدم تحقق الشرط

وكقول ابي العتاهية :

فلو كان هول الموت لا شيء بعده لهان علينا الامر واحتقر الامر
 ولكنه حتر ونشر وجنة ونار وما قد يستطيل به الخبر

س ما هو القياس الاستثنائي ؟

ج القياس الاستثنائي ويُعرف ايضاً بالتفصيلي هو

مُرْكَب من مقدّمتين احداها شرطية والاخرى وضعٌ لاحد جزئيهما او رفعه. وعرفوه ايضاً بقولهم : هو ما كان عينُ النتيجة او نقيضها مذكوراً فيه بالفعل. وهو لا يصحّ ألا بعدم وجود ما يتوسّط بين المقدّمتين كقولك :

ان كان هذا نباتاً فهو حيّ نام . فهو نبات . اذن يحيا وينمو .
(او) ليس هو نباتاً اذن لا يحيا ولا ينمو .

س ما هو قياس الخلف ؟

ج قياس الخلف ويسمى ايضاً القياس العطفى وهو القياس الذي يقصد فيه اثبات المطلوب بإبطال نقيضه (١) كقول الرب : لا يستطيع احد ان يعبد ربّين الله والمال . فاذا صدق ان فلاناً يعبد الله فأبطل نقيضه وهو عبادة المال والعكس بالعكس

وقد جاء لبعض العارفين :

انّ الدنيا والآخرة عدوّان متناقضان وسيلان مختلفان فن احبّ الدنيا وتولّاها ابنض الآخرة وعادها

وكقول محمد الوراق :

تعصي الاله وانتَ تظهرُ حُبّه هذا مُحالٌ في القياس بديعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته انّ المحبَّ لِنَ يحبُّ مطيعُ

البحث الثاني

في التفنيد

س ما هو التفنيد ؟

ج التفنيد ويُسمَّى ايضاً النَّقْضُ هو في اللُّغة التَّكْذِيبُ والتَّجْهِيلُ . وفي الاصطلاح هو قسم من الخطابة يُخْطَى بِهِ المتكلم رأيَ خصمه ويردُّ على حُججه

س هل يكون للتفنيد رقع في كل اصناف الخطب ؟

ج كلاً فانَّ الإضراب عن حجج الخصم في بعض المقامات أولى من نقضها لقلة اكرثاث السامع لها . وكثيراً ما يحلُّ الخطيب اعتراضات الخصم بمجرد اثباته لقضيته فلا تمسُّ اذ ذاك الحاجة الى تفنيدها لانَّ الاضداد ملازمة بعضها فيكون تحقق الشيء نفياً لنقيضه

س على كم صنف هي الحجج القنضى تفنيدها وفي اي قسم . من الخطابة تُفَنَّدُ ؟

ج هذه الحجج على ثلاثة اصناف : فمنها ما يسبق اليه توهم السامع والاولى ان يفنِّدها الخطيب في صدر خطابه كما لو اراد الخطيب ان يحمل الجند على القتال فلا ينجع كلامه فيهم ما لم يبطل خوفهم من العدو في بدء خطابه ببيان فضلهم عليه من بعض الوجوه

ومنها ما يفترضها الخطيب لتواتر وقوعها ويعرضها على نفسه فيحاول إبطالها كتفنيد حجج من يؤجل التوبة رجاء ان ينسب اليه تعالى في ساعة الموت . وهذا الحجج تُفند غالباً في آخر الخطاب كقول رسول الامم في رسالته الى اهل قورنتس حيث اثبت حقيقة قيامة الاجساد فالحق اثباته بتفنيدنا كرى وقوعه فقال :

ولكن يقول قائل كيف يقوم الاموات وبأي جسد يبرزون . يا جاهل إن ما ترعنه أنت لا يحيا الا اذا مات . وما ترعنه ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون بل مجرد جثة من الخنطة مثلا او غيرها من البرور . ألا ان الله يجعل لها جسداً كيف شاء ولكل من الزروع جسده المختص به . ليس كل جسد جسداً واحداً بل للناس جسد وللبهائم جسد آخر وللطيور آخر وللانسك آخر . ومن الاجساد اجساد سماوية واجساد أرضية ولكن مجد الشمس نوع ومجد القمر نوع آخر ومجد النجوم نوع آخر لأن نجماً يتاز عن نجم في المجد هكذا قيامة الاموات . الزرع بفساد والقيامة غير فساد . الزرع جوارح والقيامة بمجد . الزرع بضعف والقيامة بقوة .

ومنها ما يأتي بها الخصم في المقاضاة والمشارعة في الدعاوي . وهذه الحاجة تُقدم او تؤخر على مقتضى الحال وهي كثيراً ما تُمازج ادلة الخطيب يحلها في أثناء كلامه كقول عبدالمسيح الكندي يرد على من ادعى ان المسيحيين حرقوا اسفار الانبياء والكتب المقدسة :- وكأني بك اصلحك الله قد ذكرت التحريف في هذا الموضع واحتججت علينا بأننا حرّفنا الكلم عن مواضعه وبدلنا الكتاب كأن هذا القول جعلته كهنفاً لك تستر به . واني لأخبرك خبراً حقاً فاسمعه مني وعيه واقلبه . فانّ قولي ليس قول باغ ولا حاسد ولا مُتَعَنّت معاند بل انما هو نذر مني لك ونصح اذ كان ديني يوجب علي نصيحة كل احد فانا بذلك مُشفق عليك من كثرة الجهل وصرعته وخيمه . وما أعلم اني سمعت قط بحجة اشد انقطاعاً واوحش انفساخاً من حججك في باب التحريف والتبديل واني لأعجب منك ومن نظائرك ممن فتش كتب

مقالات الحق وكان له ذهنٌ صحيحٌ يميز به كيف يجوز مثل هذا عليه . وانت تعلم اننا نحن واليهود الجاحدين لما جاء به نور العالم وضياء الدنيا المسيح سيدنا ومخلصنا قد اجتمعنا عن غير تواطؤ على صحة هذا الكتاب وانه مُترَل من عند الله لا تحريف فيه ولا تبديل ولم تلحقه زيادة ولا نقصان . والا فنحن ندعوك الى واحدة هي نصفة لنا ولك اثنتا اصلحك الله أنت ايها المدعي علينا التحريف والتبديل إن كنت صادقاً بكتاب غير محرف ولا مبدل يشهد لك على صحة الآيات العجيبة كما شهدت الاعاجيب للانبيا والحواريين حيث جاؤونا بصحة هذا الكتاب فقبلنا ذلك منهم وهو في ايدينا وايدي اليهود بلا زيادة ولا نقصان . اني لأعلم انك لا تقدر على ذلك ابداً . وقد شهد لنا كتابك بحق التلاوة . . . فاذا كنت لا تقدر أنت ولا غيرك تُلَفَّق على ما في ايدينا على الشريعة التي شرطناها وهو ممنوع من امكانك فما لك والمباهة التي ليست من عادتك ولا من اخلاقك وتسمع علينا وتقول اننا حرَفنا الكتاب وبدلنا تنزيل الله وغيرنا كلامه ونحن نتلوه حق تلاوته . فانصف اصلحك الله واطلب رضى ربك

ومثله ما اخبر المدائني عن عمرو بن العاص قال : كان عمرو في موسم من مواسم العرب فأطرى معاوية بن أبي سفيان وذكر مشاهدته بصفين فاجتمعت قريش واقبل عبدالله بن عباس على عمرو فقال :

يا عمرو انك بعت دينك من معاوية واعطيت ما بيدك ومناك ما بيد غيرك . وكان الذي اخذ منك اكثر من الذي اعطاك والذي اخذت منه دون الذي اعطيت وكل راض بما اخذ واعطى . فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالغلز والتنفيس حتى لو كانت نفسك في يدك القييتها . وذكرت مشاهدك بصفين فوالله ما ثقلت علينا وطأئتُك ولقد كُشِفَتْ فيها عورتك وان كنت فيها لطويل اللسان قصير السنان آخر الحيل اذا أقبلت واؤها اذا أدبرت . لك يدان يدٌ لا تبسطها الى خير واخرى لا تقبضها عن شرٍّ ولسانٌ غرور ذو وجهين وجه موحش ووجه مؤنس . ولعمري ان من باع دينه بدنياه غيره لحري أن يطول عليها ندمه . لك لسان وفيك حطل ولك رأي وفيك نكد ولك قدر وفيك حسد واصغر عيب فيك اعظم عيب في غيرك

فاجابه عمرو بن العاص :

والله ما في قريش اثقل عليّ مسألة ولا امرٌ جواباً منك ولو استطعتُ ان لا اجيبك لفعلت . غير اني لم ابع ديني من معاوية ولكن بعث الله نفسي ولم انس نصبي من الدنيا . واما ما اخذت من معاوية واعطيتهُ فانه لا تعلم العوانُ الخمرة . واما ما اتى اليّ معاوية في مصر فان ذلك لم يغيرني له . واما خفته وطآتي عليكم بصغيري فلم استنقلتم حياتي واستبطأتم وفاتي ؟ واما الجبن فقد علمت قريش اني اول من يبارز وآخر من يُنازل . واما طول لساني فاني كما قال هشام بن الوليد لعثمان ابن عفان :

لساني طويل فاحترس من شدائهِ عليك وسفي من لساني اطول
واما وجهايّ ولساناي فاني التقي كل ذي قَدَرٍ بقَدَرِهِ وارمي كل نابح بحجرهِ .
فمن عرف قدره كفا في نفسه ومن جهل قدره كفتته نفسي . ولمعري ما لاحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية فاني ينفعني ذلك عندك (وانشأ عمرو يقول) :
بني هاشم ما لي اراكم كانكم بي اليوم ههال وليس بكم جهل
ألم تعلموا اني سريحٌ على الوغى سريحٌ الى الداعي اذا كثر القتل
وأول من يدعو تراثاً طبيعةً حبلت عليها والطاع هو الجبل
واني فصلت الامر بعد اشتباههِ بدومة اذا أعيأ على الحكم الفضل
واني لا اعيأ بامرٍ أريده واني اذا عجت بكاركم فحل

س من اين تؤخذ اساليب المحاجة لافحام الخصم ؟

ج تؤخذ من معرفة المغالطة

س ما هي المغالطة ؟

ج المغالطة في اللغة النسبة الى الغلط . وعند المنطقيين هي صناعة يعرف بها القياس الفاسد إما من جهة الصورة او من جهة المادة او من جهتهما معاً (١)

قال في شرح المطالع : ان الغرض من معرفة هذه الصناعة الاحتراز

عن الخطأ وربما يُتَحَنُّ بها من يُراد امتحانه في العلم ليعلم به كماله بعدم ذهاب الغلط عليه وقصوره بذهايه عليه . وبهذا الاعتبار تسمى قياساً امتحانياً . وقد تُستعمل في تبكيث من يُوهم العوام أنه عالم ليظهر لهم عجزه عن الفرق بين الصواب والخطأ فيصدّون عن الاقتداء به وبهذا الاعتبار تسمى قياساً عنادياً

س ما هي مواد المغالطة ؟

ج مواد المغالطة المقدمات الشبيهة بالحق وهي ليست حقاً . قال شارح إشراق الحكمة : أن أسباب الغلط على كثرتها ترجع الى امر واحد وهو عدم التمييز بين الشيء واشباهه . ثم انها تنقسم « الى ما يتعلق بالالفاظ » بان تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين غيره ويدخل فيه الاشتراك والتشابه والمجاز . و « الى ما يتعلق بالمعاني وتأليف القياس » كعدم صحة مقدماته . او تكون النتيجة مغايرة لاحدى المقدماتين . فمثال المغالطة اللفظية تفنيد السيد المسيح لنيقوديموس اذ لم يميز بين ولادة الجسد وولادة الروح (راجع الفصل الثالث من انجيل يوحنا)

ومثال المغالطة المعنوية قول علي يردُّ على معاوية وكان نسب اليه

اشياء :

زعمت اني لكل الخلفاء حسدتُ وعلى كلهم بغيتُ . فان يكن ذلك كذلك فليس الحناية عليك فيكون العذر اليك . وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها . وقلت اني كنتُ أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبابع . ولعمرك الله لقد اردت ان تدم

فدحت وان تفضح فانفضحت وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه او مرتاباً بيقينه. وهذه حجتى الى غيرك قصدها ولكنى اطلقت لك منها بقدر ما سنج من ذكرها

ثم ذكرت ما كان من امري واسر عثمان فلك ان تجاب عن هذه لرحمك منه. فائناً كان أعدى له واهدى الى مقاتله آمن بذل له نصرته فاستقدمه واستكفه ام من استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى اتى قدره عليه. كلاً والله لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم: هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلاً وما كنت لأعتد من اتي كنت اقم عليه احداثاً فان كان الذنب اليه ارشادي وهدايته له فرب ما لم لا ذنب له. وقد يستفيد الظنة المتصح وما اردت الا الاصلاح ما استطعت. وما توفيقي الا بالله عليه توكلت

س اليس للخطيب وسائل أخرى لمناقضة الخصم ؟

ج نعم وهي كثيرة منها : اولاً الانكار وذلك بان لا يُسلم بما ادعاه الخصم لحجة تلزمه كقول ابن خلدون ردّاً على من نسب الى الرشيد معاقرة الخمر مع تقاه :

واما اما نتموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سُكره بسُكر الندمان فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء. وابن هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السكّ والعمرى ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات وشهود الصبح لاول ولوقتها . . .

فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من سلفه المتحلين للدين وما ربي عليه من امثال هذه السيرة في اهل بيته والتخلُّق بها ان يعاقر الخمر او يجاهر بها. وقد كانت حالة الأشراف من العرب في الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان ثمرها مذمة عند الكبير منهم والصغير. والرشيد واباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلُّق بالمحامد وادب الكمال وترعات العرب . . .

وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق. وفتاوجهم فيها

معروفة . وأما الحمر الصّرف من العنب فلا سبيل الى اتمامه به ولا تقليد الاخبار الواهية فيها . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرّماً من اكبر الكبائر عند اهل الملّة . ولقد كان اولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السّرّف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولهم لما كانوا عليهم من خشونة البداوة وسفاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر وعن الحليّة الى الحرمة

ثانياً التزكية . بان يقرّ الخطيب بصحّة الواقع ثم يثبت انه ليس بجنائية ولا عار . كقول علي بن جهم لما حبسه المتوكل :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري	حبسي وأيّ مُنْهَدٍ لا يُفْسدُ
أوما رأيت الميث يألف غيلة	كبراً وأوباش السباع تردّد
والشمس لولا انحصا عجوبة	عن ناظرِكَ لما أضاء الفرقد
والبدر يدركه السرار فتنجلي	أيامهُ وكأنهُ متجدّد
والغيث يحصره الغمام فما يرى	ألا وربّهُ بُراع ويرعد
والراعيّة لا يقيم كموجها	ألا الثقاف وجذوة تتوقّد
والنار في احجارها مخبوءة	لا تصلي ان لم تُثرها الازند
والحبس ما لم تغشه لدنيّة	شعاع نعم المتزل المتودّد
بيتٌ يجدد للكرم كرامة	ويزار فيه ولا يزور ويحمد
لو لم يكن في الحبس إلا انه	لا يستذلّك بالحجاب الأعبد
كم من عليل قد تحطاه الردى	فتجا ومات طيبهُ والعود
يا احمد بن ابي دواد انما	تدعى لكل عظمة يا احمد
أبلغ امير المؤمنين ودونه	خوض الردى ومخاوف لا تنفد
ان الذين سمعوا اليك بباطل	حساد نعمتك التي لا تجحد
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا	فيما وليس كفائب من يشهد
لو يجمع الخصماء عندك مجلس	يوماً لبان لك الطريق الاقص
فبأي جرم أصبحت اعراضا	نصباً تقسمها اللّيم الاوغد ؟

وكقول السموّءل يردّ على من عيّره قلة عدد قومه :

تعيّرنا أنا قليل عديدا	فقلت لها انّ الكرام قليل
وما قلّ من كانت بقاياهُ مثلنا	شباب تسامى للعلی وكمول

وما ضررنا أننا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلٌ

ثالثاً التنديد . بأن يعرض بما يب الخضم لنقض شهادته وإبطال حجته . كما جاء في كتاب اخوان الصفا على لسان البيغاء تردُّ على الإنس وكانوا تفاخروا بماوكمهم وسياستهم فتنصّر للحيوان :

خذ الان ابحا الانسي بازاء كل ما ذكرتَ وافتخرت به واحداً مذموماً وبذل كل جنس حسن ملبح جنساً قبيحاً سمحاً ونحن بمغرلٍ عنها . وذلك ان منكم الفراعنة والناردة والجبارة والكفرة والفجرة والفسقة والمشركين والمنافقين والملحدن والمارقين والثناكسين والقاسطين والخوارج وقطاع الطريق واللصوص والعيارين والطرارين . ومنكم ايضاً الدجالون والباغون والمرتابون . ومنكم ايضاً الغمازون والكذابون والنباشون . ومنكم ايضاً السفهاء والخلاء والاغبياء والناقصون وما شاكل هذه الاصناف والادوصاف والطبقات المذمومة أخلاقهم الردية طباعهم القبيحة افعالهم السيئة اعمالهم الجائرة سيرتهم ونحن بمغرلٍ عنها . ونشارككم في أكثر الحصال المحموده والاخلاق الجميلة والسُّنن العادله . وذلك ان أول شيء ذكرتَ وافتخرت به ان لكم الملوك والرؤساء ولكم اعوان وجنود ورعية . او ما علمت بان لجماعة النحل وجماعة النمل وجماعة السباع وجماعة الطيور رؤساء وجنوداً واعواناً ورعية وان رؤساءها احسنُ سياسته واشدَّ رعاية من ملوك بني آدم لها واشدُّ تحنُّناً عليها وأكثر رافهً وشفقة عليها . بيان ذلك ان ملك الانس ورئيسهم لا ينظر في امور رعيته وجنوده الا ليجر المنفعة لنفسه او لدفع المضرة عنه او لاجل من يهواه لشهواته كائناتاً من كان قريباً او بعيداً . وليس هذا فعل الملوك العقلاء ولا عمل الرؤساء ذوي السياسة الرحماء بل من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرئاسة ان يكون الملك والرئيس رحيماً رؤوفاً لرعيته مشفقاً متحنّناً على جنوده واعوانه اقتداءً بسنة الله الرحمن الرحيم الجواد الكريم الرؤوف الودود لخلقهِ وعبيده كائناتاً من كان الذي هو رئيس الرؤساء وملك الملوك . وأما اجناس الحيوانات وملوكها ورؤساؤها فهم أكثر اقتداءً بسنة الله تعالى من رؤساء الانس وملوكهم . وذلك ان ملك النحل ينظر في امور رعيته وجنوده واعوانه ويفقّد احوالهم . وهكذا يفعل ملك النمل وملك الكراكي في حراسته وطيرانه وملك القطا في وروده وصدوره . هكذا حكم سائر الحيوانات التي لها رؤساء ومدبرون لا يطلبون من رعاياهم

عوضاً ولا جزاء فيما يسوسونهم به ولا يطلبون من اولادهم برّاً ولا صلة رحم ولا مكافأة كما يطلب بنو آدم من اولادهم البرّ والمكافأة في تربيتهم لهم . لكنها تربي اولادها تحنناً عليها وشفقة ورحمة لها ورأفة بها بل كل ذلك اقتداء بسنة الله اذ خلق عبيده وأنشأهم ورباهم وانعم عليهم وأحسن اليهم واعطاهم من غير سؤال منهم وفهم يطلب منهم جزاء ولا شكراً

رابعاً الاستدراك . بان يُقابل اعتراضات الخصم باعتراضات مثلها توهم قواها . كقول النعمان لكسرى وكان كسرى ادعى ان العرب ليس لهم شيء من خصال الدين والدنيا فياً كل بعضهم بعضاً :

أما (تخارجهم واكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم) فاذا يفعل ذلك من يفعله من الامم اذا آمنت من نفسها ضمناً وتخوفت خوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون في المملكة العظيمة اهل بيت واحد يُعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم امورهم وينقادون لهم بازمتههم . واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين مع أنفثهم من أداء الحراج والوصف بالمسف . . .

وكقول ابي حمزة الخارجي وبلغه ان اهل المدينة يعيرون اصحابه لحداثة اسنانهم وخفة اخلاقهم فصعد المنبر وعلمه كساء غليظ وهو متكبّ قوساً عربية فقال :

يا اهل المدينة بلغني انكم تنتقصون اصحابي قلتم : هم شباب احداث واعراب جفاة . ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلّة عقولكم لأحسنت آراءكم . ويحكم يا اهل المدينة وهل كان اصحابُ نبيّنا المذكورين في الخير الا احداثاً شباباً . شباب والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن التمر اعينهم ثقبلة على الباطل . قد باعوا انفساً تموت غداً بانفس لا تموت ابداً فطوبى لهم وحسن مآب

خامساً الترجيح . وهو ان يبين ان ما اقترحه المدافع عنه من الحسنات يشفع بما اجترحه من السيئات او ان ما فيه من النقص لا يقاس بما فيه من الفضل . كقول المسيب القرشي :

زعموا أنني قصير لعمرى ما تُكَالُ الرِّجَالُ بالقُفْزَانِ
أما المرءُ باللسان وبالقلب م وهذا قلبي وهذا لسانى

سادساً ردّ الحجة على الخصم . وذلك ان تعتمد الى حجة
الخصم وتبين انها عليه لا له كقول ابن سعيد يردّ على ابن حوقل
وكان قد نسب اهل جزيرة الاندلس الى صغر الاحلام وضعة النفس :

لم أرَ نَدًّا من إثبات هذا الفصل وان كان على اهل بلدي فيه من الظلم
والتعصب ما لا يخفى . ولسان الحال في الردّ انطق من لسان البلاغة . وليت شعري
إذا سلب اهل هذه الجزيرة العقول والاراء والمهمم والشجاعة فن الذين دبروها
بآرائهم وعقولهم مع مراصدة اعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة وتيف ومن
الذين هموا بيسالئهم من الامم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة اشهر على
كلمة واحدة في نصره الصليب . واني لأعجب منه اذ كان في زمان قد دلفت فيه
عباد الصليب الى الشام والخزرة وعاثوا كل العيث في بلاد الاسلام حيث الجمهور
والقبة العظمى حتى انهم دخلوا مدينة حلب وما ادراك وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد
الاسلام متصلة بها من كل جهة الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ ومن
اعظم ذلك واشدّ انهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التي يتمكنون
بها من سائط بلادهم فيسبون ويأسرون فلا تجتمع هم الملوك المجاورة على حسم
الداء في ذلك . وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذي لا
يُطَبُّ . وقد كانت جزيرة الاندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك
وراء ظهرهم وذلك موجود في تاريخ ابن حيّان وغيره

سابعاً التهكم والهزل . بان تبين انّ ما جاء به الخصم من
الادلة ليس تحته طائل فلا يستحق جواباً بل السكوت عنه
أولى وفقاً لما قيل :

إذا نطق السفية فلا تجبه فخير من اجابته السكوت

ومن الامثال في هذا الباب قول علي لهاوية وكان تهدده بالحرب :
وذكرت انه ليس لي ولاصحابي الا السيف . فلقد اضحكت بعد استمبار . متى

أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ وَبِالسُّيُوفِ مَخُوفِينَ، فَلَيْتَ قَلِيلًا يَلْحَقُ
الْهَيْجَاءَ حَمَلٌ، فَسَيَطْلُبُكَ مِنْ تَطَلُّبٍ وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ. وَإِنَّا مُرْقِلُ نَحْوِكَ فِي
جَحْفَلٍ مِنَ الْمَاهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِأَحْسَنِ شَدِيدٍ زَحَامُهُمْ سَاطِعٍ قِتْنَاهُمْ،
مَتَسَرِّبِلِينَ سُرْبَالَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ الْإِقْدَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَجَمٍ، قَدْ صَحَبْتَهُمْ ذَرِيَّةَ بَذْرِيَّةٍ
وَسُيُوفَ هَاشِمِيَّةٍ قَدْ عَرَفَتْ مَوَاقِعَ انْصَالِهَا فِي إِخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِكَ وَاهْلِكَ وَمَا
هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ

س ما الذي ينبغي للخطيب ان يحتز منه في تفنيد حجج الخصم ؟

ج ينبغي له ان يصون نفسه من اربع خصال :

الاولى . ان لا يؤخذ من رده انه غافل عن حجة خصمه

يجمل قوتها او يتجاهل بذلك

الثانية . ألا يكون جوابه ملتبساً ضعيفاً اظهر تكلفاً

لإفحام الخصم منه لاظهار الصواب وتقرير الحق

الثالثة . ألا يشرذع عن الموضوع فيتشغل بجل ما لم يكلفه

الخصم حله فيكون كالراقم على صفحات الماء

الرابعة . الا يجيد عن محجة الآداب المأنوسة ويذهل عن

سنن الالفه

الباب الثالث

في الختام

س ما هو الختام ؟

ج هو آخر ما ينتهي الى أذن السامعين من كلام

الخطيب

س ما هو شرف الختام ؟

ج ان شرفه عالٍ لحسن وقعه في النفوس اذ هو الباقي في ذهن السامعين وآخر ما يتردد صده في قلوبهم وبه تتم الفائدة . قال الحموي : لا بد ان يُحسن المتكلم في الختام غاية الاحسان لانه آخر ما يبقى في الاسماع وربما حفظ من دون سائر الكلام في غالب الاحوال فلا يحسن السكوت على غيره وقد ضربوا امثالا كثيرة مستفيضة في ذلك منها ما ورد في سورة الزلزال :

اذا زلزلت الارض زلزالها . وأخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها . يومئذ يصدر الناس اثنائاً ليروا اعمالهم فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

س ما هي غاية الختام ؟

ج فيه للخطيب غايتان : الاولى ان يتم اقناع السامعين . والثانية ان يهيج بهم الميل الى صنيع ما اذعنوا له

س كم قسماً الختام ؟

ج للختام قسمان يؤخذان من غايتي الخطيب : الاول تلخيص ما جاء بذكره مفصلاً في اثناء الخطاب وبه يتم اقناع الجمهور . والثاني تحريك العواطف وبه نهاية تأثير القلوب

س ماذا يجب على الخطيب ان يلاحظه في تلخيص الخطبة ؟

ج عليه ان يكتفي بذكر اهم ما جاء به من البينات

في خلال الكلام ومن ثم يبرزها على صورة جديدة واسلوب رشيقي لئلا تذهب طلاوة الكلام كختم الشيخ جمال الدين الافغانى لملقاته في مذهب الطبيعيين فقال :

فتبين مما قررناه أن الدين وإن انحطت درجته بين الأديان وهو أساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس المدنية ونظام الجمعية الإنسانية وأحمل أثراً في عقد روابط المعاملات. بل في كل شأن يفيد المجتمع الإنساني وفي كل ترقى شرى إلى أية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى

ولما كان نظام الأكوان قد بُني على أساس الحكمة ونظام العالم الإنساني جزء من النظام الكوني ألهم الله نفوس البشر أن تفزع إلى مقاومة أولئك المفسدين (الدهريين) في أي زمان ظهرُوا أو مدافعة ما يعرض من شرهم كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة والنفرة من الأغذية السامة. وأنحس حفظ النظام المدني الحقيقي وهو الدين لبذل الجهد وإفراغ الوسع في محو آثارهم واستئصال ما يفرسون في تعاليمهم . . . فكان عارض السوء منهم كسحاب الصيف كلما ظهر تقشع. والنظام الحقيقي لنوع الإنسان وهو الدين لم يزل قادراً راسخاً في جميع الأجيال وعلى أي الأحوال

فلم تبق ريبة إن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق ولم يخالطه شيء من أطليل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سبباً في السعادة التامة والنعم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني ويرفع أعلام المدنية لطأجها. فيفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفروهم بسعادة الدارين والله يجدي من يشاء إلى صراط مستقيم

س كيف يحصل الخطيب على تنمية التأثير في قلوب الجمهور ؟

ج أنه يحصل على ذلك إذا ما أفرغ كنانة مجهوده في تحريك الأهواء . فيلتجئ تارة إلى التحذير والترهيب وأخرى إلى الوعد والترغيب . وآتاتٍ يحمل السامعين على الرجاء أو على الخوف

وخلاصة الكلام عليه ألا يترك باباً ألا يقرعه ولا مسلكاً
ألا ينهجه لينصر راية الحق ويكسر شوكة الباطل حتى يفوز
بمبتغاه ويحصل على غاية مناه . مثال ذلك قول ابي الحليم في ختام
خطبة القاها يوم عيد القيامة (وهي ليست في مجموع خطبه) :

هلم معاشر المؤمنين لتعتد منذ الآن لأول العالم العتيد ، نخلي العقول بكمكارم
الاخلاق تحلية الاحساد بالجديد ، ونصون عرائس النفوس بمسدول اردية التقى
وخدوره ، صون خريدة الاحرار بإسبال طيالة الحياء وستوره ، نحتم بصدقات
الظفر صياننا . وبصلاات البر صلاتنا وقيامنا ، نتحرى لقصد صدق المقال ، وجمل
الطريقة في الخليفة والفعال ، ونسعى في طلب الحلال سعى الابطال ، ونشرع الى
الشرعية التي تؤدي الى الكمال ، حتى اذا ما اتى المخلص غافر الاوزار والآثام ، بسبح
مجد لا يطلق ولا يُرام ، حين ترتج السماء باصوارها ، وتذعن الخلائق خسيها
وجبارها ، وتدخل الابرار دار المسار ، وتلج الاشرار شرار النار ، وحين تُطوى
السماء كالجلباب . وتحشر الاجساد في مطامير التراب ، ويُقدم كل على ما قدم من
خطا او صواب ، ويتخلد المخلصون في جنات النعيم والمجرمون في اليم العذاب .
نتلقى السيد المسيح المخلص بمصابيح اعمال تنير بانوارها ، ونضارة آمال تشيع
بالايمان عواقب اسرارها فتسفف النفوس بآمالها واوطارها ، وتقر العقول في مقر
الحياة بملكوت السماوات قرارها . . .

وكقول الرندي في ختامه لثناء الاندلس :

يا غافلاً وله الدهر موعظة	ان كنت في سِنَّة فالدهر يقظان
يا راكبين عناق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقان
أعندكم نبأ من اهل اندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى وأسرى فما جتأ انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم	وانتم با عباد الله اخوان
ألا نفوس ابيات لها همم	أما على الخير أنصار واعوان
بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم	واليوم في بلاد الكفر عبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد	إن كان في القلب إسلام وإيمان

الاصل الثالث

في التعبير

فصلنا في الجزء الاول من علم الادب جميع قوانين الانشاء ليحسن الكاتب التعبير عن افكاره بالطرق المختلفة ولما كان المنشئ والخطيب بمنزلة واحدة من حيث توجيه الكلام لا حاجة للخطيب من قواعد خصوصية اتادية مراده . فنحيله الى الجزء السابق ونكتفي هنا بما يلي

س هل للتعبير شأن عظيم في الخطابة ؟

ج نعم لانه كساء الكلام به تنال الخطبة رونقها ومبهاءها كما يزين الثوب لابسهُ ويُجدي شخصهُ حسناً وجمالاً . فان أغضى الخطيب عنه امكنهُ ان يُقنع السامع لكنهُ لن يؤثر في ارادته ولا يحيك في قلبه فتبقى عواطفه جامدة باردة ولا يندفع الى العمل بما يقصده منه الخطيب

س ماذا يُستحب في تعبير الخطيب ؟

ج يُستحب فيه فضلاً عن وضوحه وفصاحته ان يكون غزير المادّة منمّقاً بالاشكال البديعة الملائمة آخذاً بمجامع القلب نحن الجوارح الى استماعه لما فيه من الانسجام والتفنن

س ماذا يتحتم على الخطيب ان يراعيه في كلامه ؟

ج يجب عليه ان يراعي : ١ طبقات السامعين فيسبك كلامه على ما يلائم احوالهم فيعدل الى السذاجة مع العامة ويتأنق في المقال مع الخاصة ويلتجئ الى افانين الكلام مع المسترشد المستهدي ويسهب في العبارة مع من يؤثر الاكثار ويوجز مع محب الاقلال

٢ اصناف الاقوال الخطبية . لان محور كلام الخطيب يختلف باختلاف الموضوع . ألا تراه طوراً يحدّ وطوراً يهزل وتارة يزجر وتارة يشكر وحيناً يمدح وحيناً يقدر الى غير ذلك . فآية وجهة ارادها ينبغي عليه ان يبرز كلامه فيها بلفظ يشاكل المعنى وعبارة تليق بالحال

٣ مقام الخطيب . فينظر الى نفسه في كل حال من احواله من حداثة او كهولة وتحك في امور او غرارة وهلم جراً ويولي كلامه ما يستشف من ورائه موقعه من هذه الاحوال

بحث في اداء الخطابي

س ما هو الأداء الخطابي ؟

ج هو القاء الخطبة بما يليق بها من حسن اللفظ وموافقة الصوت وحركات الجسم

س ما هو شأنه من الخطابة ؟

ج له شأن عظيم في الخطابة لأن الخطيب بحسن أدائه
يمييز في نفس السامع شواعره ويحرك اهواءه ويجذبها الى حيث
يقصد من غاياته . فالخطابة دون الأداء جسم بلا حياة وسيف
مُغمد لا يحسن حاملة الضرب به

س ماذا يدخل تحت حكم الأداء الخطائي ؟

ج ثلاثة اشياء : الذاكرة ثم الصوت ثم الإشارة
الذاكرة

س ما هي الذاكرة ؟

ج الذاكرة وتُدعى ايضاً بالحافظة هي قوة تمكن النفس
من حفظ المعاني التي يدركها العقل ثم من تأديتها عند الحاجة
س هل للخطيب غنى عن هذه القوة ؟

ج كلاً بل هو في حاجة امس اليها لأن الخطب عادة
تُلقى عن ظاهر القلب فان خانت الخطيب ذاكرته تلعثم
وتلجلج او ادركه الحصر فسقطت حجته . وان ارتجل خطبته
لا بُدَّ له ايضاً من اتقان رسمها وتقاسيمها وأدلتها ومعانيها لئلا
يشرد عن الموضوع او يُرتج عليه . وذلك انما يتم بحسن الذاكرة

س ما هي اقرب وسيلة الى تقوية الذاكرة ؟

ج هي الممارسة بان يستظهر الخطيب طرقاتاً من نظم

القدماء ومُلحاً من أقاويل البلغاء . يُجهد ذاكِرته على حفظها
ومراجعتها والقائها بصوت عالٍ دون عِيٍّ ولا لُكنة ولا قمتمة
٢ الصوت

س هل من موقع للصوت في الخطابة ؟

ج للصوت اطيّب موقع في الخطابة لأنّه الطريق الى
قلب السامع فان نفر هذا منه ضاعت اتعاب الخطيب وذهبت
مساويه سدى

س ماذا يجب على الخطيب مراعاته في الصوت ؟

ج يجب عليه اللفظ الحسن ثم اعتدال الصوت والتفنن
فيه

س ما المقصود باللفظ الحسن ؟

ج المقصود به أن يُعطى كلُّ حرفٍ حقّه من الوضع
لمتعارف بين الأدباء مع اجتناب لهجة العامّة المبتذلة وضبط
الالفاظ بمحركاتها المقبولة . ولا بأس اذا تكلم بين جمهور من
الشعب ان يتقرّب منهم ويتقلّد نوعاً كلامهم دون ركيكه
وحوشيه

س ما هو اعتدال الصوت ؟

ج هو موافقته للظروف فان الصوت يختلف على حسب
اختلاف الحضور واختلاف المكان والزمان وموضوع الكلام .

فإن الخطيب لا يتكلم امام الرؤساء كما يفعل امام الرؤوسين .
وكذلك يحتاج المكان الرحب ووفرة السامعين الى صوت ادق
واجهر . وليس صوت الخطيب في اوان الفرح كما يكون في
اوان الحزن . وبعض المواضع تستدعي صوتاً فخيماً وغيرها
صوتاً بسيطاً معتدلاً

س كيف يتفنن الخطيب بصوته ؟

ج اذا راعى اقسام خطبته من افتتاح الكلام وتأدية
البراهين وتحريك الالهواء وحسن الختام فاعطى كل قسم
الصوت اللائق به على مقتضى الحال . وكذلك اذا طبق صوته
مع العواطف التي يبرزها فإن لكل عاطفة صوتاً خاصاً بها .
ألا ترى ان صوت الغضب يخالف صوت الرقة والحنان وان
الرجاء صوتاً مبانياً لصوت القنوط وان لسان الخوف ينطق
بصوت ضعيف خافت على خلاف صوت البطش والثورة .
وقس عليه بقية العواطف

٢ الاشارات

س ما هي الاشارات الخطابية ؟

ج هي حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه
وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذي يفوه به
س ما هي افضل الاشارات ؟

ج هي الاشارات المبنيّة على درس الطبيعة المهدّبة بالثقيف والادب المتوسّطة بين غلظة العامة وتأثّق المتصنّعين

س ما هي الوقفة الموافقة للجسم ؟

ج هي الوقفة الطبيعيّة دون تؤثر في الجسم ولا تخنث بحيث يبعد الخطيب عن عظمة المتجبرين واضطراب المتهلّوجين

س ماذا يحسن بالرأس والوجه ؟

ج يحسن بالرأس ان يحيد عن الانتصاب الزائد والانحناء المفرط . وبالوجه والنظر ان يكونا كمرآة النفس في بيان عواطفها

س هل المذراعين واليدين حركات خاصّة ؟

ج نعم ولا يتقناها فنّ يدرسه كبار الخطباء والممثّلين الروايات . وما يقال بالاجمال ان الذراعين لا تُرخيان مهملتين ولا تُمدّان بإفراط او تلتصقان بالصدر . وان اليدين اذا تحرّكتا معاً تساويتا بالحركات منتظمتين وان تحرّكت الواحدة دون الاخرى اشارت باشارات انيقة حسنة الدلالة لاسيما اليمنى التي لها في الحركات النصيب الاوفى . وكذلك للاصابع حركات توافق اليد وتبيّن ايماءها . ولا شك انّ الارتياض مع مراقبة الخطباء البلغاء احسن معلّم لهذا الفنّ

الفصل الثاني

في

فنه الخطاب

قد تقدم أن صناعة الخطابة تدور على محورين أعني اصول الخطابة وفنونها . أما الاصول فقد مرّ بيانها فبقي علينا ان نورد فنون الخطابة وضروبها

س كم هي فنون الخطابة ؟

ج اربعة وهي خطب التثبيت والمشورة والمشاورة والوعظة

س على أي ركن مبنی هذا التقسيم ؟

ج ركنه اجناس السامعين الذين يوجه الخطيب اليهم الكلام . والسامعون اما المقصود افادتهم وذلك بالقول التثبيتي . واما المراد مناسطرتهم وهو القول المشوري . واما محاكتهم وهو القول المشاجري . واما إرشادهم وإنذارهم بايضاح الحقائق الدينية وحملهم على السيرة الصالحة وذلك بالوعظة

س ما هي الغاية من هذه الاقاويل وبأي شيء تختلف ؟

ج الغاية من القول التثبيتي المدح او الذم فيمدح الحسن ليؤتسى به ويذم القبيح لينفر عنه وهو مختص عمومًا بالوقت الحاضر . والغاية من القول المشوري الإذن والمنع بان يُجمل السامع الى ما فيه النفع ويُعدّل به عما فيه الضرر وهو مختص بالمستقبل . والغاية من المشاجري العدل او الجور بحكاية المدعى عليه فتبرّر ساحته من الجناية او يقرّر عليه الذنب فيلزمه الحكم وهو ينظر الى الماضي من الزمان . امّا الوعاظة فغايتها الحقيقة الدينية لاثباتها في عقول السامعين وحضّهم على السيرة الفضلى وهي تناول سائر الازمنة (١)

س كيف يقسم المحدثون فنون الخطابة ؟

ج يقسم المحدثون غالباً الخطابة الى خمسة فنون وهي خطب النوادي العلميّة ثمّ الخطب السياسيّة ثمّ الخطب القضائية ثمّ الخطب العسكرية ثمّ الدينية . ويجوز توفيق هذا التقسيم مع السابق كما سترى

(راجع مقالات علم الادب الجزء الثاني ص ١٣٧-١٤٢)

(١) انّ ارسطو في كتاب الخطابة حصر فنونها في الثلاثة الاولى دون الوعاظة التي شاعت خصوصاً بعد السيّد المسيح الذي وكل الى كنيسة تعليم الشعوب ودعوتهم الى الخلاص

الباب الأول

في القول الثبتي

س ماذا يشمل القول الثبتي من اجناس الخطب ؟

ج يشمل كل الخطب التي يُقصد بها مدح الفضيلة واربابها وذم الرذيلة واصحابها اخصها خطب الشاء وخطب التآبين وخطب التهاني وخطب الشكر وما اشبهها

البحث الأول

في الخطبة الثابتة

س ما هي الخطبة الثابتة ؟

ج هي التي تُلقى في المحافل لمديح كبار الرجال وافاضل الناس من اهل الدين والدنيا

س ما هو المرجع الاعلى للثناء ؟

ج هو الفضيلة لأنَّ بها الانسان يمتاز عن سواهُ ويبيّن ما طُبعت عليه نفسه من خلال الطيبة المكتسبة بحدّه وحسن

عمله

س ألا يجوز ان يُمدح المرء بما سوى الفضيلة ؟

ج لا بأس من ذلك ولكن على شرط ان يبين الخطيب ما بين تلك الامور المدوحة وفضل المزدان بها من الارتباط كأنها أتباع لفضيلته مثبتة لها كاشفة عن خفاياها

س ما هي اخص مصادر المدح الثانوية ؟

ج هي كرم المحتد ومآثر الاجداد والبلاغة والقوة والجمال والثروة والمناصب الشريفة . مثاله قول ابي الحليم في مديح يوحنا المعمدان يذكر شرف نسبه :

لَمَّا آن للحكمة الازليّة ان تُشرق بالناحوت من مَطْمَعِ التَّوَلِيّةِ ، وتُرد الى العالم الكوني من سُرَادِقِ الْأَمْصَارِ الْعُلَوِيّةِ ، تَجَمَّ امامها كوكب الصُّبْحِ الْأَشْرِقِ ، وعمود الصَّلاحِ الْأَزْرَقِ ، شهابُ الْفَلَقِ الْأَزْهَرِ ، ومُصْبِحُ الْكَهْنُوتِ الْأَجْرُ ، سراجُ الْحَقِّ الْأَبْلَجِ ، الهادي الى سواءِ الْمَهْجِ ، زهرة الدِّجَةِ الْكَهْنُوتِيّةِ ، وَثَرَةُ الْأَيْكَةِ الْمَلَكُوتِيّةِ ، سليلُ الْخَوَاصِرِ الطَّهْرِ ، ونَجْمُ الْعَوَاقِرِ الزُّهْرِ ، نَبِغُ الشَّجَرَةِ الْبَاقِرَةِ ، يوحنا شهيد الدنيا وسعيد الآخرة ، الذي لم يَقُمْ في مَنْ لَفَظَتُهُ حُشَا النِّسَاءِ اعْظَمَ مِنْهُ فِدْرًا ، واشرف مِنْهُ فِخْرًا ، واذكى مِنْهُ نَشْرًا ، وانفس مِنْهُ عِنْدَ اللَّهِ خَطَرًا . . .

س كم لخطبة الثناء من اسلوب ؟

ج لها اسلوبان : تاريخي ونظري . فالاسلوب التاريخي يتبع اطوار حياة الممدوح فيشني على ما يجده في كل منها من الامور الحميدة على مقتضى زمن بروزها . اما الاسلوب النظري فانه يجمع محامد الممدوح فينظمها في سلك بعض الفضائل التي امتاز بها فبلغته اوج الكمال . كما لو اردت ان تمدح

ايلاً النبي اثبت على غيرته لله التي شملت كل اعماله بازاء بني اسرائيل
وملوكتهم وجعلها كشعار حياته

س اي الاسلوبين افضل ؟

ج الاسلوب النظري اوقع في قلوب السامعين وادل
اقتدار الخطيب . اما الاسلوب التاريخي فاقرب واسهل . ولا بد
للخطيب ان يحسن التصرف به ليخرجه من الابتذال ويجيد
عن طريقة التراجم البسيطة ويحلي به بضروب البلاغة ومحاسن
الخطب

س كم هي اطوار الحياة التي ينظر اليها الخطيب في المديح التاريخي ؟

ج ثلاثة : ما يتقدم حياة المدوح . ثم أحداث زمن
حياته . ثم ما جرى له بعد وفاته

١ - موارد المديح السابقة لحياة المدوح

س ما هي موارد الثناء السابقة لحياة المدوح ؟

ج هذه الموارد ثلاثة وهي : أولاً احوال الزمان الذي
ولد فيه المدوح من دين وسياسة وعلم وآداب فتبين ما كان
من المناسبة بين ولادته وظروف المذكورة . مثاله أن تصف
ماحوال بني اسرائيل في مصر قبل مولد موسى لتبين حاجة شعب الله الى
من ينقذهم من رق عبودية المصريين وفساد دينهم

وربما سبقت مولد الممدوح آيات ونبؤات او حوادث
اشعرت بما سيكون من امره فلا بُدَّ من ذكرها . كما ورد في
الانجيل عن يوحنا المعمدان وفي العهد العتيق عن صموئيل
ثانياً وطن الممدوح اللهم اذا كان منشئاً لقوم مشاهير
كما لو شئت انشاء على القديس يوحنا الدمشقي ان تذكر مفاخر دمشق
فتقول :

قد فازت دمشق بالشرف الاثيل ، ورقيت الى مقام عالٍ جليل ، وجرّت
ذيل افتخارها على البلاد الشامية ، وسحبت مطارف العز على المدائن الشرقية ، ربّت
تحت سائتها اعظم الرجال ، وهذبت اكابر الابطال ، منها ظهر جلة العلماء المدققين ،
وفيهما كان مثوى الصالحين ، ومدرل الاتقياء المتورعين ، ولم تلبث ان زادت على
ما تقدّم من مزاياها مزية ، وازادت الى ما سلف من مكارمها مكرمة سنية . . .
فانبثت في تربتها الصالحة يوحنا هذا الذي يندر ان تأتي له الايام بضرب . . .

ثالثاً نسب الممدوح كسرف اصله ومآثر آباءه وتعداد
مفاخر اجداده فتثبت بذلك ان المولود فرعٌ نامٍ لدوحة كريمة
كما يقول الشاعر :

مجرى اصاغرهم مجرى اكابرهم وفي اُرومته ما ينبت الشجرُ

مثاله مديح يزيد بن عبد المدان سيد نجران :

ان وقفت لأثني على كرمه الذي لا يباري فيه انسان ، وامدح سطوته التي لا
يختلف عليها اثنان ، اداني سياق الكلام ، وحررتني وحدة النظام ، الى ان اذكر مفاخر
اجداده العظام . ومآثر سلفائه الفخام . هم الذين شيّدوا الكعبة التجارية فأنموا
كل خائف واجاروا كل ملهوف واطعموا كل جائع وقضوا حاجة كل محتاج
وفكّوا الاسرى باموالهم وبذلوا النفوس دون أعراضهم وساقوا كتابهم الى كل
معاند وحطّموا ديار كل غاصم . وما هو الا سلالة اولئك القوم الذين رفعوا رايات
عزم فوق كل راية . . . فكفى يزيد فخراً انه وريث مكارمهم . . . ومُعير ما

طُمِسَ من رسوم عظامهم . . . ومالي اقول ذلك وقد زادم رُقيّاً الى ذرى المجد والشرف حتى اجتمع لديه ما نقصهم وتوقّر له ما فاتهم

• امّا اذا كان اصل الممدوح ذنباً فيُمدح بحسن مساعيه التي رَقَّتْ به الى المقام الرفيع رغماً عن خمول آبائه . وفقاً لقول الشاعر :

انّ الفتى من يقولُ ها انا ذا ليس الفتى من يقول كان ابي

٢٠. وارد المديح في حياة الممدوح

س ما هي اخصُ الامور الجديرة بالثناء في حياة الممدوح ؟

ج اخصُّها الفضائل ثمَّ العلوم ثمَّ الاعمال الشريفة والمآثر الحسنة في خدمة الدين والوطن واسعاف القريب

س ما هي أولى الفضائل بالمدح ؟

ج أولاها بالمدح الاستمسك بالدين وتقى الله . كقول ابن شدّاد يمدح صلاح الدين لتدينه :

كان صلاح الدين رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد اخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث كان اذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً . وكان من شدة حرصه على عقيدته يعلمها الصغار من اولاده حتى تترسّخ في اذهانهم من الصغر . . . واما الصلاة فانه كان رحمه الله شديد المواظبة على السنن الرواتب . وكان له صلاة يصلّيها ان استيقظ بوقت في الليل والّا اتى بها قبل صلاة الصبح . وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه . ولقد رأيتُه قدّس الله روحه يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائماً وما ترك الصلاة في الايام الثلاثة التي تقيّب فيها ذهنه . وكان اذا ادركته الصلاة وهو سائر تزل وصلّى . . .

ثمَّ يمدح الانسان على زهده وبرّه بوالديه وحبّه لوطنه ثمَّ على عدله وانصافه لرعيته ثمَّ على حلمه ورحمته للضعفاء وكرمِه

وسخائه نحو المحتاجين. ويثنى عليه لتواضعه وصبره على البلىا
وعظيم همته. فهذه الفضائل وامثالها يرويها الخطيب دون مبالغة
ولا ترف الى المدوح. مثاله ما وصف به المسعودي الخليفة ابا
بكر :

كان ابو بكر ازهد الناس واكثرهم تواضعاً في اخلاقه ولباسه ومطعمه
وكان لبسه في خلافته السملة والمباة. وقدم عليه زعماء العرب وشرافها وملوك
اليمن وعليهم الحلل والحر + برود الوشي الثقيل الذهب والتيجان فلما شاهدوا
ما عليه من اللباس والزهذ والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا
مذهبه وتزعوا ما كان عليهم . . . حتى انه روى يوماً في سوق من اسواق المدينة
على كتفه جلد شاة ففزعت عشيرته لذلك وقالوا له : قد فضحتنا بين المهاجرين
والانصار والعرب. قال : فأردتم مني ان اكون ملكاً جبّاراً في الاسلام لا والله لا
تكون طاعة الرب الا بالتواضع لله والزهذ في هذه الدنيا

س وهل يُمدح المرء لثروته او لصفة في جسمه ؟

ج هذه الاوصاف عرضية يمكن الخطيب ان يلحقها
بما هو اعظم واسمى كدلائل نعمة الله وفضله عليه . فمن ذلك
سعة الاملاك والثروة ثم بسطة الخلق والهيئة الوسيمة والقوة .
كقول عباس يمدح علي بن ابي طالب :

ان لأمير المؤمنين اشباحاً أربعة : الاسد الخادر . والبحر الزاخر . والقمر الباهر .
والربيع الفاخر . فاما الاسد الخادر فأشبه منه صولته ومضاءه . واما البحر الزاخر
فأشبه منه جوده وعطاءه . واما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه . واما
الربيع الفاخر فأشبه منه حسنه وجهاءه

س ما هي العلوم التي يستحق المرء مديحاً عليها ؟

ج هي العلوم الدينية ثم الفلسفية والنظرية ثم الرياضية

والطبيعية ثم اللسانية والكتابية ثم العملية والصناعية قال الشيخ محمد عبده يمدح جمال الدين الافغاني عن علومه :

• اماً مترلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحذها قلعي الآ بنوع من الاشارة اليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها و ابرازها في صورها اللاتقة بها كأن كل معنى قد خُلق له . وله قوة في حل ما يفضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عندها . كل موضوع يلقى اليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على اطرافه ويحيط بجميع اكنافه ويكشف ستر النحوض عنه فيظهر المستور منه . واذا تكلّم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها . ثم له في باب الشرقيات قدرة على الاختراع كأنّ ذهنه عالم الصنع والابداع . وله لسن في الجدل وحذق في صياغة الحجّة لا يلحقه فيها احد الا ان يكون في الناس ما لا نعرفه وكفاك شاهداً على ذلك انه ما خاصم احداً ولا جادله عالم الا الزم . . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

س ما هي الاعمال الشريفة التي يؤثر مدحها ؟

ج هي قبل كلّ اعمال البر في سبيل الله ثم المآثر المشكورة في خدمة الوطن والهئية الاجتماعية ثم ترقية العلوم والصنائع والتجارة والزراعة والسعي بكل ما يعود الى تخفيف وطأة البؤس عن العموم ويفتح لهم سبل الارتراق . مثاله مدح ابن سيراخ لداود الملك حيث قال :

كما يُفصل الشحم من ذبيحة الخلاص هكذا فصل داود من بني اسرائيل . لاعب الاسود ملاعبته الجداء والادباب كأنها سمنان الضأن . ألم يقتل الجبار وهو شاب . ألم يرفع العار عن شعبه اذ رفع يده بحجر القلاع وحطّ صلف جليات . لانه دعا الربّ العليّ فأعطى يمينه قوةً ليقتل رجلاً شديد المراس ويعلّي قرن شعبه فاعطاه الرب مجداً قاتل ربوات وامده ببركاته اذ نقل اليه تاج المجد . حطّم امامه الاعداء من كلّ جهة وأفنى الفلسطينيين المناصبين وحطّم قرصم الى يومنا هذا . في جميع أعماله اعترف للقُدوس العليّ بكلام المجد . بكل قلبه سبّح واحبّ صانعه .

اقام الغنّين امام المذبح ولقّنهم الحاناً لذيدة الساع . جعل للاعياد روحاً وللمواسم زينة الى الانقضاء لكي يسبح اسمه القدّوس ويرث في قدسه منذ الصباح . الرب غفر خطاياه واعلى قرنته الى الابد عاهد على الملك وعرش المجد في اسرائيل

٣ موارد المدح المناسبة لما بعد وفاة المدح

س باي شيء يشاد ذكر المدح بعد وفاته ؟

ج بظروف موته وبما عقب وفاته

س كيف يُمدح المـ بظروف موته ؟

ج يختلف المديح على اختلاف هذه الظروف . فان قضى نحبهُ في سلّم بين الخطيب قوّة نفسه وحسن استعدادده لملاقاة ربه . وان مات في حرب اطرى بسالته في الدفاع عن الوطن وان ذهب شهيد ايمانه او محبته للقريب عظم جهاده في سبيل الله وهلمّ جرّاً

س ماهي اسباب المديح الموافقة لما بعد الموت ؟

ج منها قريبة موقّته كحفلة مأتم المدح وكأبة الاهل والاحباء . وأسف العالم على فقدّه وتقديرهم لاعماله . ومنها باقية ثابتة كذريّة المدح وذكر فضائله وتعداد الاعمال التي خلفها من بعده كالمرّات والتأليف والمصانع . ثمّ ما نال من الجزاء عن حسناته في دار البقاء . اما مثال الاول فكقول ابن الجياد من خطبة له يصف حزن الناس على رجل شريف :

ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام. وحارت الالباب والقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام. فعمّ الخزنُ والاكتئاب. وتوارى انور فاظلم الجنب. وعاد الاصحاب وكأنما دموعهم السحاب

ومثال الثاني كقول ابي الحليم بن الحديثي يصف وفاة رسل المسيح وما لحق بها :

... ثم ازف وقت ارتحالهم ، وخسفت عقدة الموت أقمار آجالهم ، ففيهم من عمر طويلاً ، وفيهم من مات قتيلًا ، وفيهم من قُتِلَ مصلوبًا ، وُصِبَ مكبوبًا ، وقُبر محسوبًا ، وقُتِلَ مضروبًا ، فَمَنَ عمرَ منهم عاش بالله سميّدًا ، ومن قُتِلَ منهم مات في الله شهيدًا ، شَقُوا في عالم الفناء قليلًا ، وسعدوا في عالم البقاء طويلاً ، واستخلفوا على رعايا المسيح أئمةً يهدون الى مقار الملكوت ، مؤيدين بالمواهب الروحانية ووقار الكهنوت ، ليتصل شعاع الجذوة المتقبسة من نور المسيح ولا ينطفئ ، ويضيء مصباح الامانة على المنار البيعي ولا يخفئ ، ثم رحلوا عن سكائن الابدان المقدسة بوحوه بادية السفور ، مُشرقة بالضياء والنور ، عليهم من نعمة المسيح سيّدهم مَنَحَ وآلاء ، وعلى أسرة وجوههم من نوره هلاله وآلاء ، قد نُصِبَتْ لهم الكراسي الاثنا عشرية ، وفُوضت اليهم أمانة فضل القضاء على كل البرية ، يلتذون مع مخلصهم في محابح قصور الابد ، وفي النعم الذي لم تره عين ولا سمعت به اذن ولم يرق على بال احد ...

س ما هي طريقة الخطب في الذم وخلاف المديح ؟

ج هي على عكس ما سبق فإن الخطيب لو اراد كشف معاييب انسان اتخذ اسباب المذمة والتعبير من ذات الظروف السابق ذكرها في اطوار حياة المذموم . كما فعل الدستوريون يوم خلع السلطان عبد الحميد

البحث الثاني

في خطب التأبين

س ما هو التأبين وما الخطب التأبينية ؟

ج التأبين في اللغة مدح الميت خاصة . والخطب التأبينية ما يفوه به الخطباء ذكراً لماثر ميت جليل في دينه او دنياه

س متى تُلقى هذه الخطب ؟

ج يلقيها الوعّاظ في الكنيسة يوم المأتم او في احدى الحفلات المقامة لتذكار الميت . ويخطب بها الادباء عند الدفن في المقابر او في المحافل الخاصة

س ما هي غاية الخطب التأبينية ؟

ج غايتها مثلثة : فالغاية الاولى وفاء الميت حقّه من الثناء على اعماله الطيبة . والثانية تعزية آله المأسوفين على وفاته . والثالثة حث السامعين على اقتفاء آثاره

س كيف يكون استهلال هذه الخطب ؟

ج يليق بهذه الخطب ان تستهلّ بفاتحة تنبئ بفرط اسف الخطيب ووصف المشهد المحزن الذي تألّب له الحضور وتعظيم المصاب بموت الفقيد . وكثيراً ما يستمدّ الخطيب مفاتيح

كلامه من آية وردت في الاسفار المقدسة او من اقوال بعض المشاهير من الرجال . فتارة يخاطب نفسه كقول اوس ابن حجر :
ايتها النفس اجملي حزعا ان الذي تحذرين قد وقعا

وتارة يوجه كلامه الى الميت . كقول محمد بن الحنفية على قبر الحسين :

برحمك الله ابا محمد فلئن عزت حياتك ، فلقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح ضمه بدنك ، ولنعم الدين بدن ضمه كفك . . . فطبت حيا وطبت ميتا وان كانت نفوسنا غير طيبة بفراقك

وكقول الآخر في الاحنف بن قيس :

لله درك من مجن في حنن ، ومدرج في كفن ، نسأل الذي فجعنا بموتك وابتلانا بفقدك ان يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وان يوسع لك في قبرك ، ويفر لك يوم حشرك

وطورا يذكر خطوب الدهر وفواجهه كقول القائل :

ألا ان السرّة لا تدوم ولا يبقى على دهر نعيم

وحينا يصف ما يراه على وجوه الحضور من اشارات

الحنن وفي عيونهم من ترقق الدموع فيقول مع الشعبي :

فلئن بكيناه يحن لنا ولئن تركنا ذاك للصبر
فلمثل حرت البيون دما ومثل جمدت ولم تجر

س كيف يتصرف الخطيب في الاثبات ؟

ج اخص الاثبات مدح الميت . اما طريقته فكطريقة الخطب المدحية وقواعده كقواعدها . فيمدح الميت في اطوار

عمره على حسب توالي ازمنة حياته او تُورد اعماله مقيّدةً بفصيحة
تعمّها . دونك ما مدح به ابن السمّاك داود الطائي فقال يذكر زهده
الشامل لكل اعماله :

انّ داود نظر الى ما بين يديه من آخرته فأغشى بصر القلب بصر العين فكأنه
لم ينظر الى ما اليه تنظرون وكأنكم لم تنظروا الى ما اليه نظر وانتم منه تُعجبون
وهو منكم يُعجب . فلماً رأى اكم مفتونين مغرورين قد اذهلت الدنيا عقولكم
واماتت بجهتها قلوبكم استوحش منكم . فكنت اذا نظرت اليه حسبتُه حياً وسط
اموات . يا داود ما اعجب شأنك بين اهل زمانك . اهنت نفسك وانما تريد
راحتها . اخشت الطعام وانما تريد طيبه وخشت اللبس وانما تريد لينه ثم امت
نفسك وقبرتها قبل ان تُقبر وعذبتها قبل ان تُعذب سجت نفسك في بيتك ولا
محدث لها ولا جليس معها ولا فراش تحتك ولا ستر على بابك ولا قلّة تبرّد فيها
ماء ولا صحفة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك . يا داود أما تنتهي من الماء بارده
ولا من الطعام طيبه ولا من اللباس لينه . بلا ولكن زهدت فيه لا بين يديك .
فما اصغر ما بذلت وما احقر ما تركت في جنب ما رغبت وأملت . لم تقبل من
الباس عطية ولا من الاخوان عويّة فلماً مت شهرك رُك فضلك وألبسك رداء
عملك فلو رأيت من حضرّك علمت ان ربك قد اكرمك وشرّفك

وهذا ما كتبه احد المعاصرين يوم وفاة الخبر الاعظم لاون الثالث
عشر واصفاً لاعماله الجليلة :

كفى دليلاً على عظم شأنه ان الوفود المؤلفة من كل الجهات والبلاد كانت
تخرج تباعاً الى مقام الفاتيكان للتبرّك بإمام الاحبار ولساُهم لا يكف عن ذكر
فضائله . ومع وجود ملايين من البشر لا يعترفون بسلطته الروحية ما كنت ترى
واحداً الا يقر بما لشيخ الفاتيكان من الاوصاف والمناقب الغراء الجديرة بالملوك
ورؤساء الحكومات . ولذا حق لنا ان نقول بأن العالم كله يندب اليوم رجل
العصر ومؤيد النظام الالفي في الهيئة الاجتماعية وخدام الانسانية
اليوم تبكيه الكنائس الكاثوليكية على اختلاف طوائفها واتفاق عقيدتها .
تبكيه الطوائف الشرقية التي شدّت في حياته طقوسها وقام بتعزيز امتيازاتها ورفّع

منارها وتوسيع نطاق كنائسها فضلاً عما جاد به من التعطفات والمواهب على كل منها. . .

وقد عزز المعارف في الكنيسة ونشر لواء العلم في رومية ورفع مناره حيث انشأ عدة مدارس شهيرة واقام المحافل والمنتديات والجمعيات العلمية والادبية التي يضيئ المقام دون تعدادها. . . ومن انشائه المرصد الفلكي الشهير في الفاتيكان. . . ومن آثار همته تحريضه للكاثوليك على انشاء المجلات والجرائد العلمية والادبية لنشر المبادئ (الصحيحة في كل اللغات. . .

ماذا عسانا ان نقول في وصف يتيمة هذا الدهر وشمس العصر نادرة الفلك ونكتة الدنيا من استظهر على حور الايام بحكمته الباهرة ونصر الكنيسة بحسن تدابير السلبية فاضى الملوك طرا دون ان يتساهل بانثلام عقائد الايمان الموكولة اليه وحل في الصحيح من قلوبهم فتسابقوا الى اجلاله واحترامه

(راجع ايضا في اطرب الشعر واطيب النثر ما كتبناه عن وفاة البابا لاون ج ٢ ص ٧٥-٧٦)

س ما هي مصادر التعزية للاهل والاقارب ؟

ج اولها مشاركتهم في بلواهم كأن المصاب شمل كل معارف الفقيد فعم الخطب وقضي الصبر على الكل في تلك الرزية العامة . كقول بعض المحدثين :

الله يعلم ما حل بنا من الاسف والقلق وتجرع النقص والحرق لهذا الحادث الاليم والخطب الجسيم . فلما ورد علينا هذا النبأ ضاقت الارض في عيننا بما رحبت فوقع على الرووس وقوع الصاعقة فأسال الدموع واحرق الضلوع واوجم القلوب وفاضت العين بالدمع المدرار فتبدل الضياء ظلاماً وعادت حلاوة الحياة مراراً . فالله تعالى يفرغ على قلوبنا صبراً جميلاً وعلى من فقدنا عفواً عميماً

ثانيها ما خلف الميت لآله من الذكر الطيب والآثار المشكورة . كقول ابي الفضل الميكالي في رجل شريف :

فلقد عاش نبيه الذكر حليل القدر عبقّ الشئ والنشر . يتجمل به اهل بلده ويتباهى بمكانه ذوو مودته ويفتخر الأثر وحاملوه براخي بقائه ومدته حتى اذا نسّم ذروة الفضائل والمقاب وظهّرت محاسنه كالنجوم التواقب احتفظته يد المقدار ومحت اتره بين الآثار . . فالفصل خاشع الطرف لفقده . والكرم خالي الربع من بعده . والحديث يندب حافظه ودارسه . وحسن العهد يبكي كاهله وحارسه

ثالثها بيان ما ناله المتوفى على اعماله من الثواب في دار الخلود لدى الاله العادل الذي لا يدع عملاً صغيراً الا يجازيه جزاءً واسعاً . كقول ابن الحديثي في الشهيد مار فشيون :

ثم نُقلت نفسه على الأعداد الملائكيّة الى رحاب النعم . وأرقت سائرة على الاجرام الفلكيّة الى عباب ابرهم . مستوكة للظّلّ الوريّة مع الاشخاص السعداء . مستوطنة لمطال الرّحمة والعمم الاندي مع الاطهار والشهداء الذين عن خطّة الرّؤال بالهمم القدسيّة انفصلوا . ونقطة الكمال الفائقة للسكر الحسيّة اتّصلوا . اولئك الذين بيّدوا عالم الفناء والتهوات الحية . ورفقوا الى ذروات الكمال بالهمم القدسيّة . فأثبتت سماؤهم في الدواوين العليّة وأعدت أحورهم مع الابرار في الاوابين الازلية . شملكم الله بدعائه وصلاته . وأسكنكم في محاله وبظلالته

رابعها ان يبين ان اهل بيت الفقيه قد ورثوا عنه خصاله الطيبة وسجاياه المحموده فكأنه لا يزال يحيا في عشيرته . كما قال لسان الدين ابن الخطيب من خولبه له :

وليتهنك أن صير الله تعالى ملكك من بعدك الى نير سعدك ، وبارق رعدك ومنجز وعدك ، أرضى ولديك وريحانة خلدك وشقة نفسك ، والرحمة المباركة من غرسك . ونور شمسك وموصل علمك البر الى رمسك . فقد ظهر عليه اتر دعواتك في خلواتك واعقاب صلواتك . فكلمتك (والمنة لله تعالى) باقية ، وحسنتك الى محل القبول راقية ، برعى بك الوسيلة ، ويتمم مقاصدك الحملة ، أعانه الله تعالى بركة رضاك على ما قلده ، وعمر بتقواه بونه وغده . وابعد في السعداء امده ، واطلق بالخير يده . وجعل الملائكة انصاره والافراد عده

س. اين موقع حث السامعين ؟

ج. موقعه في آخر الخطبة خصوصاً حيث يدفعهم الى مجازاة الفقيد واقتصاص آثاره في مبراته واعماله المشكورة .
مثاله قول يشوعياب الدنيسري اسقف نصيين تحضُّ على اقتفاء آثار مار أوكين زعيم السيّاح :

تأملوا أيها الاخوان التصرفات الاوَكينية ، وتعلّموا منها التداييرات الأخروية ، تعنّوها لتوصلكم الى المقامات النورية ، ولازموها لتؤدي بكم الى الحدور الملكوتية ، فن طلب اصاب ، وما خاب قط من تاب ، ولا طرق الباب الآوُجّاب ، وما جدّ احد الآوِجاد ، ولا كدّ عبد الأوساد ، ولا تب امرؤه إلا واستراح ، ولا سمعد في تطلّب مطلوب الا من ناح ، بيعوا الدينويات الحقيمة ، وابتاعوا الملكوتيات الخطيرة ، استعبدوا الشهوات الحسية ، وتعبدوا للذات النفيسة ، ترقّوا النعم المحسوس الزماني ، وتلقّوا نسيم محي النفوس الابدي . . . اجعلوا الزّاهد الاعمل ، والعابد الافضل والعارف الاكمل ، والقديس الاعظم ، والسليح الاكرم ، مار اوكين شفيعكم عند مسيحكم ، شملكم الله وايانا بفائض بركاته

س. كيف تختم خطب التأبين ؟

ج. تختم امّا باستمطار بركات الله على الفقيد وامّا بالسلام الاخير على روحه وامّا بالوعد على حفظ ذكره في القلوب ليؤتسى بامثاله وغير ذلك مما يليق بالمقام ويثير لوعة الحزن على المتوفى . كما ترى في ختام خطبة لسان الدين حيث يخاطب تربة السلطان ابي الحسن صاحب غرناطة :

السلام عليك ايها المولى الهام ، الذي وجبت خفة العلماء الاعلام ، وخفقت بمنز صرهم الاعلام ، وتنافست في انفاذ امره ونهيه السيوف والاقلام ، السلام عليك ايها

المولى الذي قسم زمانه بين حكمٍ فَصْلٍ ، وامضاء نَصْلٍ ، واحراز خصل ، وعبادة قامت من اليقين على اصل ، السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومشيع البطون الجائئة وكاسي الظهور العارية ، وقادح زناد الغزائم الوارية ، ومكتب الكنائس الغازية في سبيل الله تعالى والسرايا السارية ، السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ، ومتلقي امر الله تعالى بالخلق المرضي والأمر السليم ، ومفوض الامر في الشدائد الى السميع العليم ، كرم الله تعالى تربتك وقُدْسها ، وطيب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر جمالاً وللمستجير مجيراً ، وللمظلوم وائياً ونصيراً ، لقد كنت للمحارب صدراً ، وفي المواقب بدرأ ، وللمواهب مجراً ، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً وستراً ، لقد فرغت اعلام عزك الثنايا ، واجزلت همتك للملوك الارض الهدايا ، كانك لم تعرض الجنود ، ولم تشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، فتوسدت الترى وأطلت الكرى ، وشربت الكأس التي يثرها الورى ، واصبحت ضارع الحدّ كيل الحدّ ، سالكاً سنن الاب والجدّ ، لم تجد بعد انصرام اجلك ، الا صالح عملك ولا صحبت لقبرك ، الا رابع تحرك ، وما أسلف من رضاك وصدرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اعتراك ، ويجود سبحانه الرحمة ترابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الامة المتقين ويعلي درجتك في عليين ، ويجعلك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين

البحث الثالث

في خطب الشكر

س ما هي خطبة الشكر ؟

ج هي التي يُثني فيها الخطيب على المحسن بذكر

احسانه (١)

قال ابن طلحة في العقد الفريد : الشكر المتعارف بين الناس هو اظهار النعمة والتحدث بها وبسط اللسان بالمحمدة والتعظيم للمنعم بها والتثويه بذكره ورفع قدره

س مِمَّ تَتَرَكَّبُ خُطْبُ الشُّكْرِ ؟

ج من ثلاثة امور : الاول - وبه تُصَدَّرُ غالباً خطبة الشكر - ان تذكر صنعة المُحْسِنِ وارتياح المُحْسِنِ اليه بقبولها . والثاني وعليه معظم كلام الخطيب في الاثبات ان تعَظِّمَ قَدْرَ الاحسان . والثالث - وبه تُخْتَمُ عادةً الخطبة - ان تبَيِّنَ ان ذكر الصنعة لن يبرح عن بال المنعم اليه فيشكره عليها طول حياته

س من كم وجه يمكن تعظيم قدر الاحسان ؟

ج من اربعة اوجه : الاول بتعظيم شخص المُحْسِنِ من حيث علو شأنه ورفعة مقامه . فان قدر النعمة يزيد بشرف المنعم

الثاني بتعريف حالة المنعم عليه اذا نال النعمة عفواً من غير استحقاق وعلى حين حاجته اليها

الثالث ببيان قدر النعمة في نفسها كقيمتها وحسنها وصعوبة البلوغ اليها

الرابعة بذكر طريقة منحها . كما لو أُتيحت النعمة في ظروف الزمان والمكان والنوعية تدلُّ على رقة طباع المنعم فن مثال الشكر الحسن ما قاله الحسن بن وهب لأمير :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا أَوْ ثَرَوَةً أَفْزَرْتَهُ عَلَيْهَا فَانْ شَكَرِي لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ أَحْيَيْتَهَا وَحَشَاشَةٍ أَبْقَيْتَهَا وَرَمَقٍ اسْكَنْتَ بِهِ وَقْتَ بَيْنِ التَّلَفِ وَبَلَيْتِهِ

فلكل نعمة من نعم الدنيا حدٌ تنتهي اليه ومدى يوقف عنده غاية من الشكر يسمو اليها الطرفُ خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصف واطالت الشكر وتجاوزت قدره وانت من وراء كل غاية رددت عنّا كيد الهدوء وارتغت انف الحسود فنحن نلجأ منك فيها الى ظل ظليل وكنف كريم فكيف يشكر الشاكر وابن يبلغ جهد المجتهد

وابلغ منها خطبة منذر بن سعيد بين يدي الخليفة وقد استوفى فيها لكل شروط الشكر فآظهر فوحه بالنعمة وارتياحه الى شكر المنعم ثم تطرف الى تعظيم قدر المصطنع ثم اتسع باطراء صنيعه :

فأصغوا اليّ معشر الملا بأسماعكم وأتقنوا عني بأفئدتكم. ان من الحق أن يقال للمُحِقّ : صدقت. ولللبطل : كذبت. وان الجليل - تعالى في سائيه وتقدس بصفاته واسمائيه - أمر كلميه موسى ان يذكر قومه بأيام الله جلّ وعزّ عندهم. واني اذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافه امير المؤمنين التي لمت شعثكم وأمنت ربربكم ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلاً فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم. ولآه الله رعايتكم وأسند اليه إمامتكم ايام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، واحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم في مثل البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة والرخاء وانتقلتم بيمين سياسته الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ، أشدكم بالله معاشر الملا ألم تكن الدماء مسفوكه فحقنّها ، والسبل مخوفة فأمّنها ، والاموال منتهبة فاحرزها وحصّنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمّرها ، وثغور المسلمين منهضة فحاجها ونصرها ، فاذكروا آلا. الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمانته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدأ على عدوكم بعد ان كان بأسكم بينكم . فأشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ، ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب احوالها ، ولم يكِلْ ذلك القواد والاجناد ، حتى باشره بالقوة والمهجة او الاولاد ، ورفض الدعة وهي محبوبة ، وترك الركون الى الراحة وهي مطلوبة بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة ، نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وساطان قاهر ، وجدّ ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملاً للنصب ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لها غارب الا

جبهه، ولا نبح لاهلها قرن إلا جدّه، فاصبحت بنعمة الله اخواناً، وبلغ امير المؤمنين لشعركم على اعدائهم اعواناً، حتى لو اثرت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته ابواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الاقصين والادنين مستخدمة اليه واليكم يأتون من كل فج عميق، وبلغ سحيق، لاخذ جبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً، ليقضي الله امراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الامر ما بعده، وتلك واسباب ظاهرة بادية، تدل على امور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، «ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم» وليس في تصديق ما وعد الله اريباً، ولكل نبياء مستقر ولكل اجل كتاب، فاحمدوا الله اجمعاً الناس على آلائه، واسألوه المزيد من نعمائه، فقد اصبحتم بين خلافة امير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد، والهمه خالص التوفيق الى سبيل الرشاد، احسن الناس حالاً وانعمهم بالآ، واعزهم قراراً، وانعمهم داراً، واكتفهم جمعاً، واجملهم صنماً . . .

البحث الرابع

في خطبة التهئة

س ما هي خطبة التهئة ؟

ج هي الخطبة التي تُلقى في محفل حافل يُعرب الخطيب فيها عن فرحه لنعمة اصحابها الجمهور او احد الرؤساء والاشراف (فائدة) هذه الخطبة لا تختص فقط بنعمة حديثة نالها احد الكرام بل تشمل الحوادث القديمة كاستقلال احد الشعوب وكمالواسم المدنية السنوية تذكاراً لواقعة جليلة وكمبعض دواعي الافراح كمواد ملك او جلوس سلطان او استقلال دولة او تدشين معهد علمي او حفلة عيد ديني وما اشبه ذلك

س كم قسماً لهذه الخطبة ؟

ج اخصّ اقسامها ثلاثة : ففي القسم الاول يبين الخطيب
الداعي لتلك الحفلة والنعمى الجزيلة التي احتشد القوم لتذكّارها
وسرورهم العظيم بها

وفي القسم الثاني يفيض في وصف تلك النعمة السابقة
ويعظم قدرها ويتّسع في سوابقها ولواحقها وعلائقها

وفي القسم الثالث يطلق لسانه بالمدح على المهنيّ واستحقاقه
لتلك النعمة لفضله وفضيلته . ثمّ يختم بالدعاء له بالسعد الدائم

مثل ذلك ما فاه به احد وزراء الملك جليعاد مهتأ له بمولود هو وليّ
عهده فيبني فرح العموم به وما يؤمل من مولده من الخيرات :

تبارك الله العظيم . انح العطايا الصالحة والمواهب السنية . وبعد فانا نتحقّنا ان
الله ينعم على من يشكره ويحافظ على دينه . وانت ايجا الملك السعيد . الموصوف
هذه المآقب الجليلة والعدل والانصاف بين رعيّتك بما يرضي الله تعالى . فلاجل ذلك
اعلى الله شأنك واسعد ايامك ووهب لك عطية صالحة التي هي هذا الولد السعيد
بعد اليأس . وصار لنا بذلك اقرح الدائم والسرور الذي لا ينقطع . لاننا قبل ذلك
كنّا في همّ شديد وعمّ زائد بسبب عدم ولدك . وفي افكار فيما انت منظر عليه
من عدلك ورأفك بنا . وخوفاً ان يقضي الله عليك بالموت . ولم يكن لك من
يخلفك ويرث الملك من بعدك فيختلف رأينا ويقع بيننا الشقاق . ولكن قد منّ الله
علينا بهذه النعمة ووحّك لنا . ونحن واثقون الان بالصلاح وجمع الشمل . والامن
والامانة والسلامة في الوطن . فتبارك الله العظيم وله الحمد والشكر والثناء الجميل .
وبارك الله للملك ولنا معشر الرعية ورثنا واياہ السعادة العظمى . وجعله سعيد
الوقت قائم الجدّ

ومثله لبديع الزمان يهني الملك سبكتكين بفتح بهاضية من بلاد
الهند فعظم الانتصار بذكر وفرة مخاطر الحرب وصعوبة مباشرتها وبيان

حسن تصرف الملك في خوضها وانتصاره الباهر على العدو رغمًا عن عدده
وعُدده وشدة بطشه :

وسندكر من حديث الهند وبلادها، وغلظ اكبادها، وشدة احقادها، وقوة
اعتقادها، وصدق جلادها، وكثرة اجنادها، نبذاً ليعلم السامع اي غزوة غزاها
الامير السيد. اما بلاد لوم تُحيطها السحاب بذرها، لأهلكتها الشمس بجرها، فهي
دولة بين الماء والنار، ونوبة بين الشمس والامطار، تقدتها صباب الجبال وتحجبها
رحاب القفار، ويصمها ملتف الغياض وتحفها طواغي الانهار، حتى اذا خرقت هذه
الحجب خلص الى عدد الرمال والحصى رجالاً، وشبه الجبال اقبالاً، وأتراع
المخاض جلاداً، ومسناف الحمال طعاناً، واركان الجبال ثباتاً، ثم لا يعرفون غدراً
ولا بياتاً، ولا يخافون موتاً ولا حياة، ولا يبالون على اي جنبه وقع الامر،
وينامون وتحتهم الجمر، وربما عمد احدهم لغير ضرورة داعية ولا حمية باعثة فاتخذ
لراسه من الطين اكليلاً، ثم قور قحفه فحشاه فتيلاً، ثم اضرم في الفتيل ناراً ولم
يتأوه والنار تحطسه عضواً فعضواً وتأكله جزءاً فجزءاً. فإما يُحرق نفسه ومغرقها
وآكل لحمه ومفصل عظمه. واميها من شاق، فأكثر من ان يُعدّ.
واقلمهم من يموت حتف انه. فاذا مات هذه الميتة احدهم سبها عقابه، وعظم
عندهم عقابه، بلاد هذه حالها، وفيلة تلك احوالها، وجبال في السماء قلالها، وفلاة
يلمع آلهها، وغياض ضيق مجالها، وانهار كثيرة احوالها، وطريق طول مطالها،
ثم الهند ورجالها، والهندوانية واستمالها، زحمت الامير السيد ادام الله ظله هذه
الاهوال بمنكيه محبسا نفسه معتمداً صر الله وعونه فركض اليهم بعون من الله لا
يُخذل ومدد من التوفيق لا يفتر. وقلب من الاهوال لا يحين وحث على المطلوب
لا يقصر وسيف على الضريبة لا ينكل: فسهل الله له الصعب، وكشف به الخطب،
ورجع ثانياً من عنانه بالاسارى تنظمهم الاغلال، والسبايا تنقلهم الجبال، والفيلة
كانها الجبال، والاموال ولا الرمال، فتح ذرعه الله عن الملوك السالفة الخالية،
الجبابرة العاتية، حتى وسع نارهم، وجعله بض آثاره

س كيف تكون خاتمة خطب التهنة ؟

ج تختم هذه الخطب بالشكر لله على النعمة المنوحة

وبالدعاء لنائلها كي لا تزال حياته مقرونة بالهناء ودوام البركات
كدعاء البطريك اليّا الثالث ابي الحليم للخليفة حيث قال :

اللهم زد سيدنا ومولانا امير المؤمنين نصراً واعتزازاً، وأدم ايام دولته التي
اضحت على ثوب الزمان طرازاً، واجعل العز والافتدار باطناب سراقده محققاً،
والنصر والاقبال على ذوائب اعلامه منشوراً وملتبساً، ومطالع السعد مشرقة الاضواء
على مواكبه، ونود الظفر خافقة على جنوده، وكنائمه، ونسائم النصر والاجلال
هابية على انصاره وارليائه، ونسائم القهر والاذلال لافحة لوجوه اعدائه واعدائه،
حتى تمتد اظلال دولته على المغرب والمشرق، ويذعن لجزته بالسطوة والعلاء
وكل ضد مبين وعدو مارق، برحمتك يا ارحم الراحمين. آمين

(راجع مقالات علم الادب الطبعة الجديدة ج ٢ ص ١٧١)

في خطب اخرى لاحقة بالقول التثبيتي وفي اثناء هذا القول

س ألا يوجد خطب أخرى تعود الى القول التثبيتي ؟

ج نعم واخصها المحاضرات التي يُنشئها الخطباء في المحافل
الادبية في بعض المواضيع التاريخية او الادبية . والتقاريط
التي تتلى في المقامات الرسمية والنوادي العمومية عند قدوم
احد الامراء او تقليده او سفره او زيارته وعند دخول احد
العلماء في مجمع علمي وما اشبه ذلك ومعظمها عائد الى ثناء او
شكر او تهنئة . فهذه الخطب مرجعها الى القول التثبيتي .
ولا بد في كل منها مراعاة المقامات ومقتضى الاحوال

(راجع مقالات علم الادب ج ٢ ص ١٧٢ في خطب التقليد)

س اي طبقة من الانشاء يستخدمها الخطيب في القول التثبتي ؟

ج سبق ان الغرض من القول التثبتي المدح او الذم
فالانشاء اللائق بهذه الغاية يكون عادة من الطبقة الوسطى
التي يحلي بها الخطيب كلامه بالانسجام والطلاوة والرقّة ممّا
يسترضي السامع ويفكه خاطره . ومن ثم عليه ان يتحاشى
التعابير الخشنة والاساليب الناشفة وكل ما تنبوعه السامع
ويأباه الذوق السليم



الباب الثاني

في القول المشوري

س ما هو القول المشوري ؟

ج هو القول الذي يشير به الخطيب الى مباشرة امرٍ ما
او الى العدول عنه فينقسم قسمين الاذن والمنع

س ما هي الغاية من هذا القول ؟

ج الغاية منه دفع السامع الى ان يطلب النافع او
يستنكف عن الضار

(فائدة) لما كانت الامور النافعة عدّة درجات متفاوتة كالنافع والانعف
والغاية في المنفعة يمكن الخطيب المشوري ان يرجح نفعاً على نفع . وكذلك
للضار طبقات فيستطيع الخطيب ان يحمل السامع على ما هو اقل ضرراً

س ما هي المواد التي يدور عليها محور القول المشوري ؟

خ هي المواد الواقعة تحت حكم السامع فيستطيع ان
يختارها بمشيئته او يرفضها بملّ حريته . امّا الامور الاضطرارية
فلا سبيل الى المفاوضة فيها ومثلها الامور البعيدة الامكان لقلة
الوسائط الى العمل بها فان الخطيب باشارته الى صنعها يضرب
الهواء او يرقم على صفحات الماء

س ما هي اخصُ الخطب الداخلة في القول المشوري ؟

ج هي الخطب السياسية والخطب العسكرية وخطب
التحريض والتقريع والطلب والوصاء والشفاعة

البحث الاول

في الخطب السياسية

س ما هي الخطب السياسية ؟

ج هي التي يلقيها أخطباء في مجلس الشورى او النوادي
العمومية لتدبير احوال الدولة وسياسة امورها

س ما هي الامور التي تتناولها هذه الخطب ؟

ج هي كل الامور العمومية التي تفيد الدولة ويتباحث
فيها اباب الشورى لاصلاح شؤون الرعايا وترقية الوطن كسن
الشرائع العادلة وتنظيم الدوائر الرسمية وما ينوط بها من مالية
وحرية ومعارف وفنون وزراعة وكالنظر في الامور الخارجية
وعلائق الدولة مع الدول الاجنبية

س ألمهذه الخطب شأن عظيم ؟

ج لها اعظم شأن وارفع مقام لأن عليها مدار حياة
الدولة من صعود او هبوط بتنفيذ السنن العمومية

س هل للخطب السياسيّة موقع في جميع الدول ؟

ج كلا ليس لها من موقع في الدول ذات السلطة المطلقة، حيث ازمة الامر في يد ملك يأمر وينهى كما يشاء لا يرد امره مانع ولا يزعه وازاع

س ما هي الدول التي تُفسح المجال للمخطابة السياسيّة ؟

ج هي الدول الدستوريّة سواء كانت جمهوريّة يدبرها نواب الامّة او ملكيّة يخضع ملكها للدستور فيملك على الدولة ولا يسوسها اما الحكم فيها فلمجلسي العموم والاعيان باكثرية الاصوات . ومثلها الولايات المتحالفة او الممتازة في تدبير شؤونها الخاصّة

س اتخلو الخطب السياسيّة من كل ضرر ؟

ج هذه الخطب يختلف نفعها او ضررها على حسب الاهواء التي ينقاد اليها الخطيب فان اعماه الغرض وسوّلت له نفسه تغليب آرائه الواهنة بحيث يموّه الحق على السامعين ويذخرف لهم الباطل طوّح بوطنه في المهالك بحمل رصفائه على سن الشرائع الضارّة للبلاد ومباشرة الحروب الجائرة وهلم جرّاً . وعلى خلاف ذلك اذا نصر الحق وطلب لوطنه كل صلاح وضحّى لرقبه النفس والنفيس كان له افضل نصير

س ما هي الصفات التي يجب على الخطيب السياسي ان يتَّصف بها ؟
 ج يجب عليه : أولاً ان يتعمَّق في درس الواجبات
 والحقوق الشخصية والدولية التي عليها مبنى المجتمع الانساني
 فيعطي كل ذي حق حقه دون ان يلحق بوطنه ضرراً ما
 ثانياً ان يحبَّ وطنه حباً خالصاً مجرداً عن كل انائيَّة وعن
 كل غرض شخصي او تحزُّب انصرة زيد او مناهضة عمرو فلا
 يرى الاخير الوطن العزيز

ثالثاً ان يُحسن درس الامور التي يتباحث فيها ارباب الدولة
 وينظر في كل وجوها فيحكم فيها عن معرفة تامة وفقاً
 للدستور ولا يشطَّ في حكمه

رابعاً ان يكون رابط الجأش ذا عارضة ولسن ليستطيع ان
 يقوم في وجه معارضيه ويجيبهم بداهةً درن ان تضعف عزيمته
 لمناقضتهم ولتحاتلهم عليه او تموه عليه سفسطةهم

س ما هي معارض الكلام التي يأخذ عنها الخطيب السياسي
 ادلته ؟

ج لما كانت غاية هذه الخطب الاشارة بعمل الشئ
 فيدرك الخطيب بغيته ان بين كون الشئ المقصود صالحاً ونافعاً
 وضرورياً وسهلاً ولذيذاً . وعلى عكس ذلك اذا اراد الاشارة بترك
 الشئ فيبين الوجوه الخمسة المضادة للوجوه المذكورة او بعضها

س كيف يبين الخطيب صلاح الشيء ؟

ج بان يذكر محاسنه الذاتية التي تجبهُ الى القلوب مع قطع النظر عن نفعه . كما فعل داود اذ اراد ان يجيب شريعة الرب لبني اسرائيل فقال :

شريعة الرب كاملة تردّ النفوس . وشهادة الرب صادقة تحكّم الغي . امر الرب مستقيم يفرّج القلب ووصية الرب نقيّة تنير العيون . خشية الرب طاهرة ثابتة الى الابد واحكام الرب حقّ وعدلٌ جميعها . هي اشهى من الذهب والاريز الكثير واحلى من العسل وقطر الشهاد وعبدك ايضاً يستنير بها

س ما هي الامور النافعة التي يحسن بالخطيب ذكرها ؟

ج هي الامور التي تُطأب خيراً ينجم عنها سواء كان ذاك المفع مقروناً بالصلاح كرضي الخالق والفضيلة والشرف والمجد او غير مقرون كصحة الجسم وهناء العيش والثروة والامان . كقول منذر بن سعيد يحثُ قومه على التزام الطاعة لخليفتهم :

فاستمينوا على صلاح احوالكم ، بالمناصحة لإمامكم ، واتزام الطاعة لخليفتكم فانّ من تزع بدأ من الطاعة وسعى في تفريق الجماعة ومرق في الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وقد علمتم ان في التعاقب مصمتها ، والتمسك بروحها ، حفظ الاموال وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة والدعاء ، وان بقوام الطاعة تُقام الحدود ، وتوفى اليهود ، وجها وصلت الارحام ، ووضحت الاحكام ، وجها سدّ الله الخلل ، وأتمن السبل ، ووطأ الاكفاف ، ورفع الاختلاف ، وجها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما امركم الله بالاعتصام

س ماذا تفهم بالامر الضروري ؟

ج هو الامر الذي يقضي على الانسان بان يأتي عملاً او

يدعُ صيانة لشرفه او لحياته. مثاله قول الخليفة المنصور العباسي يبين فيه اضطراذه الى قتل سلالة علي بن ابي طالب :

• يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً مناَّ وانَّ وُلد ابن ابي طالب تركناهم والذي لا إله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم قليل ولا كثير . . . ثم وثب بنو أُبيّة علينا فابتزّونا شرفنا واذهبوا عزّنا والله ما كان لهم عندنا تِرة يطلبونها وما كان ذلك كلّهُ الا في الطالبين وبسبب خروجهم فنقوتنا عن البلاد فصرنا مرّة بالطائف ومرّة بالشام ومرّة بالسراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعةً واصاراً فاحيا الله شرفنا وعزّنا بكم واطهر لنا حقّنا واصار الينا ميراثنا من نبينا (صلعم) فقَرَّ الحقّ في قراره واطهر الله مناره واعزّ انصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا . فلما استقرّت الامور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم وبغياً لهم بما فصلنا الله به عليهم . . . فاستحلّت دماءهم وحكمت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتاسم الخروج عليّ . . .

س كيف يثبت الخطيب كون الامر سهلاً ؟

ج ذلك ببيان قرب مناله وقلة العناء بتحصيله مع وفرة منافعه مثاله قول حزقيال لبني اسرائيل اذ طيّب قلوبهم لمحاربة الاشوريين فقال :

تشدّدوا وتشجّعوا ولا تجزعوا ولا تفشلوا في وجه ملك اشور ولا في وجه كل الجيش الذي معه لأنّ معنا أكثر ممّن معه انما معه ذراعُ بشر ومعا الربُّ الهنا يعيننا ويحارب حروبنا

س ما المقصود باللذيد ؟

ج المقصود به كلّ ما يجدي فرحاً للقلب وراحة للنفس وهناء للعيش . كقول الشاعر يرغب في طلب العلم بما يحصل لصاحبه من اللذة :

ما تطعمتُ لذَّةَ العيشِ حتى صرتُ في وحدتي لكتبي جليسا
ليس عندي شيء الدَّ من العلم فلا ابتغي سواه أنيسا

ومن هذا الباب وصفُ أيوب لشبابه اذ كان في رخاء العيش ونعمة
الحياة :

من لي بمثل الشهور السالفة ومثل الأيام التي كان الله فيها حاضري . يُوقد مصباحه
على رأسي فاسلك الظلمة في نوره . على ما كنت أيام عفواني واللهُ مجالسي في
خبائي . والقدير لم يزل معي وصيبي يحيطون بي . أغسلُ قدميَّ بالذَّبن . والصخرُ
يفيض لي انهاراً من الرِّيت . أخرجُ الى باب المدينة واتَّخذُ في الساحة مجلسي .
يراني الشَّبَّانُ فيتوارون والشيخ يقفون منتصبين . والامراء يسكرون عن الكلام
ويجعلون ايديهم على افواههم . يتخافت منطق العطاء وتلصق ألسنتهم بأحاسكهم .
اذا سمعتُ بي اذنٌ غبطتني واذا رأيتني عين شهدت لي . لاني كنتُ أُنجي البائس
المستغيث واليتيم الذي لا معين له . فتحلُّ عليَّ بركة الهالك وأجملُ قلب الارملة
متهللاً . لستُ العدلُ فكان كسائي وما رح قضائي حلتي وتاجي . كنتُ عيناً
للأعمى ورجلاً للأعرج . وكنتُ أباً للمساكين . أستقصي دعوى من لم اعرفه .
وأحطمُ أبواب الظالم واتزع فريسته من بين اسنانه . وكنتُ أقول اني سأموت في
كتي وكارمل ازداد ايماناً . وعروقي منبسطة على المياه والندى يبيت على اغصاني .
وقد نجدد مجدي وازدادت قوسي قوَّة في يدي . يستمعون لي منتظرين وينصتون
لمشورتي . وعلى كلامي لا يزيدون واقوالي تقطر عليهم كالندى . ينظرونني كالغيث
ويفتحون افواههم كأني وليُّ المطر . اتبسَّم اليهم فلا يصدقون ولا يطرِّحون نور
وجعي . اختار طريقهم فاجلس في الصدر واحلُّ محلَّ الملك من الجيش والمعزِّي
من الناحيين

أما الان فقد ضحك متي من يصغرن في الأيام من كنتُ آنف أن أجعل
آباءهم مع كلاب غنمي . . .

ولو اردتُ المنع عن الشيء وجدت لك امثلةً في ما يأتي :

فمن ذلك قول تلامذة بييدبا الفيلسوف يريدون صدَّ استاذهم عن

مواجهة الملك دبشليم لاستبداده :

أيها الفيلسوف الفاضل والحكيم العادل أنتَ المقدَّم فينا والفاضل علينا وما عسى

ان يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك غير أننا نعلم ان السباحة في الماء مع التمساح تغرير والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه . والذي يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه فليس الذنب للحية . ومن دخل على الاسد في غابته لم يؤمن وثبته . وهذا الملك لم تغزعه النوايب ولم تؤدبه التجارب . ولسنا نأمن عليك وعلى انفسنا من سطوته . وانا نخاف عليك من سوتره ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب . . .

ومن ذلك ايضاً ما قال يحيى البرمكي للهادي وكان قد عزم الهادي على ان يخلع اخاه هرون من الخلافة ويُبايع لابنه جعفر . فصدّه عن ذلك يحيى مبيناً ضرر فعله :

يا امير المؤمنين ان فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ونقض العهود . وتجراً الناس على مثل ذلك . ولو تركت أخاك هرون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد في بيعته . . . ولو حدث بك حادث الموت وقد خلعت احاك وباعيت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ أفترى كانت خلافته تصح . وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة اليه . فدع هذا الامر حتى تأتية عفواً . ولو لم يكن المهدي بايع لهرون لو حَبَّ أن تباع أنت له لثلاث خرج الخلافة من بني ابيك

ومنه قول يهوذا لاختوته مبيناً لهم عدم النفع من قتل يوسف اخيهم :
ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونحفي دمه . تعالوا نبيعه للاسماعيليين ولا تكن ايدينا عليه لانه اخونا ولحمنا . . .

ومثله ايضاً قول الفضل بن العباس (في مشاورة المهدي لاهل بيته في حرب خراسان) يصد الحليفة عن محاربة تلك البلاد :

ايها المهدي ان ولي الامور وسائل الحروب ربما نحى جنوده وفرق امواله في غير ما ضيق امر حزبته ولا ضغطة حال اضطرته فيقدم عند الحاجة اليها وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقداً لها لا يتق بقوة ولا يصول بعدة ولا يفرغ الى ثقة . فالرأي لك ايها المهدي وفقك الله ان تعفي خرائنك من الإنفاق للاموال وجنودك من مكابدة الاسفار ومقارعة الاخطار وتغريير القتال ولا تسرع للقوم في الاجابة

الى ما يطلبون والعطاء لما يسألون فيفسد عليك ادبهم وتجري من رعيّتك غيرهم . ولكن أغزهم بالحيلة وقتلتهم بالمكيدة وصارغهم باللين وخاتلمهم بالرفق . وابق لهم بالقول وأرعد نوحهم بالفعل . وابتع البعوث وجند الجنود وكتب الكتاب واعقد الاولوية وانصب الرايات . واطهر انك موّجه اليهم الجيوش مع أخنق قوؤادك عليهم واسوئهم اثرأ فيهم . ثم ادس الرّسل وابثت الكتب وصّع بعضهم على طمع من وعدك وبضاً على خوف من وعيدك . وأوقد بذلك وأشباهه نيران التجاسد فيهم واغرس اشجار التنافس بينهم . حتى تملأ القلوب من الوحشة وتطوي الصدور على البغضة ويدخل كلّ من كل الحذر والهيبة . فان مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمناهة بالكتب والمكايدة بالرّسل والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب القوي الموقع من النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبني على اللين الذي يستميل القلوب ويسترقّ العقول والاراء ويستميل الالهواء ويستدي الموائاة انفذ من القتال بظلمات السيوف واسنة الرماح . كما ان الوالي الذي يستقر طاعة رعيّته بالحيل ويفرق كلمة عدوة بالمكايد احكم عملاً والطف منظرًا واحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك الا بالقتال والإتلاف للاموال والتفريغ والمخاطر . وليعلم المهدي انه ان وجه لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم الا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة وتُقدّم على اسفار ضيّقة واموال متفرقة وقوؤاد غشّسة ان أثنعنهم استنفدوا ماله وان استنصهم كانوا عليه لاله . . .

س ما هي العواطف التي يحسن بالخطيب المشوري ان يحرّكها ؟

ج اخصها الامل والثقة بالوصول الى الغاية المرغوبة . ثمّ المحبة والشوق الى الحصول عليها بوصف محاسنها وتعظيم قدرها . ثمّ تحريك المنافسة ليجاري السامع من سبقه فيباريهم في العمل ويحظى بما اصابوه . مثالة قول متيّب المكايي بحث بنيه ليقصدوا بالآباء . والانياء في الدواع عن شريعتهم :

لقد اشتدّ التجبّر والعقاب وزمان الانقلاب ووزع الخنق . فالآن ائها البنون غاروا للشرية وابدلوا نفوسكم دون عهد آبائنا التي صنعوها في احيالهم فتناولا

جداً عظيماً واسماً مخلّداً. لم يكن ابراهيم في التجربة يُوجد مؤمناً فحُصِبَ له ذلك برّاً. ويوسف في اوان ضيقه حفظ الوصية فصار سيّداً على مصر...

وحُرِّكَتْ امّ المكابيين في قلب اصغر بنيتها المحبة والرجاء والرغبة في مجارة اخوته بمقاساة العذابات فقالت :

يا بُنَيَّ ارحمني انا التي حَمَلْتِك في جوفها تسعة اشهر وارضعتك ثلاث سنين وعالتك وبلّغتك الى هذه السن وربّتك. انظر يا ولدي الى السماء والارض واذا رأيت كل ما فيها فاعلم ان الله صنع الجميع من العدم وكذلك وُجِدَ جنس البشر. فلا تخف من هذا الجلاد لكن كن مستاهلاً لاختوتك واقبل الموت لأتلقاك مع اخوتك بالرحمة

او تحرّك المواطنين المخالفة للاهواء المذكورة. كالنفور والخوف كما فعل هولاءكو خان القول اذ دعا الملك الناصر الى طاعته وفتح مدينة حلب لجيشه فقال :

يعلم الملك اننا نحن جندُ الله في ارضه خَلَقْنَا وسلّطنا على من حلّ عليه غضبه. فليكن لكم في مَنْ مضى معتبر، وبما ذكرناه وقلناه مزدجر، فالخوصون بين ايدينا لا نغم، والمساكر المقاتنا لا تضر ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُستجاب ولا يُسمع، فأنتمظوا بغيركم، وسلّموا الينا مقاليد امركم، قبل ان ينكشف الغطاء، ويحلّ عليكم الخطأ. فنحن لا نرحم من شكّا، ولا نرق لمن بكّا، وقد اخبرنا البلاد، واخبرنا العباد، وايتمنا الاولاد، وتركنا في الارض الفساد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من سهامنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وعقولنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فن طلب منا الامان سلم، ومن طلب الحرب ندم، فان انت اطمع امرنا وقبلتم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وان انتم خالفتم امرنا وفي غيبتكم تماديتم فلا تلومونا ولوموا انفسكم، فانه عليكم يا ظالمون فهبثوا للبلايا جلباباً، وللرايا اتراباً، فقد اعذر من انذر، وانصف من حذر، لانكم اكلتم الحرام وختمتم بالآثام... فابشروا بالذلّ والهوان، فاليوم تجدون ما كنتم تعملون، سيعلم الذين ظلموا ايّ منقلب يتقلبون، فقد ثبت عندكم اننا كفرة، وثبت عندنا انكم فجرة، وسلّطنا عليكم من بيده الامور مقدرة والاحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا ذليل وغنيكم

لدينا فقير، ونحن ما لكون الارض شرقاً وغرباً، واصحاب الاموال خباً وسلباً،
واخذنا كل سفيه غصباً، فثروا بعقولكم طرق الصواب قبل ان تُضرم الكفرة
بنارها، وثُرمي بشرارها، فلا تبقى منكم باقية، وتبقى الارض منكم خالية، فقد
ايقظناكم، حين راسلناكم، فسارعوا الينا برّد الجواب بثّة، قبل ان يأتيكم العذاب
بقتّة، وانتم تعلمون

البحث الثاني

في الخطبة العسكرية

س ما هي الخطبة العسكرية ؟

ج هي الخطبة التي يلقيها قائد الجيش قبل الحرب ليحص
جنده على مناهضة العدو ويدفعهم على محاربة الوطن

س ما هو خطر هذه الخطب ؟

ج لها خطرٌ عظيم لأن كثيراً ما يتوقف عليها انتصار
الجيش فإن الجندي إذا ما تحمّس بكلام رئيسه نشط للقتال
وحارب العدو محاربة الابطال فيموت شهيداً حبه للوطن او
يفوز بالظفر

س ما المحور الذي عليه تدور الخطب العسكرية ؟

ج الخطب العسكرية تدور على محور معلوم ثابت مختلف
الاعراض فالواجب على الخطيب من جانب ان يُنهض همّة
الجندي ويُعظّم في عينه الوطن الذي تصدّى للدفاع عنه وما

سينالُه بحسن بلائِه من المجد في اعين مواطنيهِ ومن الثواب لدى الله ان مات شريف النفس . ومن جانب آخر ان يبغض اليه العدو ويذلُّه ببيان جوره وضعف قوَّته وسهولة الانتصار عليه والفوز بعدده وذخائره

س ما هي خواص الخطب العسكرية ؟

ج لهذه الخطب اربع صفات : الاولى ان يلقيها الخطيب بحماسة عظيمة فيجيز في قلوب سامعيه ما في قلبه من الحمية والنشاط

الثانية ان تكون بليغة متضمنة للافكار الشريفة والمعاني المنيفة المهيجة للعواطف لا سيما الرجاء والثقة
الثالثة ان تكون موضحة قريبة المنال يدر كها الجند دون عناء

الرابعة ان تكون قصيرة لا يمل منها الجند فتخرج من فم الخطيب كشهب النار الملتهبة ويتلها السامعون كالنبال الراشقة فلا يكادون يتماكون عن نزال العدو

س اذكر امثلة من هذه الخطب ؟

ج من احسن هذه الخطب كلام طارق لجنوده قبل فتح الاندلس ومقاتلة ملك القوط لُذريق قال :

إيها الناس أين المفرُ. البحر من ورائكم والعدو من امامكم وليس لكم والله
الآ الصدق والصبر. وأعلموا انكم في هذه الجزيرة أصبغ من الايتام ، في مأدبة
الثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه . واسلحته واقواته موفورة واتم لا وّرر
لكم الا سيوفكم ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت
بكم الايام على افتقاركم ولم تُنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم وتموّضت القلوب من
رعبها عنكم الجراًة عليكم . بادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم
بمناجزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه
لمكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . واني لم احذركم أمراً انا عنه بنجوة ولا
حملتكم على خطئة ارحص متاع فيها النفوس . ابدأ بنفسي . واعلموا انكم ان
صبرتم على الاشق قليلاً استمتعتم بالارفة الاللطويلاً . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي
فما حظكم فيه ناوفر من حظي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الخيرات
العجيبة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عرباناً ،
ورضيتكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً واختاناً . ثقة منه بارتياحكم للطعان ،
واستباحكم بمخالدة الابطال والفرسان . ليكون حظكم منكم ثواب الله على إعلاؤ
كلمته واطهار دينه هذه الجزيرة . وليكون مضمها خالصة لكم من دونه ومن
دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولي إيجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .
واعلموا اني اول محب الي ما دعوتكم اليه عند ملتقى الجمعين . حامل بنفسي على
طاغية القوم لئذريق فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلك بعد فقد
كفيت امره ولم يعوزكم بطل عاقل تُسندون أموركم اليه . وان هلك قبل
وصولي اليه فاخلفوني في عزمي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح
هذه الجزيرة بقتله

ومثله ليهوذا المكابي يحض جيشه على الذود عن وطنهم
واقداسهم :

تنطقوا وكونوا ذوي بأس وتأهبوا للغد لمقاتلة هذه الامم المجتمعة علينا
لتبيدنا نحن واقداسنا . فإنه خير لنا ان نموت في القتال ولا نعاين الشر في قومنا
واقداسنا . وكما تكون مشيئته في السماء فليصنع بنا

و كقول علي لأصحابه :

اليوم تُبلى الاخيار فاجلوا اعداءكم اللقاء . وأم الله لئن فررت من سيف العاجلة

لن تسلموا من سيف الآخرة وانتم لهايم العرب والسنام الاعظم . واعلموا ان في الفرار مودة الله والذل اللازم والعار الباقي وان الفار لا يزيد في عمره ولا يحجز بينه وبين يوم الرائح الى الله كالظمان يرد الماء . الحنة تحت اطراف العوالي واكرم الموت القتل . والذي نفس ابن ابي طالب بيده لألف ضربة بالسيف اهون علي من ميتة على الفرش . اللهم افض جماعتهم وشئت كلمتهم وأبسلهم بخطاياهم

راجع ايضاً في مجاني الآدب السادس خطب خالد بن الوليد ومعاذ واي سفيان في موقعتي اليرموك واجنادين (المجاني السادس ص ٤٧-٤٨) وربما كانت هذه الخطب الحماسية قليلة الالفاظ كثيرة المعاني . كقول هاني بن مسعود :

يا قوم جدوا فاما من الموت مدية . المية ولا الدنية . واستقبال الموت خير مر استدباره . فقدماً قدماً

وكقول بطل الفرنج وزعيمهم في حرب قانداي :
اذا تقدمت فاتبعوني . واذا أدبرت فاقتلوني . واذا مت فأتاروا بي

البحث الثالث

في خطب التحريض والتفريع

س ما هي خطبة التحريض ؟

ج هي خطبة حماسية يُقصد بها تهيج حركات النفس لحمل السامع على مباشرة امر او تركه . كما فعل اسمعيل بن عبدالله القشيري اذ رد الخليفة مروان عن التجانيه مع اهله من اعدائه الى الروم بدلاً من اجناد العرب :

أُعِيذُكَ بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذَا الرَّأْيِ أَنْ تَحْكُمَ أَكْلَ الشَّرِكِ فِي بَنَاتِكَ وَحَرَمِكَ وَهُمْ الرُّومُ لَا وِفَاءَ لَهُمْ وَلَا تَدْرِي مَا تَأْتِي بِهِ الْإِيَّامُ . وَإِنَّ إِنْ حَدَثَ عَلَيْكَ حَادِثٌ بَارِضُ النَّصْرَانِيَّةِ وَلَا يَحْدُثُ عَلَيْكَ إِلَّا خَيْرٌ ضَاعَ مِنْ بَعْدِكَ . وَلَكِنْ اقْطَعْ الْفِرَاتَ ثُمَّ اسْتَغْفِرْ أَهْلَ الشَّامِ جُنْدًا فَإِنَّكَ فِي كَنْفٍ وَهَزَّةٍ وَلَكَ فِي كُلِّ جُنْدٍ صَنَائِعٌ يَسِيرُونَ مَعَكَ حَتَّى تَأْتِيَ مِصْرَ فَإِنَّهَا أَكْثَرُ أَرْضِ اللَّهِ مَالًا وَخِيَلًا وَرِجَالًا ثُمَّ الشَّامُ إِمَامُكَ وَافْرِيقِيَّةُ خَلْفُكَ فَإِنْ رَأَيْتَ مَا نَحْبُ انْصَرَفْتَ إِلَى الشَّامِ وَإِنْ كَانَتْ الْآخَرَى مَشِيَتْ إِلَى افْرِيقِيَّةِ

س ما هي خطبة التقرير ؟

ج هي خطبة يلقيها الرجل على سبيل التوبيخ والملامة قاصداً بها دفع المخاطب الى قصد عظيم كطاعة بعد عصيان وعمل بعد فشل وإنبابة بعد ذنب . مثاله خطبة الحجاج لما دخل الكوفة وصعد المنبر ملثماً بعمامة حمراء . فلما اجتمع الناس كشف عن وجهه فقال من جملة كلام :

إِنِّي يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، لَا يُغْمَزُ جَانِبِي كَتِفَازِ التَّنِينَ وَلَا يُقَمِّعُ لِي بِالشَّيْثَانِ . وَلَقَدْ فَرَرْتُ عَنْ ذِكَا . وَقَبَسْتُ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَأَجْرِيَتْ مَعَ الْغَايَةِ . وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَثَرَ كَنَانَهُ ثُمَّ عَجِمَ عَقْدَاخَا فَوَجَدَنِي أَمْرَهَا عَوْدًا وَأَشَدَّهَا مَكْسَرًا فَوَجَّهَنِي إِلَيْكُمْ وَرَمَاكُمْ بِي . فَإِنَّهُ قَدْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ فِي الْفِتَنِ وَسَنَنْتُمْ سَنَنَ الْغِيِّ . وَإِنَّمَا اللَّهُ لِلْأَهْلَوْتِكُمْ لَحْوُ الْعَصَا وَلِافْرِيقَتِكُمْ قَرَعُ الْمَرْوَةِ وَلِاعْصَبَتِكُمْ عَصَبُ السَّلَمةِ وَلِاضْرِبَتِكُمْ ضَرْبُ غُرَابِ الْإِبِلِ . أَمَّا لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفِيَتْ وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا فَرِيَتْ . أَيَايَ وَهَذِهِ الرَّرَافَاتُ وَالْجَاعَاتُ وَقَالَ وَقِيلَ وَمَا يَقُولُونَ وَفِيمَ أَنْتُمْ . . . وَلِتَسْتَفِيمَنَّ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ أَوْ لَأَدْعَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شَغْلًا فِي نَفْسِهِ . أَمَّا وَإِنِّي لِأَحْمِلُ الشَّرَّ بِحِمْلِهِ وَاحْذَوْهُ بِنَعْلِهِ وَاجْزِيهِ بِمِثْلِهِ . وَإِنِّي لِأَرَى رَوْسًا قَدْ أَيْنَعَتْ وَحَانَ قَطَافُهَا . وَإِنِّي لِأَنْظُرُ الدَّمَاءَ بَيْنَ الْعَائِمِ وَالْحَيِّ تَتَرَقَّرُ . مَنْ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ ثَالِثَةٍ مِنْ بَعْثِ الْمَهَلَّبِ سَفَكْتُ دَمَهُ وَانْتَهَبْتُ مَالَهُ وَهَدَمْتُ مِثْلَهُ . . .

وله ايضاً خطبةٌ بعد وقعة دير الجماجم قرّع فيها اصحابه تقريراً لا

مزيد عليه :

يا اهل العراق . . . قد اتخذتم الشيطان دليلاً تتبعونه وقائداً تُطيعونه ومؤامراً تستشيرونه وكيف تنفعكم تجربة او تعظكم واقعة او يحجزكم إسلامٌ او يرذلكم ايمان . أولستم اصحابي بالاهواز حيث رستم المكر وسميتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته . وانا ارميكم بطرفي وانتم تتسللون لوأذا وتنهزمون سراعاً يوم الزاوية وما يوم الزاوية ! ههنا كان فشلكم وتنازُعكم وتخاذلكم وبرائةُ الله منكم ونكوصُ وليه عنكم اذ ولّيتكم كالابل الشوارد الى اوطانها، النوازع الى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن اخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتّى عضتكم السلاح وقصحتكم الرماح يوم دير الجماجم . وما دير الجماجم به كانت المعارك والملاحم، بضرب يُزيل الهام عن مقبله، ويذهل الخليل عن خليله، يا أهل العراق أهل الكفّرات والفجّرات والغدرات بعد الحثرات والثورة بعد الثورات . إن ابشركم الى ثغوركم غلّتم وخُتمت وان أمنتُم أرجفتُم . وان خفتُم نافقتُم . لا تذكرون نعمة . ولا تشكرون نعمة . . . يا اهل العراق هل استخفكم ناكث او استغواكم غاو او استغزّكم عاصٍ او استنصركم ظالم او استعصدكم خالع إلّا وثقّوه وآويتموه وعزّزّوه ونصرتوه ورضيتموه وارضيتموه . يا اهل العراق هل شَفّ شاغب او نعب ناعب او نعنق ناعق او زفر زافر إلّا كنتم اتباعه وانصاره . يا اهل العراق ألم تنهكُم المواعظ ألم ترجركُم الوقائع . (ثمّ التفت الى اهل الشام فقال) يا اهل الشام إنما انا لكم كالظلم الذّاب عن فراخه ينفي عنها المدّر، ويباعد عنها الحجر، ويكنّنها من المطر، ويحميها من الضباب، ويجرسها من الذباب . يا اهل الشام انتم الجبّة والرداء، وانتم العدة والحذاء

ومثله ما قاله الامام علي بن ابي طالب في ذمّ اصحابه :

احمد الله على ما قضى من امر وقدّر من فعل وعلى ابتلائي بكم ايها الفرقة التي اذا أمرت لم تطيع . واذا دعوت لم تجب . ان أهلمتُ خُتم . وان حوربتُم حُرّمت . وان اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وان اجبتم الى مشاقّة نكصتم ، لا ابا لغيركم ما تنتظرون بنصركم ربّكم والجهاد على حقكم . الموت او الذلّ لكم . فوالله لئن جاء يومي وليأتني ليفرقنّ بيني وبينكم وانا لكم قال وبكم غير كثير . الله انتم ألا دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم . او ليس عجباً ان معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه

على غير معونة ولا عطاء وانا ادعوكم وانتم تريكة الاسلام وبقية الناس الى المعونة وطائفة من العطاء فتفرقون عني وتختلفون عليّ . انه لا يخرج اليكم من امري رضى فريضته ولا سخط فتجتمعون عليه . وان أحب ما انا لاق الي الموت . قد دارسكم الكتاب وفتحكم الحجاج وعرفتمكم ما انكرتم . وسوءتكم ما مجتتم : لو كان الاعى يلحظ او النائم يستيقظ . وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة

ومثلها تقريبا خطبته التي قالها بعد ان اوقع بانصاره سفيان بن عوف في الانبار (راجع مجالي الادب الخامس ص ٣٤) . وكذلك راجع (في المجالي السادس ص ٥٠) خطبة ابي حمزة الشاري احد الخوارج يقرع فيها اهل المدينة

ومن هذا الباب تقرع محمد بن ابي بكر الصديق لمعاوية اذ طلب الخلافة لنفسه بدلا من علي فقال :

كيف رأيتك تساي عليا وانت انت وهو هو اصدق الناس نية وافضل الناس ذرية . . . الشاهد عليك من تدني وتلجأ اليه من بقية الاحزاب ورؤساء النفاق . والشاهد لعلّي مع فضل المبين القدم انصاره الذين معه وهم ذكركم الله بفضلهم واثني عليهم من المهاجرين والانصار فهم معه كتاب وعصائب يرون الحق في اتباعه والشقاق في خلافه . فكيف لك الويل تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ووصيه وابو ولده اول الناس له اتباعا واقربهم به عهدا يخبره بصره ويطعمه على امره وانت عدوه وان عدوه . فتمتع بدنياك ما استطعت بباطلك ولينذذك ابن العاص في غوايتك فكأن أجلك قد انقضى وكينذك قد وهى ثم يتبين لك لمن تكون العاقبة العليا . واعلم انك انما تكايد ربك الذي أمنت كيدته ويتست من روحه فهو لك بالمرصاد وانت منه في غرور . والسلام على من اتبع الهدى

البحث الرابع في خطب الطلب والتوصية

س ما خطبة الطلب وما التوصية ؟

ج خطبة الطلب ما يلتمس بها الخطيب نعمةً لنفسه او لغيره والتوصية طلب الخبر لثالث ومثلها الشفاعة

س ما هي الطريقة المثلى في خطبة الطلب ؟

ج الطريقة المثلى فيها ان تُعدّ قلب وليّ النعمة لقبول طلبتك باستعطاف خاطره . ثمّ تعرض المطلوب مبيناً اسبابه وصلاحيته وقدرة المخاطب على منحه . ثمّ تختم بالشكر للمنعم مع الشناء على اريحيته والرجاء من الله ان يكافئه على حسن صنيعه (١) . مثاله الخطب التي تلقى لمساعدة المبروسين وافتداء الاسرى والخطوب العمومية

وهن امثلة الطلب الحسنة ما قاله احد الشيوخ يستعطف بعض الامراء :

اليك يا من استأسر النفوس بكرمه واسترقّ الاحرار بجميل صنعه واولى النعم والخبرات وأسدّى المعروف والمبرات ارفعُ خطانا تبعثُ الى ناديك عواملُ الحاجة وتُرجيه الى ساحتك دواعي الشدة . مؤملاً ان يكون تذكرةً بامري والذكري تنفع المؤمنين وتذكرةً بجلي والله لا يضيع اجر المحسنين . فقد كان سيدي رفع

الله قدره وأعلى قرنه وعدني ومثله من يتمسك من الوفاء بالعروة الوثقى ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء ويطرز خامسة الوعد بوشى العطاء ان يرسل لي من خبراته . ويولياني من آلائه وحسناته . ويضاعف لي منته ويزيدي من عطائه ما اشد به أزرى على الزمان ، وأطول به نوائب الحدثان ، فقد بارزني الدهر بسيوفه ورماني بسهامه واناخ علي بكلا كله . وقد طال الامد على حاجتي عند سيدي اطال الله بقاءه . فأثيت استعجل بوفودي بره واستدرد صرع عطائه علماً بأن التعجيل يكبر العطية وان كانت صغيرة ويكثرها وان كانت يسيرة . فسي ان يكون قد لاح نجم النجاح ، وهب نسم الفلاح ، فيرسل سيدي الي سحاب كرمه ويمطرني من غياث فضله فتعرف غصون آمالي بعد ذبولها وتضحك وجوه مطالي بعد عبوسها . وأمل في ذلك فسيح فان سيدي من اكرم الناس نسباً واشرفهم حسباً . ومثله جدير بحفظ العهد وانجاز الوعد . فان رأى سيدي أن يخفف ثقل الحاجة عني ويرد ما سلبه الدهر مني بقطرة من بحر عطائه ومنته من بعض آلائه ويجهز ما كمره الفقر من جناحي ويرد عني النوائب التي لا تقا تتولاني عقدت لساني على مدحه ووقفت نفسي على شكره فيجزر من الله اجراً جزيلاً ومني شكراً جليلاً ان شاء الله

س ما هو المنهج المفضل في خطبة التوصية ؟

ج افضل منهج لذلك وصف خلال الموصى به التي تؤهله للنعمة المطلوبة لاسيما حسن سيرته وصدق امانته وسابق خطته . ثم يبين الخطيب احتياج الموصى به الى ان يلتفت اليه وتمد له يد المساعدة . ويختتم اخيراً بالشكر الدائم لعروف المنعم من قبله وقبل الموصى به . كقول عبدالله فكري باشا موصياً باحد الشيوخ :

قد رأيت السيد الاستاذ العلامة الشيخ فلان عازماً على قصد الحضرة المتيفة ، والتمس بنور تلك الطامة الشريفة ، وبودّي من غير حسد لو اتخذت طريقه ، وكنت في هذه الرحلة السعيدة رفيقه ، فاستصحبته هذه الاحرف الودادية ، لتنوب عني في مصافحة البنان ، وتقوم من جهتي بصفة بعض الشوق وان كان استيفاء الشرح ممّا ليس في الامكان ، نعم أيد الله الامير وحيّاه ، واسعدني بلفياه وروية عيّاه ،

انَّ الشوق يستعصي على القلم واللسان ، وحسي بضمير أخي عارفاً ، وبنور بصيرته الزكية واصفاً ، هذا واني لما علمتُ من مودة سيدي الاخ الشيخ الموما اليه ، وما رأيتُ من تمسك حضرتي بطيب الثناء عليه ، لم اجد حاجة الى التوصية من جهنم والتاس مساعدته ، فيما عساه يعرض له من الاشغال وموته ، لا سيما بما عرفتُ من مزيد احتفاله بامثاله ، وفرط شفقه بأفاضل اهل العلم وامائل رجاله ، واحاطة شريف علمه بمسرة راجيه ، في زمرة محبيه . بما يكون منه تيسير احواله ، وتسهيل سبيل آماله ، وانما اردتُ أن اتخذ لي يداً عند الشيخ بالتاس المزيد في رعايته ، واتوسل هذه الدريعة الى مراسلة سيدي الامير واستدعاء مكاتبته ، فارجو ان يسمرنى ما فيه زيادة سروره ، والله تعالى يديم على سيدي الاخ اشراق نوره ، محفوقاً بالعناية والاكرام ، متمماً بنهاية المرام

البحث الخامس

في خطب الشفاعة

س ما هي خطب الشفاعة ؟

ج هي التي بها يستعطف الخطيب رضى المخاطب ويسأله التجاوز عن ذنب المسي اليه

س ما الطريقة الموافقة لخطب الشفاعة ؟

ج على الخطيب المستشفع للجاني ان يتخذ كل الوسائل ليخمد غضب من حاول استعطافه . ويفتح الخطيب غالباً كلامه بالاقرار بالذنب ثم ينتقل بالتدريج الى طلب الصفح عن المسي ، امّا ببيان جهله وغباوته دون تعمد له للاهانة وامّا بذكر ما وجده من العقاب بسوء فعله مع ندامته على ما اجترحه . ثم يذكر ما في التجاوز عن

اثم المسي من الكرم وحسن السمعة والثواب في الدارين .
ويختم بوعده الشكر المرء بد لمن يغفر عن الاساءة مع القصد
بالتعويض عنها ما امكن الجاني فضلاً عن الانابة عن ذنبه .
ولنا عن ذلك اجود مثال في خطبة القديس يوحنا فم الذهب مستشفعاً لدى
ثاودوسيوس في مدينة انطاكية لما اراد هذا الملك ان يدمرها بسبب ثورة
اهلها وتحطيمهم لتماثيله فقال :

ان آلاءك ايجا السيد وامارات حبك لمرتسة دائماً في ذاكرتنا ولذلك انفسنا
متفطرة حزناً فلا تصنع لفضبك العادل لجأماً فان عقابك معنا اشتدت فلن توازي
جسامه ذنوبنا . . . لقد امتلأنا كأنة وهواناً لأننا اسأنا الى المحسن الينا فإا اكفرنا
بالجميل . . . لقد اتسحنا بأطار الذل والعار حتى نكاد لا نستطيع ان نتنفس امام
العالم كله القائم لنا بالمرصاد لينتقم لك منا . ففي يدك وحدك ايجا السيد حياتنا
وموتنا . اذكر ان اظع الاهانات قد يكون وسيلة لنشر اشرف فضيلة . فان الحس
البشري لما اسقطه ملك الظلمة في هوة المعصية تنازلت الرحمة الالهية الى هذه الهوة
لتنهض منها وتميد له حقوقه وتمد له مستقبل اجل وافضل . فهكذا هاجت ارواح
الظلمة ايضاً ماثجة لتحرم من فضل احساناتك مدينة كانت اعز سائر المدن اليك
فاضربها تفرح الجحيم او بالاحرى اعف عنها واجعل انطاكية المذبذبة في اول مصف
مدنك العزيزة تحز رئيس الجحيم وترد عذابه الابدي نكلاً

. . . فاذا شئت ايجا الملك المعظم يا قدوة الانسانية والحكمة والتقوى فانت
قادر ان ترين رأسك بتاج لا يفنى اجمي جداً من تاج سلطنتك لان هذا التاج
الارضى قد احرزته من فضل رجل آخر اما مجد الحليم فلا تحززه الا من كرم
فضائلك . فان تغلب حليمك على غضبك سيخلد لك ولا شك ذكر مجد لا يمحي
ابقي من التغلب على الاعداء بالصلاح . لقد قبلوا وحطموا واهانوا تماثيلك
وصورك الا انك تستطيع ان تقيم بدلاً منها ما هو اجل واجمى لا تماثيل رخام
ونحاس وذهب يقرضها الزمان وتلفها ايدي الحدثن بل تماثيل حية ابدية في
قلوب جميع الناس الذين يشيدون باستصارك العظيم سورة غضبك العادل . . .

الى ان ختمها بقوله :

فالعفو إذاً ايها السيد العفو عن شعبي ولا تخيبن آمالي فان شئت ان تصفح عن
مدينتنا وتشرقها ايضاً بدليل جديد عن جودتك الاولى رجعت اليها وملأ العواد
سرور وجمعت كل القلوب في تكرار آيات شكرك ابداً. امأ ان رفضت التماسي
ونفيت من قلبك ذكر مدينتنا العزيزة فلست فقط غير راجع لاراها تنزل الى
القبر بل اذهب مفتشاً عن مأوى آخر. اسير لأموت في ارض غريبة بعيدة عن
وطني فلا اعود ارى بعد في هذه الدنيا رعيتي التي لم تستحق شفقة اعظم القياصرة
تديناً ونقياً ولا رحمة احلم ابناء البشر

(راجع في مقالات علم الادب (ج ٢ ص ١٠٨ - ١٧١) كلام
ارسطو في النوع المشوري وما يحتاج اليه الخطيب في هذا الباب)

البحث السادس

في انشاء القول المشوري

س اي طبقة من الانشاء أولى بالقول المشوري ؟

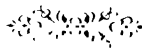
ج هذا النوع قابل لكل طبقات الانشاء لأن الخطيب
المشوري يحتاج الى اقناع السامع بالبرهان واستمالة قلبه بتحريك
الاهواء ليحمله على ما يقصد منه من الامور النافعة ويردّه عن
الامور الضارة وهذا لا يتم الاً بافانين الكلام وضروب الانشاء.
وما يقال بالاجمال ان الخطب السياسية تقتضي قوة ومتانة وتفتناً
ليتمكن المتكلم من امتلاء قياد عقل السامعين فيستوقف نظر
رصفائهم ويأسرهم بحجته ويدفعهم ببلاغته الى ما يريد من
الغايات الشريفة

والخطب العسكرية يوافقها الانشاء الاوسط وانما تليق بها اشكال البديع المبيجة للسامع فتارة يبعث على الحرب وأخرى على السلم وطوراً يثير الخوف وطوراً آخر يحبي الرجاء وحيناً يحرك المحبة وحيناً آخر يوقد نار البغضة. ولا يزال يتصرف في وجوه الكلام الى ان يبلغ مراده من الجيش بملاقاة المنايا واستقبال الحتوف

وكذلك خطب التحريض والتقريع فأنها مفتقرة الى تعزيز الكلام بأساليب الانشاء ليكون لها في قلب السامع اشد تأثير

أما الطلب والتوصية والشفاعة فالاجدر بها ان يتلطف الخطيب في كلامه ويحليه بالرفقة والطلاوة والتعابير المنسجمة ليستميل بها المخاطب ويحظى بالغرض المقصود

ومما يستهجن في الخطب المشورية كل لفظ مطروق سخيض وكل معنى مبتذل ثقيل على السمع كرهه على الذوق . وكذلك فليعدل الخطيب عن الاسهاب الممل وحشو الكلام وتكرار المعاني ذاتها دون افادة فيتفر عنه السامع ويعدل عن اجابة مطلوبه



الباب الثالث

في القول المشاجري

س ما هو القول المشاجري ؟

ج القول المشاجري هو الخصيص بالمحاكم القضائية والدعاوي الشرعية

س الى كم صنف يقسم ؟

ج الى صنفين أما شكاية بجانٍ وأما دفاع عن متهم

س ما هي الغاية من القول المشاجري ؟

ج الغاية منه العدل والجور فيؤخذ بناصر المظلوم ويرد جور الظالم

البحث الاول

في الخطيب المشاجري

س من هو الخطيب المشاجري ؟

ج هو غالبا المحامي القانوني الذي يتولج أعمال المحاكمات أما لتأثير متهم وأما لتزكيتهِ

س ما هي اخص صفات الخطيب المشاجري ؟

ج اخص صفاته ثلاث : الاولى النزاهة والاستقامة بحيث يدافع عن الدعوى الموكولة اليه بكل غيرة ونشاط المهم اذا رآها عادلة او رجح عدلها . أما اذا عرفها مخالفة للعدل فلا يجوز له ان يحامي عنها

الثانية معرفة اصول الشريعة عموماً وقوانين العدلية الوطنية خصوصاً ليحيد عن الضلال وينقذ منه هيئة المحاكمة

الثالثة حسن الوقوف على الدعوى واسانيدھا وتفاصيلھا
لئلا يطوح بالتهلكة باراً او يبرر ساحة رجل اثم

س هل من سعة في الخطبة المشاجرية لبلاغة الخطيب ؟

ج ان وفرة القوانين الشرعية التي تجري عليها الدول في ايامنا لا تدع مجالاً كبيراً لبلاغة الخطيب غير ان الخطيب المحنك المفوه يستطيع في عدة دعاوي ان يؤثر ببلاغته في عقول القضاة وارباب المحاكمة سواء كان بشرح قانون مبهم او بذكر بعض تلاعب الخصوم في الدعوى وغير ذلك مما يبني عليه كلامه للدفاع عن المتهم وتخفيف ذنبه وتذنب خصمه

البحث الثاني

في المواضع الجدلية المشاجرية

س كم هي المواضع الجدلية في القول المشاجري ؟

ج المواضع التي يتخذ منها الخطيب المشاجري أدلته
خمس : الشرائع ثم الشهود ثم الصكوك ثم الشهرة ثم الحلف

س كيف يستخدم الخطيب موضع الشرائع ؟

ج أولاً بان يأتي بنصوصها الواضحة وقوانينها الصريحة .
وثانياً بان يُشني على صلاحية الشريعة وحكمة واضعها . وثالثاً
بان يبين ما يلحق من الضرر بالمجتمع الانساني ان خالفها
القضاة او عدلوا عن تنفيذها

(فائدة) اعلم ان الشرائع اما الهية مُتَزَلَّة واما بشرية وكلتاها
ضرورية للهيئة الاجتماعية الا ان المرتبة العليا للاولى كما لا يخفى . قال
ابن خلدون في مقدمته :

ان الاجتماع البشري ضروري وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه وانه لا بد
لهم في الاجتماع من وازع وحاكم يرجعون اليه . وحكمه فيهم نارة يكون مستنداً
الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه واما هم بالثواب والعقاب الذي
جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم الى ما يتوقعونه من ثواب
ذلك الحاكم بعد معرفته بخصالهم . . . ثم ان السياسة العقلية تكون على وجهين
احدهما شرعي في المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على
الخصوص . . . والوجه الثاني ان شرعي في مصلحة السلطان وكيف يستقيم له
الملك مع القبر والاستطالة . . .

وقال ايضاً في اثبات ضرورة هذه الشرائع :

ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر وتم عمران العالم لهم فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم . وليست السلاح التي حُمِلت دافعةً لعدوان الحيوانات بكافية في دفع العدوان بينهم لأنّها موجودة لجميعهم . فلا بدّ من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض . . . فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بدوان وهذا هو معنى الملك . . . وانه لا بدّ للبشر من الحكم الوازع . . . وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه من خواصّ هدايته ليقع التسليم له والقبول منه حتّى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تثريب

س وهل يستطيع الخطيب ان يردّ على مُناظره اذا اتاهُ بنصّ شرعي مخالف لقضيته ؟

ج نعم يستطيع ذلك . فان كان النصّ من الشرع البشري امكنه ان يبين أنّه مُلغىّ او مُمات بتمادي الزمان او أنّه وُضع لاحوال غير الاحوال الحالية او أنّه قابل لتفسير يوافق قول الخطيب او ان مادته نُسخت بمادة أخرى او يقابل بين الشرع الوضعي والشرع الطبيعي . كما فعل شيشرون خطيب الرومان في دفاعه عن ميلون لقتله خصمه كلوديوس مدافعاً عن نفسه :

ايّها القضاة انّ في الارض شرعاً مقدساً غير مكتوب ولكنّه وُلد مع الانسان . شرعاً سبق المشترعين والتقاليد قاطبة خولتناه الطبيعة منقوشاً في دستورها الخالد الذي منه اخذنا وعنه اقتبسنا . شرعاً يُشعرُ به اكثر ممّا يُقرأ . مدركاً بالبداهة اكثر منه بالتعليم . فهذا الشرع قد حطّ في قلبنا هذه القاعدة : « تحت الحظر الملمّ الذي أعدّه اهل المكر والشر بل تحت مُدبة الطمع والفضينة تُضحي كلّ وسيلة للخلاص والنجاة حلالاً مباحة حتى يقتل الخصم »

وان كان النصّ من الشرع الالهي امكن الخطيب ايضاً ان يشرحه بآية أخرى خصّصت معناه او استدثنت منه بعض الوقائع أو زادتة ايضاحاً. لنا على ذلك مثال حسن في تجربة ابليس للسيد المسيح لما اقامه على جناح الهيكل ودعاه الى ان يُلقي بنفسه الى اسفل قائلاً: « لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك لتحفظك » فردّ يسوع قوله بآية أخرى اليق بالمقام فاجابه: « وقد كُتب لا تجرب الرب الهك »

ومثل هذا تفنيدهُ للكتابة والفريسيين اذ بكّثوا تلاميذهُ على اقتلاعهم السبيل يوم السبت واكلهم له فنقض السيد المسيح احتجاجهم وابكمهم بمثل داود الملك اذ دخل بيت الله واكل مع رفقة خبز التقدمة الذي لا يحلّ اكله الا للكهنة ثم بمثل الكهنة الذين ينقضون يوم السبت في الهيكل (متى ١٢: ١-٦)

س من هم الشهود وكيف يتصرّف الخطيب بقبول او ردّ شهادتهم ؟

ج الشهود هم الذين يجبرون في المحاكم عن حادث رأوه بالعين او سمعوا بوقوعه من شهود العيان. اما تصرّف الخطيب فيختلف على اختلاف الشهادة فيقبلها او ينقضها على حسب الظروف ومقتضى الحال

س متى يوثق بشهادة الشهود ومتى تزيّف تلك الشهادة ؟

ج يوثق بها : أولاً اذا كان الشهود عيانين او تلقوا شهادتهم من عيانيين

ثانياً اذا اشتهروا باستقامتهم وتقاهم
 ثالثاً اذا كانوا من وجوه القوم وارباب الفضل
 وتُزَيَّفُ شهادتهم بان يبين الخطيب:
 أولاً انهم غير محمودي السمعة ومتّصفين بالطيش وخفة
 العقل

ثانياً انهم ادّوا شهادتهم مدفوعين بعوامل غير مرضية
 كالرجاء والخوف والحقد والرحمة
 ثالثاً انهم قبلوا رشوة على شهادتهم. كخرس قبر المسيح الذين
 رشاهم الكهنة فاشاعوا ان تلاميذه اخذوا جثته وهم نيام
 رابعاً ان اليهود يتناقضون في اداء شهاداتهم. كشيخي بني
 اسرائيل اللذين تواطأ بشهادة الزور على قتل سوسنة البارة فينّ دانيال
 تناقضهما في الشهادة (سفر دانيال ف ١٣)

خامساً ان شهادتهم مبنية على الحدس والتخمين ليست
 على اليقين. كقول عبد الخاق باشا في محاكمة الورداني قاتل بطرس باشا غالي
 رئيس نظار مصر يردّ شهادة الدكتور فرنوف ويثبت شهادة الجراح الذي
 عُني بمعالجته فقال :

كيف يسوغ لنا يا حضرات القضاة ان نضع في صفّ واحد طبيين واحداً
 باشر العملية وشاهد الجروح واتخذ لها العلاج اللازم بعد بحثها وفحصها فحسباً
 يمكنه من الوقوف على حقيقتها وآخر لم يمكن من رؤية الجروح الاّ بارسال
 نظرات الى المصاب من فوق اكتاف الجراحين المحيطين به ولم يحضر العملية من
 بدء العمل. ذلك شأن الدكتور فرنوف يا حضرات القضاة. فانه يقرّر بصريح
 العبارة انه لم يمكن من رؤية الاصابات الاّ هذه الكيفية وانه لم يحضر العملية

من بدء العمل فيها... فهل يمكن ان يقال بمعارضة شهادته لشهادات الشهود
الاثبات... فأتنا نضطر أن نقول مع الاسف ان بعض اقوال المعارضين ظاهر فيها
التحكّم...

سادساً أن الشاهد هو فرد لا يمكن تحقيق شهادته ما لم
يكن ذلك الشاهد اعظم من ان تعلق به التهمة . مثاله ما كتب
بديع الزمان الى الشيخ ابي العباس يتشكى من قبوله شهادة رجل فرد ليس
بثقة :

كتابي اطال الله بقاء الشيخ وقليل في الولاء أن أحتذي من العين ، واتخذ
نملين ، ان يسوقني هذا المساق إلا الشوق الهائج ، والوحد اللّاعج ، وانا في هذه
الحرقه كثير الشوق ولكني وردت ، لغير ما اردت ، إنما ضربت في جنب ، ما
نسبوا الي من الذنب ، وطعن في عين ، ما قُذِفَ به من الملبس ، وخرجت على مقام
يومين ، وسأرد فادحض التهمة ، وأحصى الخدمة ، وأجدد عهداً بين ذلك . وأخذ
موثقاً من اولك . لئلا يتهمني كل ما كذب كاذب ، او استحل كاتب ، او شرع
حاسد بكفران نعمته . قل لي أيتحل ان يُسَمَّح في المحال . ولا يُكشَف فيه
الحال . وما هذا التصديق لرجل ليس في المروءة رأساً ولا في الدين ذنباً . والله يكفي
شاهداً ، وان كان واحداً ، فأمأ غير الله فلا أقل من شاهدين . ولا كل شاهدين حتى
يكونا عدلين

س ما هي الصكوك ؟

ج الصكوك عبارة عن الكتابات الشرعية المتضمنة
للعقود والوثائق والحجج والوصايا وما اشبهها

س كيف يتخذ الخطيب الصكوك في احتجاجه ؟

ج ان كانت تلك الصكوك مزورة او مشتبّه بها بين
زورها او ابدى شكوكه في صحتها . وان كانت صادقة ثابتة

فإمّا تُثبت قضيّته فيؤيدها بالدليل ويقرّر صحتّها. وإمّا تخالف قضيّته فيخرجها على تأويل يرافقه أو يناقضها بشهادات أخرى مخالفة لها أو يثبت أنّ تلك السنداءات والوثائق كُتبت قسراً تحت حكم الخوف فلا يُعمل بها

س ما هي الشهرة ؟

ج الشهرة ويقال لها السُّمعة ما شاع بين الناس من وقوع امرٍ معلوم أو ما يتماقلونه بالقال والقليل

س كيف يستطيع الخطيب ان يتخذ السمعة كحجّة في كلامه ؟

ج من السمعة ما يكون صحيحاً مبنيّاً على أدلة صادقة. ومنها ما يكون احدثاً وافتراءً تتناقله الالسنه ولا نصيب له من الصّحّة فعلى الخطيب ان يفرز الغثّ من السمين والصادق من الكاذب . مثاله ان تدافع عن متّهم بقولك :

ألمس من مولانا القاضي مثال النصفه والعدل ان لا يبرز الحكم على فلان الذي وليت المدافعة عنه بمجرد ما بلغه من الارجيف والاحاديث المفتراة . اذ لا يعزب عن علم مولاي ان ليس كلُّ ما تتناقله الافواه ملاساً للصّحة ولا كلُّ ما يسهل انتشاره وجريانه على الالسنه ناشئاً عن الحق . ومن كان مثله ينبغي عليه ان لا يُعبر اذناً واعية للمرجفين ولا يحمل الابرياء فريسة لمخالب اهل القال والقليل

س ما الحلف وكيف يكون الاحتجاج به ؟

ج الحلف إشهد الله على صّحة امرٍ أو كذبه . أمّا تصرف الخطيب مع الحالف فيكون كمثل تصرفه مع الشاهد فيستند

الى حلفه ويثبتهُ اذا كان الخالف رجلاً فاضلاً تقيّاً مستقيماً
ويردُّه اذا عُرف بسوء السمعة وقبح السيرة

(فائدة) كان القداماء يتَّخذون ايضاً لتقرير الجُناة العقوبة كالجوع
والعطش والضرب فمنهم من كان يصبر على ذلك ولا يقرّ بالحقّ ومنهم
من كان لا يقوى على احتمال العذاب فيقرّ او يزور القول . واليوم بطل
استعمال العقوبة لوجود طرائق اخرى لمعرفة الحقّ افضل منها

البحث الثالث

في نوعي الخطب المشاجرية

س كم نوعاً للخطب المشاجرية ؟

ج لها نوعان بحسب الدعاوي الدائرة عليها : فمنها جنائية
مدارها على تأثيم المذنب وطلب معاقبته . ومنها دفاعية يزود فيها
الخطيب عن حقوق جماعات او افراد من اهل الرعية

١ في الدعاوي الجنائية

س كم هم خطباء الدعاوي الجنائية ؟

ج ثلاثة : المدّعي العمومي او معاونهُ والمحامي ورئيس
المحكمة

س ما هو موضوع خطبة للدّعي العمومي وما هي صفاتها ؟

ج على المدّعي العمومي ان يقيم الدعوى على المتّهم

فيوضح الشكوى على موجب الاصول المرمية فتتناول خطبته كل ما يختص بالجريمة وسوابقها ولو احققها وجميع احوالها مع بيان عظمها ومما تستوجب من العقوبة بقوة الشرع . فمن خواصها الوضوح والمتانة وبيان الحرص على تنفيذ الشرع بالعدل والانصاف . مثاله ما اخبر به سفر الاعمال عن محاكمة بولس الرسول لدى والي اليهودية فيلكس قال :

وبعد خمسة ايام اغدر خنيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ وخطيب اسمه ترتلس وعرضوا لدى والي شكواهم على بولس . فلما دُعي طفق ترتلس يشكوه قائلاً : قد نلنا بك سلاماً عظيماً وبنايتك حصلت مصالح جمّة لهذه الامة . فنتقبل ذلك في كل وقت وكل مكان بكل شكر يا فيلكس العزيز . ولكن لكي لا أُعوقك بالاطناب أسألك أن تسمع لنا بملك قليلاً . إنّنا قد وجدنا هذا الرجل مُفسداً ومُثير فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة وإماماً لشبيحة الناصريين . وقد حاول ايضاً أن ينجس الهيكل فامسكناه وأردنا ان نحاكمه بحسب ناموسنا . إلاّ أنّ لسياس قائد الالف أقبل وانتدع من أيدينا بعنف شديد . وأمر خصومه بأن يأتوا اليك ومنه تستطيع اذا فحصته ان تعرف جميع ما نشكوه

ومن الامثال الحريية في ذلك رفع ابي زيد دعواه الى قاض يشكو فيها ابنه ويرميه بالعقوق قال :

فبينما القاضي جالس للإسجال ، في يوم المحفل والاحتفال ، اذ دخل شيخٌ بالي الرياش ، بادي الارتعاش ، فتبصر الحفل تبصر نقاد ، زعم ان له خصماً غير منقاد . فلم يكن الا كضوء شرارة ، او وحي إشارة ، حتى احضر غلام ، كأنه ضرغام ، فقال الشيخ : أيد الله القاضي ، وعصمه من التفاضي ، انّ ابني هذا كالقلم الردي ، والسيف الصدي ، يجهل اوصاف الانصاف ، ويرتضع أخلاف الخلاف ، ان اقدمت أحجم ، وإن أعربت اعجم ، وان اذكيت أخذ ، ومتى شويت رمد ، مع اني كفلته مذدب ، الى ان شب ، وكنت به اللطف من ربي ورب . . .

ومن الامثال المستحدثة دعوى خليل الدهشان المتهم بقتل مصطفى بك واصف في مصر سنة ١٣٠٨ وكان المدعي العمومي حشمت بك يقال يعرض الشكوى (عن مجلّة الأحكام) :

قد اقدم الدهشان على ارتكاب الجرائم وليست بأول مرة غس يده في الآثام وقد كانت بينه وبين المتوفى منافسات لأخذه بناصر خلف افندي وغيره من ارباب المعاشات المستبدلين معاشهم بأطيان. فحقن من ذلك الدهشان وعاتبه كثيراً وجعل يشنع على الحكومة كيف تعطي الأطيان لأرباب المعاشات. وما تحاشى ان يذكر ذلك تصريحاً في حضرته. واستمرّ حقد الدهشان حتى كان يوم فابتنى المرحوم مصطفى بك انشاء طاحون في خزان بحر « ابو المير ». فلما بلغ الدهشان هذا الخبر استشاط غضباً وتغالى مع المتوفى فأخشن له القول فلم ينصرف الا وقد عدل المتوفى عن مشروعه ورحع الدهشان وفي النفس حزازات . . . حتى سؤلت له نفسه الخبيثة ان يفتك به . ولتألم الحيلة وبلوغ المكيدة جعل يتودّد نفاقاً الى المتوفى ويكثر الوفاة عليه تمكيناً للثقة به . وما زال حتى دعاه الى دوائر المشوروم على الروح المعلوم فقتله على رؤوس الأشهاد . . . فيها قد شرحت الحقائق في هذه الواقعة الجنائية وابنت ما تم فيها من التحقيق وقد رأيتم ما قام من الخدع والبدع وطرائق التفرير والتصويه ابتغاء تفسيت الحق بالباطل لو تنفع الحيل . . . فاحكموا انجا القضاة بما يستحقه القاتل جزاءً وفاقاً عما جنت يده ليعتبر بامرهم من غوى وحاد عن سواء السبيل ويعلم من سهى وطنى ان سيف العدل مسلول فوق هام البغاة العائنين في الارض فساداً . ان خليل الدهشان قتل مصطفى بك واصف عمداً مع سبق الإصرار فجزاؤه الإعدام

س ماذا يتحتم على المحامي في خطبته الدفاعية ؟

ج يتحتم عليه احد الامور الآتية : أولاً ان ينكر الواقع . كما انكر بطرس الرسول على اليهود تهمتهم للتلاميذ بالسكر يوم حاول الروح القدس فقال في خطابه :

انجا الرجال اليهود والساكنون في اورشليم أجمعون ليكن هذا معلوماً عنكم وأصفوا لاقوالي فان هؤلاء ليسوا بسكارى كما ظننتم وهي الساعة (الثالثة من النهار .

لكن هذا المقول على لسان يوثيل النبي: وسيكون في الأيام الاخيرة يقول الله أني أفيض من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبنايتكم . . .

ثانياً بان يسلم بوقوع الامر لكنه ينكر كونه وقع تعمدًا او بمعرفة تأمة او لأسباب مستقبحة . كما دافع محمد بك ابو نصر المحامي عن الورداني في قضية بطرس باشا غالي فقال :

حدث ذلك الحادث الاليم فعمت البلاد الدهشة واستحكم الذهول في بعض العقول فترسّع من ترسّع الى اتخاذه مثاراً لأحقاد وضغائن يشهد الله أن لا وجود لها الا في ببداء الخيال والوهم . نعم سمعنا والاسف ملّ قلوبنا سمعنا صيحة كانت اشبه باصوات الانتقام منها بتكليف الحالة الواقعة اوشك الحو هذه الصيحة ان يزداد ظلاماً فتشابه الامر وأتسعت دائرة المسؤولية الجنائية عن مركزها الحقيقي فاستوى البرئ بغير البرئ على خلاف ما تقتضي به مصلحة العدل . . . واني احلّ ايها القضاة مقامكم الرفيع ونظركم الصحيح عن ان تنظروا الى هذا المتهم بالعين التي تنظرون بها الى أخسأء الجناة وقطاع الطريق . نعم انّ الناس كلهم امام سلطة القانون سواء ولكن ليس معنى هذا ان القانون يسوي بين الحبث والطيب ولا انه يضرب ويرمي الأحساس وقوة الشموذ وشرف الاسباب عرض الحائط . كلاً . ان القانون نفسه شاهد عدل على وجوب رعاية هذه الاعتبارات . وكلّ قانون يخرج الانسان عن حقوق الانسان او يرمي الى عكس الطبيعة ومنافاة الفطرة يكون هو الاستبداد بعينه . . .

وفي هذه القضية لا خلاف بيننا وبين النيابة عن شيء من وقائع الدعوى اللهمّ ألا في سبب الوفاة . وانما الخلاف في تقدير تلك الوقائع وتكييفها قانوناً وبيان اي مواد العقوبات يصح تطبيقه عليها . . .

لم يرتكب المتهم ما ارتكبه ملتصقاً لنفسه من فعله نفعاً او ساعياً وراء شيء قلّ او جلّ من حطام هذه الدنيا كما تشاهدونه فيمن يتقدّم الى عدلكم كل يوم من أولئك الذين يمشون في الارض فساداً ويضربون في عرض البلاد ضحاً وسلباً وانما ارتكبها مدفوعاً بعوامل اخرى لا يختلف اثنان في مقدار شرفها وقوة تمكّنها من نفسه وشدة تأثيرها فيه . أشرف المتهم على وطنه المحبوب من سماء معتدلة الخاص فراه في تيار الحوادث مضطرباً كسفينة في بحر . رأى الأهواء تتغالب عليه والايدي ممتدة اليه تكاد تختطف منه ما بقي من مال واستقلال واعتقد ان المرحوم

بطرس باشا هو صاحب اليد الفعالة في جلب هذه الاخطار فاندفع بلا روية ولا تبصر الى الايقاع به حباً بوطنه معتقداً انه انما كان يؤدي واجباً عليه هو تضحية كل شيء في سبيل الدفاع عنه . . .

ويمكن الخطيب ثالثاً اذا رآه مناسباً ان يقرّ بالواقع مدافعاً عن صوابيته. كما فعل آخر المحامي اللبناني نجيب افندي خلف في دعوى قتل مبيتيناً ان القاتل ابراهيم زهرا اضطر الى فعله ليدافع عن حياته وذلك مما يتفق في تحليله الطبع والشرع :

اقول انّ الضرورة الحاصلة في مسألتنا لم يحصل مثلها ضرورة فلاحظوا ايها السادة القضاة جمهوراً من الناس أقبلوا فجأة متهددين متوعدين مدججين بالاسلحة بينهم مرشد امين المقتول يقصدون قتل جماعة موجودين في محل محصور ومنهم موكلي ، وحالما اطلوا على البيت الموجود فيه موكلي وهو بيت « يوسف بورعد » طفقوا يطلقون العيارات النارية دفعات عديدة بلغها بعض شهود المسألة عداً . وحالما اطلّ عليهم يوسف بورعد قتلوه . ثم انقلبوا على ابراهيم موكلي ومن معه في ايوان البيت ولا يخرج له منه يصلونه ناراً حامية من افواه بنادقهم ومسدساتهم بما تطير له نفس الشجاع شاعاً ، ويدوب له قلبه خوفاً والتماعاً ، فقد كان في خطر القتل وهو في داخل البيت يلوذ بالجدران والزوايا ، والنوافذ حواليه مسدودة بارائل القز وهو كمصفور في القفص وليس بينه وبين الموت الا قيد فتير . ولولا عناية الله وحسنه والده هو وحيد لها لكان الآن في عالم الاموات . ولم يكن الخطر محققاً به في الداخل فقط بل لو خرج لكان لم يزل معرضاً لتيران اسلحة الهاجمين فقد اطبقوا عليه كل الاطباق ، حتى امسى في حالة من الضيق لا تطاق ، وهل من صورة فجائية اعظم من حالته وهل يُحتمل بعد ان فتكوا برفيقه ان يبقوا عليه وعلى اهل رفاقه وهم يحسبونهم لهم من الاخصام السياسيين ، وقد ابرزوا قصدهم الشرير الى الوجود وتكلموا بالأسنة نارية عما كانوا ناوين وقد انطرح حثّة يوسف ابو رعد على الارض . وهل يوجد بعد محلّ للشك في وقوع الخطر المحدق بابراهيم ومن معه . وهل يكون الاحداق مطبقاً اكثر من هذا الاطباق وقد ازفت الآزفة وحلّت الكارثة فتلك هي الضرورة التي لا يمكن دفعها بوسيلة اخرى

س ألا يوجد طرائق أخرى لاستعطاف القضاة عند ثبات الجريمة ؟

ج نعم للخطيب وسائل أخرى يمكنه التوسل بها لخلاص الجاني او تخفيف عقوبته . منها نزع الشباب وشدة عوامل الهوي التي تعمي بصر القلب . ومنها ذكر ما للجاني من الفضل السابق الذي يشفع بذنبه . كما لو دافعت عن رجل عصي دولته بعد ان خدمها خدماً مشكورة فتقول :

لا اسكر ان فلاناً قد اتى جريمة كبيرة واقترب ذنباً عظيماً وأعلم ان سادتنا القضاة المتولين امر الاحكام هم رجال عدل لا يخرجون عن جادة الانصاف وسبيل الاستقامة . وبالتالي فان الحكم الذي ابرزه في حقهِ هو عادل من كل وجه مطابق لاصول الشرع مستوف جميع الشرائط المُقتضاة . . . ولكن ان سمحتم لي قلت : ايتاني العدل ان اذكركم بسوابق احسانه لدولتنا ووطننا . . . ألم تكن الدولة على شرف خطير . . . ألم تُقبل علينا الاعداء بجيوشها الجرارة . . . ألم ير كل منّا اسباب الموت منتصبه . . . ألم توشك الدولة ان تنحط من رتبها وتسقط عن درجتها وتلحق بالامم البائدة . هذا نعلمه حق العلم ونذكره بالخوف والرعبة بنا انا نتذكر بالفرح والسرور انه هو الذي خالصنا من جميع هذه المهالك . ايتاني العدل اذا ان نعرض عما اتى من الدنّب . . . أليس من الانصاف ان نصفح عن جريمتي بشفاعات ما سبق له . . . أما احسانه هذا الغير المسمى لا ينسبنا عمله هذا الخزي . . . ما لي أطيل مع قضاة يُبارون على صالح الوطن والدولة ويمازون الاحسان بالاحسان . فحجة بالدولة والوطن اقضوا بحكمكم على من رفع شأن الدولة وعمّ فضله كلّاً من اهل الوطن

س وما هي صفات خطبة رئيس المجلس ؟

ج يجب على رئيس المجلس ان يتبصر في الشكوى والمدافعة ويقابل بين حجج الفريقين ويعرض لاعضاء المجلس

خلاصة الدعوى مع ترجيح اسباب الشكوى او ادلة الدفاع ملتزماً جادة العدل وكرامة الوطن فيقضي القضية بعد ذلك على مقتضى الذمة مثاله كلام الوالي الروماني فسُتس في دعوى بولس الرسول حيث قال امام الملك اغريبا :

أيها الملك اغريبا ويا جميع الرجال الحاضرين معنا انكم ترون هذا الذي سمي اليّ به جمهور اليهود كله في اورشليم وهنا . وهم يصيحون انه لا ينبغي ان يحيا من بعد . اما انا فوجدت انه لم يصنع شيئاً يوجب الموت ولكن اذ رفع هو دعواه الى اغسطس قضيت بان ارسله لي . ولم اتيقن في امره شيئاً اكتبه الى السيد فلهذا احضرته امامكم وخصوصاً امامك أيها الملك اغريبا حتى انه بعد الفحص عن قضيتي يكون لي ما اكتب . لأنني ارى من الجهل ان ابث أسيراً ولا أبين الدعاوي

ومثله خاتمة دعوى ابراهيم زهرا حيث قال الوكيل :

ولقد وضع ايجام السادة من كل ما-ريأت التحقيق والمحاكمة صدق حادثة الدفاع بكل وقائمه الى حد اليقين . فقد جاءت الادلة ايجاباً بما ورد في شهادات شهود الادعاء العمومي وشهود الدفاع الذين يوردون الحقائق كما عاينوها وشاهدوها مما يدل على تمكنهم في الحق وجمعهم على الصواب لانهم يتكلمون عن اقتناع تام وطمأنينة وجدان . وقد وافقهم عليها المدعون الشخصيون وبعض شهودهم حتى اجتمعت الحقيقة في جانب شهودنا ولم تتنكب قيد شمرة عنهم . وقد تعرّزت هذه الادلة الايجابية بكشف عياني وتقارير فيّة ، كما جاءت الادلة سلباً بما ورد في شهادات شهود الخصوم من التناقضات . فلقد تضاربت شهادتهم في نفسها وتناقض بعضهم مع بعض ومع المدعين واحتفلوا في تعيين المواقع والمطارح والابعاد والمسافات ومحال انطلاق القواس ومحل الاصابة فلا يمكن ان يؤلف من شهادة اي واحد منهم حقيقة يرتاح لها الضمير ويطمئن الوجدان حتى انه لا يمكن ان يؤخذ من مجموع شهاداتهم شهادة صحيحة فهي لا تخرج عن حد الاضاليل والالوهام وليس للحقيقة فيها من مقام كما يظهر لقلّ تدقيق . . .

راجع ايضاً في مجالي الادب مقامة الحريري الاسكندرية (ج

ص ١٢٣) وفيها محاسبة ابي زيد مع امرأته لدى القاضي بحجة خداعه لها

وبيعه لأثاثها ورحلها وفي آخرها مثال لحتام القاضي للدعوى حيث قال :
 فلما أحكم ما شاده . واكمل انشاده ، عطف القاضي الى الفتاة ، بعد ان
 شنف بالابيات ، وقال : أما انه قد ثبت عند جميع الحكام ، وولاة الاحكام ،
 انقراض حيل الكرام وميل الأيام الى اللثام ، وإني لإخال بعلمك صدوقاً في
 الكلام ، بريئاً من الملام ، وما هو قد اعترف لك بالقرض ، وصرح عن المحض ،
 وبين مصداق النظم ، وتبين انه معروق العظم ، وإعنات المذرملة ، وحبس
 المعسر مألماً ، وكتمان الفقر زهادة ، وانتظار الفرج بالصبر عبادة ، فأرجعي الى
 خدرك ، واعذري ابا عذرك ، ونهني عن غربك ، وسلمي لقضاء ربك

٢ في الدعاوي المدنية

س . ما هي الدعاوي المدنية ؟

ج هي كل المحاكمات والمرافعات التي تجري في مجالس
 القضاء دون المحاكمات الجنائية وهي تشمل كل الدعاوي
 التجارية والسندات والعهود والمبيعات والوراثات والشركات
 وغير ذلك مما يقع فيه الخصام بين العموم فيرفع امره الى المحاكم

س . من هم خطباء هذه الدعاوي وما هي صفاتهم ؟

ج هم عين الخطباء المتولجين في الدعاوي الجنائية اعني
 المدعي العمومي او المشتكي ثم المحامي ثم القاضي الحاكم في
 الدعوى . اما صفاتهم فكصفات اولئك اي النزاهة ومعرفة
 القوانين ومراعاة الحقوق

س . ماذا يلحق بهذه الدعاوي المدنية ؟

ج يلحق بها المعارض المرفوعة الى ارباب السلطة في بيان الوقائع والتقارير في استئناف الاحكام والاعتراضات عليها والفتاوى في الامور القانونية اثباتاً للصحيح الشرعي منها ونفيًا للباطل

س اذكر مثلاً على هذه الدعاوي ؟

ج اذا ادعى مشتك بصدور حكم له على غريمه وطلب تنفيذه امكنه ان يقول :

اعرض على مسامع اهل المجلس انه قد صدر لي حكم من اللجنة الفلانية بتاريخ كذا سنة كذا بالزام فلان بدفع مبلغ كذا ومن حيث انه لم يدفع حتى الآن فألتبس ان توضع املاكه الثابتة بالمزايدة وتُضبط النقولة وتُباع عن يد مأمور محصوص وفقاً للقانون - ...

أما الغريم فيمكن ان يرّد عليه هكذا :

١ ان الحكم الذي يدّعي الخصم انه صادر عليّ بتاريخ كذا سنة كذا لا علم لي به

٢ ان هذا الحكم على فرض صحّة صدوره فانه لم يكن من محكمة قانونية وقد صرّحت المادة الفلانية من قانون المحاكمات الموقت ان الدوائر المشكّلة بنير ارادة سنّية لا تُعتبر أحكامها مطلقاً

٣ اني لم أبلغ هذا الحكم المزعوم صدوره وعليه فهو غير مرعي الاجراء والتنفيذ كما هو منطوق المادة الفلانية من قانون الاجراء . ومن ثم فاني التمس إيقاف كل معاملة احرائية يطلبها خصمي المحرّر مع تضمين كل ما يلحق بي من المصاريف والاضرار

وهذه صورة استدعاء الاستئناف مع بيان الشكوى

والدفاع

ان فلاناً العثماني التاجر من البلد الفلاني اقام عليّ الدعوى في محكمة بداية القضاء الفلاني ببلغ خمسة آلاف قرش بموجب كميالة مؤرخة في كذا طالباً مني هذا المبلغ مع فائضه واجبتُ ان دعواه غير مسسوعة لمرور خمس سنين على تركها. وانه مع افتراض عدم مرور الزمن عليها فالكميالة مفتعلة لا علم لي بها والخط والختم اللذان فيها ليسا بخطي ولا ختمي. وبعد التحقيق غير الاصولي الذي جرى حكمت عليّ المحكمة بعدم مرور الزمان وبأن الخط والختم هما خطي وختمي وبثبوت هذا المبلغ في ذمتي مع فائضه وببلغ كذا بدل تعطيل وأضرار ومصاريف خصمي مستندة في ذلك الى اسباب غير اصولية واصدرت في ذلك اعلاماً مؤرخاً بكذا ببلغ اليّ في كذا. وحيث ان هذا الحكم مغاير الاصول وموقع بحقي المفدورية من جهة عدم مراعاة المحكمة اعتراضي بمرور الزمان حال كونه المحكمة ممنوعة قانوناً من سماع الدعوى التي مر عليها الزمان جئت ملتسماً باستئنافه ضمن المدة القانونية باستدعائي هذا المصحوب بسند الكفالة القانونية الذي يضمن لخصمي المرقوم مصاريف المحاكمة والمصاريف السفرية والعطل والاضرار والخسائر التي تتعين قانوناً اذا ظهرت غير مُحَقَّقٍ باستئنافي هذا ملتسماً ببلغ خصمي المرقوم صورة مصدقة عن هذا الاستدعاء وعن اللائحة وعن سند الكفالة المذكورة وجلبه للمحاكمة الاستئنافية بموجب بولصة دعوة يتعين فيها يوم المحاكمة لاجل الحكم عليه. أولاً بقبول استئنافي وانه مقدّم في مدته موافق لشرائطه. ثانياً بفسخ حكم المحكمة المذكور. ثالثاً بالحكم على غريمي المرقوم بمنع دعواه وتضمينه ما التحق بي من العطل والاضرار والخسائر والمصاريف والرسومات . . .

البحث الرابع

في انشاء الخطب المشاجرية

س ما هي طبقة الانشاء في الخطب المشاجرية ؟

ج الخطب المشاجرية تكون عادةً من الانشاء الساذج

س ما هي صفات انشاء هذه الخطب ؟

ج يُستحب فيها الصراحة والوضوح مع حذف الخطيب

في بيان جَبَّتِهِ وتنسيق ادْلَتِهِ ليكون كلامه احسن وقعاً في صدور الحكام . ويجوز له في بعض المواطن ان يطلق العنان لبلاغته في ردّ تهمة واغاثة مظلوم ضعيف ودونك مثالا على هذا الانشاء . من خطبة في حماسة شارِد (عن الحقوق)

ومع ذلك فاننا نحتقّ لو ان حكومتنا الحرّة الدستوريّة تجمع بين العدل والرحمة ، وشديد القصاص ونافع (التعليم) فتعتمد اولاً الى جمع هؤلاء الشرّذ تنذرهم وتعلمهم تعليماً ، وتشغلهم تشغلاً مُبْقِيَةً اَيّامهم تحت المراقبة ، فاذا صَحَّحُوا كان بهِ فنكون الحكومة قد احسنت اليهم والى اهلهم والى الهيئة الجمعية والا فتزيد في عقابهم تدريجاً فامّا ان يصطلح الواحد منهم فتستعمله للخير واما ان يبقى فاسداً فتبتره من جسم الهيئة بترّاً

ونرجو منها ان تنظر الى بعض من هؤلاء الشرّذ الذين حكمت عليهم العير فكانوا شاردين طريدين بالرغم عن ارادتهم قوم لم يمتادوا التعدي ولم يخنوا الا بعد ان عضّهم الجوع بناه فهاموا يطلبون الرزق ولو من اخرج ابوابه وقد سبقوا الى ذلك لا يقصد الشرّ والاضرار مجرّداً بل لسدّ جوعهم وسدّ عريهم وإشباع عيالهم . ولم يتمكنوا من العمل وقد ورّطهم في ذلك ما في البلاد من قلّة الاشغال وكساد التجارات وما بلاقي العامل والفلاح من مطامع اهل السطوة من الاتمهان وغط الحقوق . هؤلاء يجب ان لا يُنظر اليهم نظرة الغضب والازدراء بل ينبغي ان تُراعى احوالهم وظروفهم ويحمّ برفعهم من هذه الوهدة بطرُق الإقناع والتعليم والتهذيب لا بطرق التنكيل والارهاب والتمذيب . يجب ان الحكومة تَنَدُّ الى مثل هؤلاء يد المساعدة فاذا اوجدت لهؤلاء القوم عملاً مفيداً وفتحت لهم ابواباً للارتقاء والكسب تفيدهم بها وتستفيد منهم فلا اظنّ ان واحداً منهم لا يرضى العدول عن هذه الطريق الصعبة الى طريق اكثر اماناً واشرف منزلة واسلم عاقبة وهم ليسوا الاّ أناساً من لحم ودم ولهم نفوس روحانية وعقول قد تصير بالتهذيب من اكبر العقول واذكاها . وليسوا خالين من بعض خصال حميدة خفقتها اشواك الجهل والظيش والفاقة . فن الحكمة ان يُصرَف ما لديهم من المواهب الى نافع الامور



الباب الرابع

في الوعظة

س ما هي الوعظة ؟

ج الوعظة لفظة مستحدثة يُراد بها فنّ الوعظ وخطابة المنابر

س ما هو الوعظ ؟

ج الوعظ في اللغة النَّصَح والتذكير بالعواقب وقد يُطلق عموماً على الخطابة الدينية سواء كانت تعليمية تُوضح المعتقدات او ادبية تختصّ بالتذكير والانذار وإصلاح الآداب

س ما هو شرف فنّ الوعظ ؟

ج شرفه في غاية الرفعة وهو يمتاز عن بقية فنون الخطابة :
 أولاً من حيث شخص الخطيب الذي هو نائب الله يتكلّم باسمه تعالى ويبلغ الناس او امره عز وجل . وثانياً من حيث موضوع الكلام الذي يتناول اشرف الامور واطورها اعني الامور الروحية . وثالثاً من حيث الغاية التي يتوخاها الخطيب اي مجد الله وخير النفوس . ورابعاً من حيث الفائدة اي سعادة الحياة بممارسة الفضيلة ثم الفوز بالخلاص الابدي

س ما هي صفات الخطيب الديني ؟

ج ينبغي له ان يتَّصف بأربع صفات : الاولى ان يعرف الحقائق الدينية معرفةً تامةً لئلاَّ يُضِلَّ سامعيه بتعليمه الباطل والثانية ان يتلَّهَّب غيرةً لخلاص النفوس التي تولَّى ارشادها

والثالثة ان يطبِّق كلامه على مبلغ فهم السامعين وطبقاتهم وحاجاتهم

والرابعة ان يكون معروفًا بتقواه وبرارة حياته فيعمل ما يدعو اليه غيره لأن مثل الخطيب يؤثر في القلوب اكثر من كلامه
س ما هي صفات الخطيب الديني ؟

ج يحسن بالخطب الدينية ان تجمل بالصفات الآتية :
أولاً ان تكون سهلة واضحة العبارة ليدركها عموم السامعين فيقتبسوا فوائدھا لاصلاح سيرتهم
ثانياً ان تكون ساذجة بعيدة عن كل تصنع لئلاَّ ينشغل السامع بقشرة التراكيب المنمَّقة والزخرف الباطل ويذهل عن لبّ التعليم والقوت المغذي للنفوس
ثالثاً ان تنطبع في عقل السامع وقلبه بما يودعهما الخطيب من البراهين الدامغة والعواطف المؤثرة

س كم من بحث يشمل باب الوعظة ؟

ج يشمل ثلاثة اجاث : مصادر فنّ الوعظ ثمّ انواعه ثمّ انشاءه

البحث الاول

في مصادر فنّ الوعظ

س ما هي مصادر فنّ الوعظ ؟

ج هذه المصادر على قسمين منها اولية واصليّة ومنها ثانوية وعرضية

س ما هي مصادر الوعظة الاصلية ؟

ج هي كل العلوم الدينية المبنية على الوحي وتعليم الكنيسة ورسومها

س ما هو الوحي ؟

ج هو كلام الله الذي بلغه تعالى البشر في العهد العتيق على يد موسى الكليم وانبياء بني اسرائيل وفي العهد الجديد على يد ابنه وكلمته السيّد المسيح ثمّ رسله الكرام

س اكلام الله قوّة عظيمة في الوعظ ؟

ج ليس فوقه قوّة اعظم لانه اسطع من غيره نوراً في

العقول وانفذ عملاً في القلوب . قال بولس الرسول : « انّ كلام الله حيّ عاملٌ امضى من كل سيف ذي حدّين نافذٌ حتى مفرق النفس والروح ومميّز لا أفكار القلب ونيّاته »

س ما هو تعليم الكنيسة ؟

ج هو التعليم الحي للحقائق التي ورثتها الكنيسة من السيد المسيح وتلاميذه فتلقّنها المؤمنون بواسطة ابحارها الاعظمين المعصومين عن الغلط في عقائد الدين والآداب اذا تكلموا كرؤساء الكنيسة ونواب المسيح وبواسطة المجامع المسكونية المنعقدة تحت رئاسة الاحبار الرومانيين وبواسطة معلّمها الملافة القديسين ثم اساقفتها المتحدّين مع مركز الوحدة وكُرسي بطرس الرسول

س بماذا امتازت تعاليم الآباء القديسين معلّم الكنيسة ؟

ج قد امتازت بأمرين : الاول بكونها افضل شاهد على التقليد الكنسي لما دوّنه اصحابها من التعاليم الدينيّة الموروثة من الرسل . والثاني ببلاغة منشئها الفائقة على معظم الخطباء المدنيين

س ما هي رسوم الكنيسة ؟

ج هي كلّ الفرائض الدينية والطقوس والعبادات

والعادات التي جرت عليها الكنيسة او صادقت عليها تنمية
روح الدين

س ما هي المصادر الثانويّة للوعظة ؟

ج هي كلّ العلوم البشرية التي يستطيع الخطيب ان
يتوسّل بها لفائدة سامعيه ولا سيما العلوم الفلسفية والتاريخية

س كيف يستعين الخطيب الديني بالفلسفة ؟

ج يستعين بها اذا ايد اقواله بالادلة العقلية خصوصاً في
تفسير الحقائق التي يهتدي اليها العقل من نفسه كوجود الله
وخلود النفس وضرورة الدين . امّا المعتقدات الفائقة لادراك
العقل فيمكنه ان يبين شرفها وصلاحيّتها فضلاً عن كونها
ليست بمخالفة للحقائق العقلية

س ما هو التاريخ الذي يفيد الخطيب لارشاد المؤمنين ؟

ج هو على الاخصّ التاريخ الديني والتاريخ الكنائسي
اذ يذكر الخطيب من اشتهروا بقداسة حياتهم وشهامة اعمالهم
ليدفع السامعين على الاقتفاء بآثارهم . ولا بأس ان يستخدم لتلك
الغاية التاريخ الدنيوي ليزيد كلامه طلاوة وقوّة فيأتي المؤمن
حباً بالله واكراماً للدين ما اتاه العالميّ حباً بالوطن او لغاية زمنية
س وهل يستطيع الواعظ ان يستفيد ايضاً من بدية العلوم الدنيويّة ؟

ج نعم له ذلك . فإن العلوم كلها ولا سيما الطبيعية والرياضية بل الصنائع والفنون كالحراثة والملاحة والتجارة تقربها من فهم السامعين تجسدي الخطيب تشابهه ومقابلات وامتثالاً يتخطى منها الى التعاليم الدينية والمغازي الادبية جرياً على عادة السيد المسيح نفسه ورساله الكرام وجميع الآباء القديسين الذين استعانوا بهذه الامور المادية فهدوا السبيل لأفهام الجمهور وروقوهم الى ما هو اسمى واشرف

ودونك امثالاً على استعمال هذه المصادر الدينية في الوعظ نقتطفها من كلام ملفان شرقنا العزيز وشرف بلادنا السورية القديس يوحنا الذهبي الفم (راجع كتاب نخبة النخب في ترجمة القديس يوحنا في الذهب) فمن اقواله ما خطب به عن موت السيد المسيح وقيامته وقد احسن بايراد آيات الكتاب المقدس :

... لكن المخلص لم يكفر بانتخاب تلاميذه ان يقرر تعليم وعذيب الشعوب بل اراد ايضاً ان يكفر عن جرائمهم بآلامه ويفتح لهم بواته مقام القبضة الابدية فجاء بذاته ليقدم نفسه عنهم ذبيحة . قال اشعيا : « حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة ... أخذ وحمل اوجاعنا ... كشاة سيق الى الذبح لم يصنع جوراً ولم يوجد في فيه مكر كلنا ضلنا كالغنم . مال كل واحد الى طريقه ... جرح لاجل معاصينا وسحق لاجل آثامنا فتأديب سلامنا عليه وبشدخه شفينا » (الفصل ٥٣) . وقال داود بلسان المخلص : « ثقبوا يدي ورجلي اني اعد عظامي كلها وهم يفرسون في . يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقتربون » (المزمور ٢١ : ١٧-١٩) . وقال ايضاً : « حرّاً بين الاموات مثل القتلى الرقود في القبور ... جعلتني في الجب الاسفل في الظلمات والاعماق » (٨٣ : ٦) . وكذلك سبق داود فتنبأ عن قيامة المخلص المجيدة التي هي خاتمة رسالته قائلاً بلسانه : « لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فساداً » (المزمور ١٥ : ١٠) . ولما نزل بعد

قيامته الى الجحيم انزل به الرهبة والخوف وقوّض اركانهُ وقد قال اشعيا: «لأفتح امامهُ المصاريع ولا تُغلق الابواب. اني اسير قدّامك فاحطّم مصاريع النحاس واكسر مغاليق الحديد وأعطيك كنوز الظلمة ودفّات المخائن». وقد كسّر المسيح قيود الموت لما تحسّض من القبر وصعد الى السماء مجيّدًا عزيزًا كما قال داود: «ارفعن رؤوسكنّ ايّتها الابواب وارتفعن ايّتها المداخل الابدية فيدخل ملك المجد» (مز ٢٤: ٧). ولما صعد يسوع الى المنازل الابدية لم يجلس بين الملئكة ولا بين قوّات السماء بل صعد على عرشه عرش ملكهِ الالهي كما اعلن النبي داود ايضًا: «قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئًا لقدميك» (مز ١٠٩: ١).

وهذه بعض اقواله النفيسة في خلود النفس :

«دفعّت الحُرّة بعض الناقصي الحجي الذين لا يتكلمون الا على نور عقلمهم الخصوصي المريب الى ان يعلموا بانّ النفوس ليست الا فيضًا من جوهر الله غير المتناهي. وأفضت القحة بغيرهم الى تحقيرها ووضع شأنها حتى ساووها بمصفّ الطبيعة الحيوانية الدنيئة. فما اقبح هذا التعليم المُحالي وما اشدّ حماقة اصحابه فاعلموا اذا ان فاطر الطبيعة كما انه اراد ان يبدع قوّات غير هيولية كذلك كوّن الانسان من تراب الارض ثم شاء ان يمنحه نفساً متعلّية بالعقل تستطيع ان تمارس سلطاتها وارادتها على اعضاء الجسم المادية... فأنعّموا النظر هنا لتتأملوا باصفاء في الهاوية العاضلة بين الكائن الحالي من النطق وبين حياة الانسان العقلية فانّ الخالق لما اخرج من العدم ساكنات البحار لفظ هذه الكلمات: «لتفيض المياه زحافات ذات انفس حيّة» ففاضت البحار بالحيتان لتعيش في الماء. ثم قال الله للارض: «لتخرج الارض ذوات انفس حيّة بحسب اصفافها» فلبّيت الارض واخرجتها. لكن لما اراد الله ان يخلق الانسان شاور نفسه قائلاً: «لنصنع الانسان على صورتنا. فجبل الانسان تراباً من الارض ونفخ في انفه نسمة حياة». فقد منحه اذاً قوّة حيوية وهذه القوّة التي هي ينبوع حياة اغاها جوهر النفس جوهر غير هيولي ومخلوق لعدم الموت»

ومثله حسناً قوله في قيامة الموتي :

«سوف يأتي المسيح في ذلك اليوم العظيم فيفتش عن اخوته ويخرج من الارض اجسادهم فيلبسهم وجوداً جديداً عكسها قال اشعيا (١٩: ٢٦): «سنجيا

وتاك يا ربّ وتقوم اشلائي . استيقظوا ورنّغوا يا سكان التراب . نذاك ندى النور . . ان الموت لا يبديد الجسد بل سيقوم هذا الجسد من القبر ببهاء من المجد عظيم لكن هذا البهاء لا يكون حظ جميع الموتي الذين يقومون الى الحياة فان جميع البشر يقومون لكن المجد لا يكون الا نصيب الفضيلة . ان الهنا حسب قول الكتاب اله رحيم رؤوف عادل فاذا كان رحيماً ولا يفتر عن الصفح عن معاصي الخطاة فهو باقوى حجة لن يدع القديسين بلا اكليل ولا مجد . . . وهو ايضاً اله عادل فكل امرئ ياخذ من يديه جزاء اعماله ولو نزل القبر دون نوال هذا الجزاء العادل فلا ريب اذا في وجود قيامة آتية . وان رأيتم في حوادث البشرية ان الرذيلة مكثوفة بالراحة والطمانينة والفضيلة بالنكال والاضطهاد فأجيبوا اذا اين تجدون الميزان العادل للرزائل والفضائل ان كان ليس من قيامة تنشر الانسان الى الحياة وتدفعه الى يد عدل الله »

البحث الثاني في انواع الوعظة

س كم هي انواع الوعظة ؟

ج هي على نوعين : فمنها المتعليم ومنها للتأديب

أ في مواعظ التعليم

س ما هي اخص المواعظ التعليمية ؟

ج هي الميامر وخطب التأويل والمحاضرات الدينية والخطب الجدلية

س ما هي الميامر وما غايتها ؟

ج هي خطب دينية يلقيها ارباب الكهنوت ليوضحوا فيها للمؤمنين عقائد الدين واسرارهُ وحقائقهُ النظرية . وغايتها اعادة عقول السامعين وتشبيتهم في الايمان

س كيف تُسرَد غالباً هذه الخطب ؟

ج يفتتحها الخطيب بذكر الفضيلة التي يريد ايضاها وبعد تفسير معانيها واقسامها يعدد ما ورد عنها في الوحي ثم يبين ما يؤيدها في التقليد الكنائسي كاقوال الآباء وقوانين المجمع والآثار البيعية ويضيف اليها الادلة العقلية التي تثبتها او تقرّبها الى الفهم . وكثيراً ما تُختم هذه الخطب بتحريض السامعين على الاعتصام بحبل الايمان والسّير في جادة الصلاح

س ما هي خطب التأويل وما هي طريقتها ؟

ج هي الخطب المختصة بشرح الكتب المقدسة ولاسيما الانجيل الطاهر وكتابات الرسل في العهد الجديد . امّا طريقتها فبأن يأخذ الخطيب فصلاً من فصول الاسفار الالهية ويشرحه آية آية ثم يبين ما بين الآيات من العلاقة وفوائدها النظرية والادبية واذا وجد مشكلاً كتابياً فسرّه ويختم كلامه بما يوافق الحال كالثناء على كلام الله او بيان شرف الفضيلة او ممارسة الصلاح . مثاله شرح القديس يوحنا فم الذهب لآية بولس الرسول الى الرومانيين : « اسألکم ايها الاخوة بمراحم الله ان تقرّوا اجسادكم ذبيحة حيّة مقدّسة عند الله عبادةً منكم عقلية » . قال :

بعد ان ذكرنا الرسول فيما تقدّم من الآيات بنعم الله التي هي نتيحة مراحم الله عاد الآن يسألنا بنفس تلك المراحم ان نواجه غرض النعمة . وكيف ذلك ؟ قال : « اسألکم ان تقرّوا اجسادكم ذبيحة » . ولئلا يتبادر الذهن الى لزوم

الذبيحة الدموية بقتل الاجساد اضاف اليها قوله : « حية » واحترافاً من ان تكون كذبايح الاقدمين قال ايضاً : « مُقدَّسة مرضية عبادة عقلية » - لان ذبايحهم كانت جسدية ولم تكن في الاكثر مقبولة . . .

وربَّ قائل يقول : كيف أقدم الجسد ذبيحة . قلتُ : ان لا تحوّل عينك الى قبيح . هذا هو الذبيحة . ان لا يتحرّك لسانك بالدنس هذا هو الذبيحة . . . غير ان هذا كلّهُ غير كاف . اذ لا بدّ ايضاً ان نعمل الاعمال الصالحة . فالذبيحة الفضلى اذا ان تبسّط يدك بالصدقات وان يُبارك لسانك مُبغضك وان تُعوّد اذنك سماع كلام الله . . . هكذا يمكننا ان نقرب اجسادنا ذبيحة حية مُقدَّسة مرضية لله عبادة عقلية

س ما هي المحاضرات الدينية ؟

ج هي خطب يُقصد منها الدفاع عن معتقدات الدين بالبرهان وغايتها بيان صحّة الدين وتعاليمه للباحين ونكّرة الوحي ثمّ تعزيز الايمان في قلوب المؤمنين ليقووا على الدفاع عن معتقداتهم

س ما هي الطريقة المتبعة في هذه الخطب ؟

ج هي الطريقة النظرية بحيث يثبت الخطيب عقلاً ونقلاً الوفاق التام بين الدين والعقل ويفنّد سفسطات الملحدين . ولا بأس اذا وجد العقل البشري في الدين بعض العقائد التي تعلو فوق طوره فلا يدرّكها فهمه فأنه يستطيع ان يتحقّق كونها من الله الحق بالذات الذي لا يمكنه ان يخدع او ينخدع

س ما هي الخطب الجدلية ؟

ج هي الخطب التي تُلقى في النوادي الدينية ردّاً على

المبتدعين واعداء الدين والغاية منها إلزام الخصم بالبرهان وازالة الشك من عقول السامعين

س ما هي صفات هذه الخطب الجدلية ؟

ج أول صفة يجب ان تتحلّى بها هذه الخطب الوضوح ليقف السامعون على اقوال الخصوم دون التباس وتعقيد . ثم استقامة الخطيب لئلا ينسب الى الخصم شيئا لم يَقُلْهُ او يُضَعَفْ حججه وان وجد في اعتراضه دليلا قويا اقرّ به بنزاهة . واخيرا حسن الردود بالبيّنات والادلة التي تُثبت الحق وتُرهِق الباطل (تنبيه) اعلم أنّ ان الافضل في هذه الخطب ان تُلقَى في نواحي خاصّة لا يحضرها الجمهور بل نخبة من الادباء لقصور الجمهور عن ادراك الغرض منها ما لم يتفّق واعطان يقوم احدهما مقام المعارض والآخر مقام المحامي فهذه الطريقة الجدلية يستحسنها البعض اتقنيد الاعتراضات الجارية بين العموم . ٢ . انّ الحجاج والبراهين في هذه الخطب تؤخذ من العقل او من مصادر يرضى بها الخصم ولا يستطيع رفضها

٢ في مواعظ التأديب

س ما هي مواعظ التأديب ؟

ج هي المواعظ التي يروّض بها الخطيب آداب السامعين

س ما هي الغاية من هذه الخطب ؟

ج الغاية منها ان يرد الخطيب الاشرار الى التوبة ويزيد
الابرار صلاحاً

س باي طريقة يبلغ الخطيب هذه الغاية ؟

ج يدركها خصوصاً بالتذكير والانذار بعواقب الانسان
وبوصف الفضيلة واثارها الطيبة في هذه الحياة وفي الآخرة
وبتقبيح الرذيلة ولواحقها السيئة في الدارين ثم بذكر الوسائل
الكافلة بالسيرة الصالحة كالصلاة والزهد في الدنيا وممارسة اعمال
البر والمواظبة على الاسرار

س ما هي اخص المواضيع الادبية التي يحسن الخطيب ان يتكلم
فيها ؟

ج هي كل الواجبات والفرائض التي تربط الانسان
بخالقه وقريبه وطبقات الهيئة الاجتماعية مع رياضة نفسه وللخطيب
مجال واسع يتناول كل آداب الدنيا والدين

س أورد بعض الامثلة من الخطب التأديبية ؟

ج هذه امثلة نقتطفها ايضاً من اقوال الذهبي الفهم . قال
في ضرورة الصدقة ولزومها للجميع ثم منافعها الجمّة :

لا أوجّه الحُصَّ على الصدَّق إلى الاغنياء فقط بل إلى الفقير ايضاً ولا استغزئ
ككرم الحرّ فقط بل العبد ايضاً والرجل والمرأة وكل احدٍ بحيث لا تبقى نفسٌ
غريبة عن الخدمة القلبية والثروة الساوية . فليبدل كلٌ منكم تقدمته ولا تختصوا
احتجاجاً كاذباً بالفاقة فلربما اتم فقراء حقاً ولكن مهما كنتم افقر من تلك

الارملة المذكورة في الانجيل فانها اعطت كل ما لها. الملّكم اشدّ اعوازاً من ارملة صَرْفُند التي لم يكن عندها الا ملّ راحة دقيقتاً وكانت تعدّه طعاماً أخيراً لها ولاولادها قل ان يموتوا. فلما ضافها النبي قَدِّمَتْ لَهُ لِيَأْكُلَ من ذلك اولاً واولادها يبكون حولها جوعاً فلم تكثر اليهم ملتهمياً بما اصابها من الفرح بتشريف رجل الله بيتها. حاشى لستم افقر منها فتعلموا اذن من هذا المثل ذي الشهامة ان الافتقار الذي ينزل بكم بسبب عطية الصدقة انما هو كثر بل اعظم الكموز لانه كثر الابدنية. اَجَلْ اعطوا ذهب الارض تناولوا ملكوت السماء....

فان كنتم لتنجوا من اوجاع جرح او اخطار مرض تبذلون بسرور كل اموالكم حتى ثيابكم فكم أخرى بكم ان تصنعوا الصدقة التي تنجّي نفسكم من قروحها وتشفّيها من حراح الخطيئة المريّة. فافرضوا ان نفسكم ملتخفة بشعار اسود من قذارة ذنوبكم فاذا ارتفع صوت صدقاتكم ليدافع عنكم امام الله فلا تخافوا فما من قوّة اقدر منها في السوء فهي تغي عن دينكم حاملةً بيديها الصلّك الناطق بحقوقكم التي لا بدّ من وفائها استناداً الى كلام الربّ القائل: كلّما فعلتم ذلك باحد اخوتي هؤلاء الصغار في فعلتموه. اذن هما كانت معاصيكم كثيرة وكبيرة فان صدقتكم تكون دائماً ارحم منها في ميزان الالهية

وله في الصوم الحقيقي :

من مارس إِمَانَةَ الصوم وحب ان يجمع اليها سيرةً محتشمةً وقلباً وضِعْماً ومنسحقاً ويدمن جيبته بصفاء السلام. فالصوم انما هو دواء يمنح النفس صحّةً روحية. على انه وان كان غايةً في الافادة يتفق غالباً انه لإِهْمَالِ تمارسه لا ينفعه شيئاً بل يبقى عقيماً لان الصوم الحقيقي والفعال انما هو الذي يؤدي الى الفرار من الخطيئة. أترعم انك صائم فأثبت لي صيامك باعمالك. وما هذه الاعمال ؟ فان رأيت فقيراً فتحنّ عليه. وان صادفت عدوّاً فصافحه مصالحاً. وان كان صديقك قد استهر وفاز من حراء حذاقته فلا ينغصن الحسد قلبك. وان وقعت عينك على امرأة بارعة الجمال فاهرب. ولتكن امانتك شاملةً لكلّ حواسك فلا يكفي ان تميت فك بجرمانه من الاكل بالصيام بل يلزم ان تعم الامانة ايضاً بعينك واذنيك ورجليك ويديك وسائر اعضاء جسمك... فالصيام المسيحي انما هو كبح الشهوات والهدوء الصافي للنفس الامينة. هو جمال الشيخوخة وسياج الشباب ومصباح الحكمة والتاج الساطع الذي يكلّل جبهة الانسان في كل اطوار الحياة

وله من خطبة في الاعتراف السري للكهان :

ان سقطت في الخطيئة فاحذُ حذو المريض الذي يستغيث بالطبيب . اكشف للكهان جراحات نفسك دون ستر شيء لان الرب قد اعلن ان كل ما يربطه على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ما يخلّعه في هذا العالم يكون محلولاً الى الابد . لان يسوع عندما يجلس الكاهن على منبر القضاء الرهيب يلتفت الى عبده فكل ما ابرمه هذا القاضي في هذه الدنيا يتبته يسوع المسيح في السماء وهكذا الكاهن ينقذنا من يديه بعد ان تكون خطايانا قد دفعنا الى عدله . فادخلوا اذن بيت الله واسجدوا قائلين : خطئنا ألم تروا على الجلجلة مجرمًا نال العفو والقداسة بالاعتراف . اشهدتم اذا ما اهمّ الاعتراف بالخطايا والاقرار السري بالهفوات البشرية . فالخطيئة يعترف بانها والفرديوس يفتح لصوته . أجل ان شئنا ان ترشف نفوسنا من ينابيع الرحمة الالهية فلا يصدّتنا الحجل موقفاً على شفاهنا الاقرار بخطايانا لان فضيلة الاعتراف هي فضيلة عظيمة وقوّها لا حدّ لها . وان كان عقلك يتمرّد مستنكفاً عن هذا العمل ذي التواضع فاقمهُ مكرهاً وأقنعهُ أنه ان كانت كبرياؤه لا تنحطّ الى هذا الاقرار على الارض اضطرّ اليه قسراً في الحياة الاخرى حيث يكون هدفاً للجهل امام خلق كثير جداً ولعقاب جسيم ذي عذاب شديد الالم . ان دينوتك في هذه الدنيا لا شاهد عليها وانت عينك تقوم على نفسك دياناً وحكماً اماً في الابدية فان خطاياك كلها تُكشف في يوم الرب العظيم ويصدر الحكم عليك بحضرة العالم كله ان لم تكن قد مُحيت منّا قبلاً على الارض

ودونك مثلاً آخر من خطبة لمسيحيون الواعظ الفرنسي الشهير في

موت الخطيئة وموت البار قال :

اذا نظرت الى الأهواء البشرية قضيت منها العجب وتحققت فيها تنافراً شديداً . ألا ترى ان الانسان يميل كل الميل الى الحياة ويحسب الموت شرّاً ضرورياً . أهواؤه هي التي تُحبّب اليه الحياة ولكنها هي التي تجلب عليه وبال الموت فكأنني بالانسان لا يحيا الا ليستعجل الموت

كُلّ انسان يتحقّق بل يؤدّ ان يموت ميتة رحل صالح وان كان يؤجل الى آخر ساعة حياته الأمل باصلاح نفسه من الأهواء التي تدنس جهاها . كُلّ انسان يحسب ان ميتة الشرير شرّ البليات وهو مع ذلك يُهمّدها لنفسه آمناً مطمئناً . يرتجف رعباً وفرقاً لمجرد التفكير في ميتة الشرير وتراه مع ذلك يمشي في نفس

الطريقة التي تؤدّي إليها . قُلْ لهؤلاءِ اِنَّ مآلَكُمْ مثل حياتكم وكما عشم تقضون
آجآلكم

ثم اخذ الخطيب في وصف ميتة الرجل الشرير :

ان الماضي والحاضر والمستقبل كُلُّ منها يُلقى الرُّعب في قلب المحتَضِرِ
الشرير . اَمَّا الماضي فلانَّ الشرير يجد فيه بُطلان سعيه وراء ملاذِّهِ ورداءة سلوكه
وهكثرة ما ارتكب من الذنوب والقبائح . . . فيتحسّر على ما فرط ولات
ساعة تحسّر

اما الحاضر فلأنّه يُحدث فيه حيرة غريبة . . . يرى يد الله مرفوعة فوقه . .
يرى الدنيا غرارة خداعة . . . يرى الفراق قد آزف حينه . فراق الأهل
والاحباء . . . فراق اللذات والشهوات . . . فراق نفسه من نفسه

وامّا المستقبل وما ادراك ما المستقبل : الله من اعلى السماوات قاضٍ عادل مريع
مهب . . . وتحت اقدام الشرير نار غضب لا تنطفئ على توالي الازمان . . .

فالحاطي المحتضر اذ لا يرى وقتنذ في ما مضى عليه الا ما يوجب الاسف ولا
ينظر في ما بين يديه الا صورا غلالة حزنا ولا يلاقي في المستقبل الا مخاوف
تشدّد عليه الرُّعب ولا يعلم بمن يستعين بالخلائق التي تفارقه أم بالاهل وم
عاجزون عن نجاته أم بالاله الذي يعتقه عدوا له . . . يتقلب على فراش المرض
فريسة لاعظم القلاقل وأشدها . . . وتراه يجهد في الفرار من الموت ولا فرار . . .
يبدو عليه ما يدلّ على اضطراب نفسه . . . تسمعه يصعد من اعماق صدره كلمات
مقطعة بالشهيق والزفير وما يُدريك ان كانت عن ندامة او عن يأس من رحمة
الله . . . يلقي على المصلوب نظرات هائلة لا تعلم ان كانت عن خوف او رجاء .
عن محبة او بغض - . . . تتولّد منه تشنجات واضطرابات ولا يُعرف ان كانت
من اغلال الجسم او عن شعور النفس بوشك قدوم دباها . . . هذا وتشخص عيناه
وتبدّل هيئته ويتشنّع وجهه ويفتح من نفسه ذلك القم الذي علته غبرة الموت
. . . ويرتجف بدنه . . . وتتفادر تلك النفس العيسة حسنها الترابي لتشف امام
وجه رجا وتُحاسب حسابها الاخير . . . هذه ميتة الشرير فتجنّبها أيّها الحاطي
ان شئت ميتة الصالح

وانتقل الخطيب بعد ذلك الى وصف ميتة البارّ فقابلها بميتة الحاطي

قائلا :

ان الماضي والحاضر والمستقبل كُلُّ منها يملأ الصالح فرحاً وسلواناً
يرى في الماضي انه استراح من تعبهِ . . .
اماً في الحاضر فما من شيء الا ويفرح به . . . يفرح بقرب الفراق لأنه كان
ميتوقِّعهُ . . . وبالاسرار المقدسة لانها تفتح له ابواب الفردوس . . .
وما أحلى ذكر المستقبل عنده لأنه يرجو ان يجتمع بالله يُجِبُّه فيجازيه على
حسناته . . .

س ماذا يلحق من الخطب بهذه المواعظ التأديبية ؟

ج يلحق بها مواعظ المدح التي تُقال في اعياد القديسين
للنشأ عليهم ومواعظ التأين التي تُلقى في الكنائس ذكراً
لاحد افاضل المؤمنين من الموقى . وقد مرَّ الكلام في هذه
الخطب في جملة الخطب التثبيتية

البحث الثالث

في انشاء الوعظة

س ما هو الانشاء اللائق بالوعظة ؟

ج لما كانت المواعظ متضمنة لكلام الله وغايتها فائدة
المؤمنين اجمالاً وبنيانهم الروحي تحتم على الواعظ ان لا يترفع
فوق ادراك السامعين ويتجنب كل زخرف باطل يعدل بهم عن
اجتناء ثمره الوعظ . واماً الانشاء اللائق لهذه الغاية فأنما هو
الانشاء البسيط

س هل تقوم البلاغة الخطابية مع هذا الانشاء ؟

ج نعم لأن بلاغة الكلام لا تتوقف على الرنق الظاهر والبهرجة بل على اختيار المعاني وتنسيقها وشرحها بالتدقيق وتبليغها ذهن السامع وإفادها في قلبه بالشهادات والتشابه القريبة والامثال السهلة والنتائج العملية الواضحة مع تحريك الالهواء لمباشرة العمل فينسى السامع مَنْ يقول ليفكر في ما يقول ويصلح نفسه بالتوبة النصوح والسيرة الجميلة

س ما هي اشكال البديع الموافقة للواظ ؟

ج هي الاشكال البديعية الناجمة عن الموضوع ومقتضى الحال . ومثلها التحسينات اللفظية والعبارات الرائقة التي تنهج للخطيب سبيلاً للوصول الى الأفهام مع الحياد عن التكلف والتنميق الزائد بحيث يأنس بها الجميع فلا يستكرها العالم ولا تستبهم على الجاهل . وعلى كل حال يلزم الخطيب الاخذ بالرصانة والوقار متذكراً بأنه ينطق باقوال الله من قبل الله

(تنبيه) سبق لنا القول بأن ارسطو قسم الاقوال الخطابية الى ثلاثة اقسام : التثبيتي والمشوري والمشاربي . ويجوز تطبيق الخطابة الدينية على هذه الاقسام بان تُنظم الخطب التعليمية مع المدح والتأبين في القول التثبيتي . وتُدرج الخطب التأديبية في المشوري . امّا الخطب الجدلية فارجعها الى القول المشاربي

الباب الخامس

في تاريخ الخطابة

البحث الاول

في اصل الخطابة واقدم آثارها

س ما هو اصل تاريخ الخطابة ؟

ج تاريخ الخطابة عريق في القدم والاحرى ان يقال ان هذا الفن غريزي نشأ مع تكوين الانسان الناطق الذي لا غنى له عن تبليغ افكاره لذوي جنسه وعن إقناعهم بصدق آرائه

س ما هي اقدم الآثار الخطابية الباقية الى زماننا ؟

ج اقدم ما صبر منها على آفات الزمان الخطب المدونة في اسفار العهد القديم مباشرة بتوراة موسى الكليم حيث ترى خطباً عديدة وجهها هو والانبياء الى بني اسرائيل ليردوهم عن المآثم ويحضوهم على الصلاح والاعمال الشريفة. وكذلك وجدوا في كتابات الاشوريين المسمارية وفي آثار المصريين الهيرغليفية خطباً وعظية او تأديبية وردت غالباً على السنة آلهتهم او ملوكهم

س الى من يعود الفضل في تحسين هذا الفن ؟

ج الى قدماء اليونان والرومان

البحث الثاني

في الخطابة عند اليونان والرومان

س متى نشأت الخطابة بين اليونان ؟

ج نشأت في دولهم الاولى ومنازعاتهم السياسية وحروبهم .
وفي الياذة هوميروس في القرن العاشر قبل المسيح خُطب
عديدة بليغة اوردها عن السنة الآلهة والابطال

س من هم الخطباء اليونان الاولون ؟

ج اولهم سولون مشرع اثينا (٦٤٠ - ٥٥٩ ق م)
ومصلح آداب اهلها . ثمّ پيسسترات (+ ٥٢٨) مناظر سولون
وابنه هيبارك جامع شعر هوميروس . واشتهر بعدهم في
الخطب العسكرية القائد ثيستوقلس (٥٢٨ - ٤٦٤) وفي
الخطب السياسية ارستيدس رصيف ثيستوقلس

س متى بلغت الخطابة اليونانية كمالها ؟

ج بلغت في اواخر القرن الخامس قبل المسيح في عصر
پريكليس الذهبي (٤٩٩ - ٤٢٩ ق م) وكان پريكليس زعيم

وطنه واحد خطابها المضلّعين . ومالبت ان ظهر بعدهُ بقليل
خطباء مصقعون نالوا في فنّهم قصبة السبق على من سواهم .
اخصهم ايسوقراطيس (٤٣٦-٣٣٨ ق م) في القول التثبتي .
وديُسثينيس (٣٨١-٣٢٢) امير الخطباء في كل اجناس
الخطابة ثمّ مناظره اسخينس (٣٨٧-٣١٢) في القول المشاجري

س متى اشتهر الرومان بالخطابة ومن هم اشهر خطائهم ؟

ج لم يشتهر الرومان بفنّ الخطابة الا بعد اليونان بمدة
طويلة لانصراف همّتهم الى الحروب . وممن يستحقون ذكراً
خاصاً كاتون المعروف بالنقاد (٢٣٢-١٧٤ ق م) في خطبه على
قرطجّة . ثمّ يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ ق م) القائد الروماني
الشهير . ثمّ إمام الخطابة اللاتينية شيشرون (١٠٦-٤٣ ق م)
الذي اضحى اسمه مرادفاً للبلاغة

س من هم أوّل الذين دوّنوا قوانين فنّ الخطابة ؟

ج أوّلهم ثلاثة من خطباء اليونان ازهروا في ختام القرن
الخامس قبل المسيح والقسم الأوّل من القرن الرابع اعني
برودييكوس القوسي (المتوفى نحو السنة ٤٣٠ ق م) او بروتاغوراس
معاصره ثم غورجياس (+ ٣٨٠ ق م) الى ان ظهر ارسطوطاليس
(٣٨٤-٣٢٢ ق م) استاذ الاسكندر وزعيم الفلاسفة فلم

يدع كبيراً او صغيراً من قوانين هذا الفن حتى دُونَهُ ونشره في كتابه المعنون بالخطابة. وقد اشتهر بعده عند الرومان شيشرون السابق ذكره في عدة تأليف عن فن الخطابة ثم كُونْتِيلْيَان المعلم (٤٢-٩٥ م) في كتابه المعروف بتهذيب الخطيب. واخيراً لُنْجِينُوس الحمصي (٢٤٠-٢٧٣ م) نديم زينوبيا (الزبأ) ملكة تدمر في كتابه المعنون بالمُفْلَق

البحث الثالث

في تاريخ الخطابة النصرانية

س من كان أول خطباء النصرانية ؟

ج أولهم السيد المسيح الذي خطبه في الانجيل احسن موقع في القلوب لجمعها بين السذاجة والبلاغة السامية . ثم تلاميذه الكرام ولاسيما هامتى الرسل القديسين بطرس وبولس في خطبهما الحسنة المدونة في سفر اعمال الرسل وفي رسائلهما

س من هم ائمة الخطابة النصرانية بين كتبة اليونان ؟

ج لا يُحصى عدد الكتبة اليونان الذين اشتهروا ببلاغتهم في انواع الخطب . وأولهم الذين اثبتوا الدين النصراني بتأليفهم او دافعوا عنه امام القياصرة بكتبهم في النصرانية . نخص منهم بالذكر القديس اقليميس (+ ٩١) البابا تلميذ

بطرس الرسول في رسالتيه الى اهل قورنثية . واغناطيوس الانطاكي الشهيد (+ ١٠٧ م) في رسائله السبع . ويُسْتينوس النابلسي (١٠٣-١٦٧ م) في دفاعه عن النصرانية ورسالته الى الامم وردّه على اليهودي تريفون والوثني ديوغناس . وايريناوس الاسقف (١٤٠-٢٠٢ م) في تفنيد المبتدعين . واقليميس الاسكندري (+ ٢١٧ م) في تريفن اضاليل الوثنيين وفي كتابه المسمى بمرشد الاحداث وغير ذلك . وتلميذه اوريجانوس (١٨٥-٢٥٣ م) في عدة تأليف نفيسة وخصوصاً في ردّه على قلسوس الفيلسوف

ثم ظهر في القرن الرابع والخامس اولئك الآباء اليونان الذين لا تزال مصنفاتهم العجيبة ناطقة ببلاغتهم الالهية كاثناسيوس الاسكندري (٢٩٦-٣٧٣) في خطبه الدفاعية وردوده على آريوس . وكيرلس الاورشليمي (٣١٥-٣٨٦) في شرحه التعليمية . ثم الثلاثة الاقار اليونانية البهية اعني غريغوريوس النزينزي (٣٢٨-٣٩٨) المعروف باللاهوتي وباسيليوس القيسري (٣٢٩-٣٧٩) ولكليهما الخطب الآخذة بمجامع القلوب . ولا سيما يوحنا فم الذهب الانطاكي (٣٤٤-٤٠٧) وبطريرك القسطنطينية الذي لم يدع باباً من البلاغة الا طرقة فاستحق ان يدعى نابغة الخطابة المسيحية . ثم تبعه كيرلس

الاسكندري (+ ٤٤٤ م) في ردوده على نسطور وخطبه
الانيقة . وتاودوريطس القورشي (٣٨٧ - ٤٥٨) وغيرهم
كثيرون دون السابقين تتابعوا الى ان ذوت زهرة البلاغة
بانفصال الكنيسة الشرقية عن مركز الايمان في القرن التاسع

س اذكر ائمة الخطباء في الكنيسة اللاتينية ؟

ج برز في الخطابة النصرانية بين اللاتين المعلم تروليان
(١٦٠ - ٢٤٥) في تأليف جمّة تشهد له بذلاقة اللسان وقوة
الجدال اخصّها دفاعه عن الدين المسيحي . ثمّ قبريانوس اسقف
قرطجانة الشهيد (+ ٢٥٨) في مقالات تتدفّق بلاغة شهوها
بالبحور الزاخرة والسيول الجارفة . ثمّ قام في القرن الرابع
والخامس آباء ومعلّمون جاروا في بلاغتهم الخطباء اليونان
كهيلاريوس اسقف پواتيه في فرنسة (+ ٣٧٠) وامبروسوس
الميلاني (٣٤٠ - ٣٩٧) وايرونيemos الدماطي حبيس مغارة
بيت لحم (٣٣١ - ٤٢٠) واوغسطينوس نابغة النصرانية عموماً
(٣٥٤ - ٤٣٠) ولاون الكبير بابا رومية (+ ٤٦١)
وخطيبها اللسان وغريغوريوس الكبير (٥٤٠ - ٦٠٤) خاتمة
البلاغة اللاتينية قبل هجوم البرابرة على الرومانية ولكلهم في
الخطابة الآثار المخدّدة

س وهل اشتهر بعض الخطباء بين نصارى السريان ؟

ج نعم قد اشتهروا بالخطابة منذ القرن الرابع الى التاسع .
 وأولهم افرهاط الفارسي (نحو + ٣٥٠) في مقالاته الدينية .
 ثم تبعه الملقان القديس افرام (+ ٣٧٣) الملقب بشمس السريان
 وكثرة الروح القدس له ما عدا شروح الكتب المقدسة ميامر
 اي مواعظ معظمها بالشعر اعرب فيها عن مقدرة عجيبة في
 البلاغة وطول باع في فنون الخطابة . وخلف بعده عدة تلامذة
 اشتهر بعضهم بالخطابة الدينية منهم اسحاق الكبير الانطاكي
 مؤلف ميامر شعرية جميلة . ومن مشاهير خطباء السريان
 ربؤلا الرهاوي (+ ٤٣٥) ويعقوب السروجي المعروف بالملقان
 (+ ٥٢١) الذي جارى مار افرام بميامره الشعرية والنثرية في
 كل الآداب الدينية . ومن معاصريه فيلنكسان اسقف منبج
 (+ ٥٢٣) صاحب المقالات والمواعظ البليغة التي شوه بعضها
 باضاليه اليعقوبية . واشهر منه في القرن السابع يعقوب الرهاوي
 (+ ٧٨٠) الكاتب المتقن ومن جملة تأليفه ميامر نثرية
 وشعرية في اسرار البيعة وتعاليمها . ثم طيموثاوس الاول
 المعروف بالكبير (+ ٨٢٣) له خطب عيدية بليغة

س من هم اشهر خطباء الفرنج في القرون الاخيرة ؟

وخطباء علمانيون كـمونتالمبار وشانلون ودي مون . وقد جُمعت أعمالهم في مجلدات ضخمة يجد فيها القراء كنوزاً من المآثر الخطابية تملأ ذكر اصحابها . أما بقية الدول فلم تبلغ الخطابة عندهم مبلغها عند الفرنسيين إلا بعض الافراد كبولس سينيري اليسوعي الايطالي (١٦٢٤ - ١٦٩٤) وفييرا اليسوعي البرتغالي (١٦٠٨ - ١٦٩٧) ودونوزو قورتيس (١٨٠٩ - ١٨٥٣) الاسباني الشهير ووندتورست الخطيب السياسي الالماني (١٨٩١ +) واوكونل الارلندي (١٧٧٥ - ١٨٤٧)

البحث الرابع

في الخطابة العربية

س الى كم تقسم الخطابة العربية ؟

ج الخطابة العربية قسمان نصرانية واسلامية

س ما هي اقدم آثار الخطابة العربية النصرانية ؟

ج اقدم هذه الآثار سبقت الاسلام فتروى لثس بن ساعدة اسقف نجران الذي ضرب المثل في بلاغته ولاكشم بن صيفي التميمي افصح خطباء العرب ولسحبان وائل من قبيلة باهلة النصرانية الذي ادرك الاسلام فأسلم

س ما قولك في هذه الخطب القديمة ؟

ج انّ ما بقي منها لا يجدي نفعا كبيرا وانما يدلّ على
بلاغة ولسن في قائلها . وهي غالباً معانٍ متفرقة وحكم
وامثال اكثر منها خطب قانونية مبنية على اصول ثابتة

س ما هي آثار الخطابة النصرانية بعد الاسلام ؟

ج معظمها مقالات وميامر وخطب كنسية واقوال
جدلية تُرى متفرقة في الاديرة القديمة والمكاتب الحافلة . فمنها
ما كُتب توّاً بالعربية ومنها ما نُقل اليها من اليونانية والسريانية
والقبطية

س هل نُشر منها شي . بالطبع ؟

ج نعم قد نُشرت مواعظ القديس يوحنا فم الذهب
معربة بقلم ابي الفضل الانطاكي المتوفى سنة ١٠٥٢ للمسيح
وميامر ثاودورس ابي قرّة اسقف حرّان في القرن التاسع وهي
اقدم الآثار النصرانية العربية . وكذلك طُبعت التراجم السنية
للاعياد المارانية وهي خطب للبطريرك الكلداني النسطوري
اليّ الثالث المعروف بابي الحليم ابن الحديثي المتوفى سنة ١١٩٠ م
جرى فيها على طريقة خطباء المسلمين فحلّوها بالسجع واشكال
البديع وضروب التحسينات اللفظية والمعنوية

س وهل عني النصارى في عهدنا بفن الخطابة وما هي آثارهم ؟

ج . ج أجل وقد تقفوا في ذلك غالباً آثار الفرنج فجروا على طريقتهم الخطابية وان لم يبلغوا شأوهم . ولم يُنشر من هذه الآثار سوى الخطب الدينيّة فنشر الموارنة خطب ومواعظ السيّد يوسف الدبس . ومواعظ السيّد جرمانوس الشامي والخورى استفان الشامي (لمحة العين) . ونشر الروم الكاثوليك مواعظ السيّد جرمانس معقّد (سبيل الصلاح والكلام الحيّ وحسن الختام) . ونشر السريان الكاثوليك مواعظ السيّد انطون قندلفت (عقود الجمان) والخورفسقفس افرام ابيض (دليل الفردوس) . ونشر الروم الارثدكس مواعظ اثناسيوس البطريك الاورشليمي وخطباً في الاعياد وتفسير اناجيل الآحاد معرّبة عن اليونانية (بهجة الفؤاد والبوق الانجيلي) وخطب الخوري اسبرديون صرّوف (الروض الداني القطوف) . هذا فضلاً عن بعض الآثار العصريّة صنّفها افاضل الكهنة ممّن لم يزلوا في قيد الحياة

٢ في الخطابة الاسلاميّة

س كم قسمًا الخطابة الاسلاميّة ؟

ج الخطابة الاسلاميّة قسمان : منها مدنية ومنها دينية

س من هم الذين برعوا في الخطابة المدنية ؟

ج هم قليلون اخصهم علي بن ابي طالب وقد جمع خطبهُ
 المدنية والدينية السيد المرتضي في القرن الرابع للهجرة في
 كتاب نهج البلاغة وهي غالباً تُنف من خُطب ليست خطباً
 مستوية التقسيم منظّمة الابواب . ثم بعض الخلفاء وعمّالهم
 كماوية ويزيد ابنه والمنصور العباسي وزياد ابن أبيه عامل
 معاوية على البصرة وعُتْبة بن ابي سفيان عامله على البصرة
 والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان على العراق
 وقُتيبة بن مسلم عامل يزيد بن مروان على خراسان وبعض
 الخوارج كقطري بن الفجاءة وابي حمزة الشاري . ولكلهم
 خطاب قليلة تُروى متفرقة في كتب الأدباء وقد ألّفها اصحابها
 بدهاءة فبيّجوا فيها بعض الاهواء لا سيما الغضب والانفة
 والخوف لكنّها بعيدة عن الفن الخطابي لكونها لم تقيّد عقول
 السامعين تحت حكم الخطيب فتجذب اليه بالاقناع الى ما
 يريد منها المتكلّم وتنقاد اليه عفواً . وقد اخذ المسلمون في
 عصرنا يدرسون فنّ الخطابة درساً محكماً ويلقون في نواديهم
 خطباً مدنية ضافية كخطب الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ
 محمّد عبده ومصطفى كامل وغيرهم قليلين

س من هم مشاهير الخطباء المسلمين ؟

ج اشهرهم ابو يحيى عبد الرحيم الشهير بان نبأته (٣٣٥-
٣٧٤=٩٤٦-٩٨٤ م) له ديوان خطب عني بشرحه كثيرون.
واشتهر بعده ابو القسم محمود الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨=١٠٧٥-
١١٤٤) في كتاب اطواق الذهب في المواعظ والخطب
وتبعهما كثيرون في خطتها. ومن مشاهير العهد الاخير الشيخ
نعمان الألوسي مؤلف غالية المواعظ والشيخ شعيب حُرَيْفِش
مؤلف الروض الفائق في المواعظ والرقائق

س ما قواك في الخطابة الدينية الاسلاميّة ؟

ج هي كلها على وتيرة واحدة ذات دائرة ضيقة معلومة
لا تكاد تخرج منها فتفتتح بالحمدلة وتُسَفِّع بالصلاة على الانبياء
وتُعَقِّب بالترهيد في الدنيا وذكر الآخرة وتُخْتَم بالدعاء.
واصحابها في الغالب على الكلام المنمَّق احرص منهم على
تحريك القلوب ودونك ما كتبه الشيخ حسن المرصفي مدرّس علوم
الادب بدار العلوم الحديويّة في هذا الشأن قال :

ان خطباء المنابر في امتنا قد تغيّروا عن آخر طبقة من طبقات العامّة بتسكّنهم
من قراءة نوع من انواع الخطب. فغاية امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خطب
صنّفه بعض اسلافه كما تجلّ مناسباً للشهور والمواسم فيتحفّظ ما تعطيه تلك النقوش
من موادّ الالفاظ وينسخ صورةً خطيّة ليخفّ حملها عليه اذا قام بها خطيباً يسرد
الفاظاً حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها. ثم اذا لم يكن

الديوان مشكولاً ولم يقرأ الخطبة على ذي دراية سمعت منه المعجب والمضطرب من اللحن الفاحش والتصنيف القبيح. فان منهم من يخاف على نفسه انتقاد السامعين فيقرأ الخطبة في اثناء الاسبوع مراراً على بعض اهل المعرفة حتى يقف على صحة النطق بها . . . وربما قرأها على رجل يقيم له ضعيف بصناعة النحو فيضلان جميعاً . . .

فان قلت: انما اردت خطباء الاسلاف. قلت لك: تجاوز عصر النبي (صلعم) وعصر اصحابه ثم اقرأ خطب الخلفاء ونوابعهم في النواحي ثم امض في ذلك طبقة بعد طبقة وعصر خلف عصر حتى تنتهي الى وقتك هذا تجد ان جميع الخطب يدور امرها على معان واحدة والفاظ معينة لا تجاوزها وهي الترهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة وتشير المطيع وانذار العاصي يكررون ذلك كل جمعة وكل موسم حتى لم يبق له تأثير والتحق بالامور المعتادة. انما يسمع الناس اصواتاً ذات كفيات مختلفة اقامة لذلك الرسم حسبما يصل اليه فهم العامة من ان تلك الصورة هي اقامة الدين. وفي صفة خطباء العصر الثاني بعد عصر النبي واصحابه يقول شاعره:

وذئبوا لنا الدنيا وهم يرضعونا افأويق حتى ما يدرك انا نعل

ولا تظن اني انتقص بذلك خطباء المصور الأولى فاضم كانوا يرون كفاية ذلك لكثرة اهل المعرفة حين ذاك. وبالجملة فكيفما كان الحال في الخطابة فهي غير كافية في تحقق الدعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تكون تلك الامة متحققة بخطباء المناير . . . وقد كانت الوعاظة حرفة شائعة وصناعة فاشية كان اهلها يتنافسونها وكثير منهم اخذ عليها الرواتب من بيوت الاموال واكثرهم كان يلم بها القبط من العامة الذين يحضرون مجالسهم. فكان الواعظ اذا فرغ من كلامه الذي اعدّه لذلك المجلس بسط منديله فطرح فيه كل ما سمحت به نفسه . . .

ومعلوم ان من نصب نفسه لوظيفة الهدى ودعاء الناس الى الخير يجب ان يكون ابعدهم من التصنع واحرصهم على الكمال فان ادنى هفوة منه تسقط اعتباره وتسهل التهاون به فلا يكون لكلامه تأثير في القلوب ويصير مجلسه مسلاة يتلهم بحضوره . . . والمحتوم على الخطباء ان يكونوا من الفطنة والذكاء وبراعة النطق وبلاغة العبارة بكان رفيع. وكثيراً ما كانت مجالسهم مواعد لاهل الخلاعات والمجون . . .

هذا ما قاله الشيخ حسين الرصفي المتوفى سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م)

• في كتابه رسالة الكلم الثمان التي نعتها بعض العارفين بلسان حال الأمة المصرية . وقد كنّا نحققنا مراراً صدق مقالهِ بطلاعة دواوين خطب المنابر . الدينية فيأخذنا العجب من عُقْمها وقَلّة فائدتها سواء كان لإنارة الأذهان في الحقائق الدينية أم لتحريك القلوب وبَعْثها على الصلاح والكمال . فهيهات ان تُقاس بالخطب الدينية الرائجة في الدول المتعدّنة البالغة الآلاف المؤلفة فلا تكاد خطب العرب بالنسبة إليها تُعدّ خطباً بل هي كتّارين يجرّرها طلبة المدارس لا تخرج عن نطاق عقولهم الضيقة . وقد بين المرصفي بوصفه الشائق سبب سقوط ذاك الفنّ الجليل في الاسلام . وانّا الامل معقود بأنّ خطباءهم العصريين يسدّون هذا الخلل بدرسهم اصول الخطابة وبالنظر في خطب ارباب الوعاظة الذين سبق لنا ذكرهم . والله الهادي الى الصواب

تمّ بحوله تعالى قسم الخطابة

ويليه قسم الشعر



فهرس

القسم الاول من علمي الخطابة والشعر



صفحة

٣

توطئة لهذه الطبعة الثالثة

٥

مقدمة لعملي الخطابة والشعر

٧

القسم الاول في علم الخطابة

=

في حقيقة الخطابة وتقسيمها ومرتبها

١٣

الفصل الاول في اصول علم الخطابة

١٤

الاصل الاول في الابداع

=

الباب الاول في الادلة

١٧

البحث الاول في المواضع الجدلية الذاتية

١٨

١ الحد

٢٢

٢ التجزئة

٢٤

٣ الجنس والنوع

٢٧

٤ الملة والمعلول

٣٢

٥ المقدمات والتوالي

٣٤

٦ الظروف

٣٧

٧ المقابلة

٣٨

٨ التشابه

٤٢

البحث الثاني في المواضع الجدلية العرضية

في التقاليد والثنى والولائق الخ

صفحة

- ٤٦ البحث الثالث في عمل المواضع الجدلية
- ٤٧ الباب الثاني في الآداب
- ٤٨ البحث الاول في حقيقة آداب الخطابة واقسامها
- ⌘ البحث الثاني في آداب الخطيب
- ٥١ البحث الثالث في آداب السامعين واخلاق الجمهور
- ٥٤ الباب الثالث في الالهواء
- ٥٤ البحث الاول في حقيقة الآهواء واقسامها
- ٥٦ البحث الثاني في اهواء النفس الشهوانية
- ⌘ المحبة والبغض
الرجبة والنفور
الفرح والحزن
- ٦٥ البحث الثالث في اهواء النفس الفضيّة
- ⌘ الرجاء والتسوط
الشجاعة والجبن
الفضب والحلم
- ٨٥ الاصل الثاني في التنسيق
- ٨٦ الباب الاول في مقدمة الخطبة
- ٨٧ البحث الاول في حسن الافتتاح
- ٩٦ البحث الثاني في بيان المقصد
- ٩٨ البحث الثالث في تقسيم الخطبة

صفحة

١٠٤

الباب الثاني في الاثبات

١٠٥

البحث الاول في تبيان القضية بالبحث والقياس

١٠٨

١ القياس التام

١١٢

٢ القياس الاضماري

١١٣

٣ الاستقراء

١١٥

٤ القياس التمثيلي

١١٦

٥ القياس ذو الحدين

١١٨

٦ القياس المركب

١٢٠

لواحق القياس

١٢٨

البحث الثاني في التنفيذ وطرائقه

١٣٣

الباب الثالث في الحتام

١٣٧

الاصل الثالث في التعبير

١٣٨

بحث في الأداء الخطائي

١٣٩

١ الذاكرة

١٤٠

٢ الصوت

١٤١

٣ الاشارات

١٤٣

الفصل الثاني في فنون الخطابة

١٤٥

الباب الاول في القول التثبتي

=

البحث الاول في الخطبة الثنائية

١٥٤

البحث الثاني في خطب التأبين

١٦٠

البحث الثالث في خطب الشكر

صفحة

- ١٦٣ البحث الرابع في خطب التهنة
- ١٦٦ في خطب اخر لاحقة بالقول التثبتي وفي انشاء هذا القول
- ١٦٨ الباب الثاني في القول المشوري
- ١٦٩ البحث الاول في الخطب السياسة
- ١٧٨ البحث الثاني في الخطب العسكرية
- ١٨١ البحث الثالث في التحريض والتقريع
- ١٨٥ البحث الرابع في خطب الطلب والتوصية
- ١٨٧ البحث الخامس في خطب الشفاعة
- ١٨٩ البحث السادس في انشاء القول المشوري
- ١٩١ الباب الثالث في القول المشاجري
- البحث الاول في الخطيب المشاجري
- ١٩٣ البحث الثاني في المواضع الجدلية المشاجرية
- ١٩٩ البحث الثالث في نوعي الخطب المشاجرية
- ٢٠٦ ١ في الدعاوي الجنائية
٢ في الدعاوي المدنية
- ٢٠٨ البحث الرابع في انشاء خطب المشاجرية
- ٢١٠ الباب الرابع في الوعاظة
- ٢١٢ البحث الاول في مصادر فن الوعظ

صفحة

٢١٧

البحث الثاني في انواع الوعاظة

٢٢٠

١ في مواعظ التعلية
٢ في مواعظ التأديب

٢٢٥

البحث الثالث في انشاء الوعاظة

٢٢٧

الباب الخامس في تاريخ الخطابة

٢٢٧

البحث الاول في اصل الخطابة واقدم آثارها

٢٢٨

البحث الثاني في الخطابة عند اليونان والرومان

٢٣٠

البحث الثالث في تاريخ الخطابة النصرانية

٢٣٥

البحث الرابع في الخطابة العربية

٢٣٥

١ في الخطابة العربية النصرانية
٢ في الخطابة الاسلامية

٢٣٧



